من أعلام الصوفية المعاصرين

العارف بالله تعالى
الشيخ

محمد علي سلامة

سيرة وسريرة

فوزي محمد أبوزيد

من

من أعلام الصوفية المعاصرين

-٢-

العارف بالله تعالى

الشيخ/ محمد على سلامة

سيرة وسريرة

فضيلة الشيخ/ فوزى محمد أبو زيد

رئيس الجمعية العامة للدعوة إلى الله

بجمهورية مصر العربية

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

فضيلة العارف بالله الشيخ محمد على سلامة

قال الإمام أبو العزائم رضي الله عنه:

لأَهْلِ اللهِ أَسْـرَارٌ خَفِـيَّة

وأَحوَالٌ تُرَى فِيهِمْ عَلِيـَّة

وأنْوَارٌ تُرَى مِنْهُمْ جِهَـاراً

يَرَوْنَ بِهَا حَقَائِقَـهُمْ جَلِيَّة

وَعِلْمٌ غَامِضٌ يُعْطَى بِفَضْلٍ

لأَنَّهُمُ تَهَـــــنَّوْا بِالمَعِيَّة

مَعِيَّةُ رَبِّهِـمْ حَالَ التَّجَلْي

بِأَفْئِـدَةٍ مِنْ الدُّنْيَـا خَلِيَّة

صَفُـوا للهِ مِنْ مَيْلٍ وَحَظٍّ

فَكَانَ القُرْبُ مِنْهُ لَهُمْ عَطِيَّة

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى أنعم على أوليائه بدوام طاعته، وأعانهم على ذكره وشكره وحسن عبادته، وهيأ قلوبهم لأنوار حضرته، وجعلهم نجوماً مشرقة للصالحين من بريته. والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد غوث الأنام، ومصباح الظلام، والشفيع الأعظم لجميع الخلائق يوم الزحام، ورضي الله تبارك وتعالى عن أصحابه الكرام، وورثته من العلماء العاملين، والصديقين والشهداء والصالحين، وكل من سلك طريقهم وتمسك بهديهم إلي يوم الدين .. آمين.

(وبعد)

فهذه سيرة رجل من كُمَّل العارفين، ومن خاصةِ خاصةِ المقربين، ورث العلوم الظاهرة وعمل بها على هدى النبوة الطاهرة، فأفاض الله عليه أسراره الباهرة، وصفاته النَّيِّرة، ووهبه مواهب المقربين، ومشاهد المحبوبين، وصفات كُمَّل الوارثين. وهو بعد ذلك كله تراه أعين الخلق في تواضع المخبتين، وخشوع الزاهدين، وانكسار المقربين.

عرفناه عن قرب، وشربنا منه صافي الحب، فوجدناه قد وسع الجميع برحمته، وعمَّهم بعطفه ومودته. فهو للصغير أبٌ رؤوفٌ رحيم، وللكبير أخٌ شفوقٌ عطوف، وللمساوى يرفع قدره، ويظهر أمره، ويعلي شأنه، وإن كان دونه في العلم والمنزلة. وديدنه الذى يحرص عليه إيقاظ المسلمين من سباتهم، وحثهم على القيام بأمور دينهم، وإثارة النخوة الإيمانية والغيرة الإسلامية في صدورهم، ولا يريد بعد ذلك أن يُعْرَفَ له أثر فى جهاد، أو منزلة كريمة بين الناس، بل إنك كلما اقتربت منه وتعرَّفت على أحواله تحقَّقت بقول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم:

(إنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ النَّقِيَّ الخَفِيّ)[١]

وكأنه هو الذى ينطبق عليه هذا الوصف الكريم الذى قاله الإمام أبو العزائم:

والعَارِفُ الفَرْدُ مَحْبُوبٌ لِخَالِقِهِ فَاتَ المَقَامَاتِ تَحْقِيقاً وَتَيْقِينا
فِي كُلِّ نَفَسٍ لَهُ نُورٌ يُشَاهِدُهُ مِنْ حَضْرَةِ الحَقِّ تَرْوِيحاً وَتَعِيينا
مَعْنَاهُ غَيْبٌ وَمَبْنَاهُ مُشَاهَدَةٌ وَالفَرْدُ مَعْنَى وَلَيْسَ الفَرْدُ تَكْوِينا
يَمْشِى عَلَى الأَرْضِ فِي ذُلٍّ وَمَسْكَنَةٍ
هَامَ المَلائِكُ شَوْقاً فِيهِ وَحَنِينا
لا يَعْرِفُ الفُرْدَ إلاَّ ذُو مُوَاجَهَةٍ
صَافَى فَصُوفِيَ فَأَحْيَا النَّهْجَ وَالدِّينَ

وقد تكبدت القيام بهذا العمل وإن لم أكن أهلاً له، لإلحاح الإخوان الصادقين – من مريدى الشيخ ومحبيه وعارفي فضله – علىَّ في إتمام ذلك، وكنت أقدم رِجلاً وأؤخر أخرى، لأنى أجد نفسى قاصرًا وعاجزًا أمام هذا المقام العليِّ والمنزل البهىّ الذى تبوأه الشيخ ﷺ من مولاه، وأنزله فيه سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخاصة أن الشيخ ﷺ كان يكتم أحواله حتى عن الخاصة من أحبابه، ولا يبيح منها لخاصة الخاصة إلا نذرًا يسيرًا جدًا جدًا، وذلك لتمكنه فى مقام العبدية والعبودية لله عزَّ وجلَّ، حتى أنه ﷺ كانت تظهر منه الأحوال العليَّة جليَّة واضحة – لا لبس ولا شك فيها – ولكنه لتحققه الكامل بمقام الفتوة وبصفات الملامتية كان يفرُّ منها ولا يقفُ عندها، ويسارع

[١] رواه أحمد ومسلم عن سعد بن أبي وقاص ﷺ

إلى نسبتها إلى ربّه وإلى بركة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، ليحقق من حوله بكمال مشاهد التوحيد العالية.

وما كتبناه في هذا الكتاب لا يساوى رذاذة من بحر عجاج هذا الشيخ العظيم، وإنما هى شذرات ولمحات تشير إلى نهجه المبارك، وهديه القويم، وأثره العظيم الذى تركه في صدور محبيه.

والله أسأل أن يغفر لى ذللى وتقصيرى، فهذا جهد المقل، والله وحده يشهد أن ما قلناه وما حكيناه ما هو إلا ذرة من كمالاته، وقطرة من فيوضاته:

﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾

(٨١:يوسف)

ونسأل الله عزَّ وجلّ أن ينظمنا في عقد أحبته، ويجعلنا من رفقائه في معيته، وأن يحشرنا يوم القيامة فى زمرة أهل محبته، وأن يثبتنا على قدم دعوته، ويكملنا بعلوم أهل وراثته، ويجعلنا من القائمين على قدم الصدق في الدعوة إلى العمل بشريعته، وإحياء سنة خير أحبته.

وصلى الله على سيدنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، آمين يا رب العالمين.

كتبه

العبد المنكسر القلب

فوزى محمد أبوزيد

دار الصفا - الجميزة غربية

البريد : الجميزة ـ محافظة الغربية ،جمهورية مصر العربية

تليفون : ٠٠٢٠-٤٠-٤٣٤٠٥١٩

موقع الإنترنت: WWW.Fawzyabuzeid.com

البريد الإليكترونى: fawzy@Fawzyabuzeid.com

fawzyabuzeid@hotmail.com,

fwzyabuzeid48@gmail.com,

fawzyabuzeid@yahoo.com

الباب الأول

بداية البداية

- **البحث عن العارف**
- **معرفة الإمام أبو العزائم رضي الله عنه**
- **البحث عن المعرفة**
- **العثور على الرَّجُلِ الحىِّ**
- **البداية الصحيحة للسير إلى الله**

بداية البداية

لما كان من الضروري – علمياً – أن يذكر الإنسان كيفية تعرُّفه على الرَّجُلِ الصالح أولاً، ليتسنى له ذكر أحواله التى رآها منه ثانياً، فقد اضطررت إلى ذكر هذه النبذة اليسيرة فى بداية سلوكى طريق القوم، وتعرُّفى على الصالحين وإن كنت لست منهم يقيناً، وإنما أحبُّهم وأحبُّ مجالسهم، وأطمع أن يدخلني الله فى رحاب أعتابهم.

وبداية ذلك أنَّى وأنا فى السنة الثانية من كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة، وكان ذلك في عام ١٩٦٧ ميلادية، حُبِّبتْ إلىَّ العبادة، وخاصة الصيام وتلاوة القرآن والصلاة على النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، والمحافظة على الفرائض في أوقاتها في جماعة، واستأنست في تلك الفترة ببعض الكتب الدينية محاولاً جهدى أن أقرأها لأعمل بها.

وكانت البداية هي كتاب: (تنبيه الغافلين) لأبي الليث السمرقندى، ثم بحثت عن منهج أسير على هديه، فوجدت ذلك فى كتاب: (بداية الهداية) للإمام الغزالى، وهو مطبوع على هامش كتابه: (منهاج العابدين)، وقد وضع فيه ﷺ منهاجاً كاملاً للفرد من وقت يقظته من نومه حتى نومه ثانية بعد صلاة العشاء، وأكرمني الله عزَّ وجلَّ بتنفيذ ما فى هذا الكتاب، بالإضافة إلى صيام يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع والأيام الفاضلة؛ كأيام العشر من ذى الحجة، ويوم عاشوراء، وغيرها.

وكذا حُبِّبَ إلىَّ الصلاة على النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، فكنت أواظب على قراءة كتاب: (دلائل الخيرات) للإمام الجزولى، وكتاب: (أنوار الحق فى الصلاة على سيِّد الخلق) للشيخ عبد المقصود سالم، وكنت أجد لذَّةً عظيمة فى الصلاة عليه صلَّى الله عليه وسلَّم

فى طريقى بصيغٍ كان يلهمني الله عزَّ وجلَّ بها، حتى كنتُ أفرُّ ممن أعرفهم فى الطريق حتى لا يشغلونى عن تلك اللذَّة العظيمة.

وجعلت لى حزباً من الصلوات والتسليمات عليه صلَّى الله عليه وسلَّم أقرأه في منتصف الليل قبل نومى، وكنت أقرأه فى سكون الليل ووحشته، وأحسُّ بأُنس عظيم يجعلنى أستحضر أنه صلَّى الله عليه وسلَّم سيحضرنى ويمكننى من رؤيته، وأنام على هذه الكيفية وأنا منتظر ومترقب لمجيء حضرته، فأكرمنى الله عز وجل برؤيته ﷺ مرات عديدة.

وقرأت فى ذلك كلاماً منسوباً للإمام الغزالى ومقتضاه: أن العبد إذا واظب على الصلاة على سيدنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، حتى يأنس به ويراه، ثم تعلو همَّتُه بكثرة الصلاة عليه فإنه صلَّى الله عليه وسلَّم يصير شيخه ويوجهه فى منامه أو فى يقظته إن كان من الأقوياء ومثل هذا لا يحتاج إلى شيخ آخر. وصادف هذا الكلام هوىً فى نفسى، وعزمت على السير فى هذا المنهج إلى منتهاه.

البحث عن العارف

وكان فى ذلك الوقت يتجمع الصالحون حول العارفين المنتقلين – وخاصة فى موالدهم – وكنت أتردد على تلك الموالد بحثًا عن الصالحين للتعرف عليهم وزيارتهم، وأيضاً كنت أتردد على الأضرحة المباركة بدعوة من أصحابها، فكنت أرى نفسى فى ضريح رَجُلٍ من العارفين – ربما لا أعرفه من قبل – فأذهب إلى زيارته.

وفى لقائى برجل من الصالحين هو الشيخ حسن شعبان[٢]، وأثناء تجاذبنا الحديث سألني: هل لك شيخ؟ فقلت: نعم، شيخي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. فقال: هذا لا ينفع عندنا – أى عند أهل الطريق – مَنْ لا شَيْخَ له فالشيطان شَيْخُه. فكانت هذه الكلمات بمثابة الشرارة التي حركت ما كمن فى نفسى من حُبِّ الاتصال بالعارفين، تحقيقًا لقول الله عزَّ وجلَّ (١١٩:التوبة):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

فكلما سمعت عن عارف أو صالح ذهبت إليه وعرضت نفسى عليه، فمنهم الشيخ أحمد حجاب ﷺ[٣]، الذى قال لى: (هو أنا شلت نفسي لما ها شيل غيرى)، فخرجت من عنده حزيناً، ولم أكن أعلم أن الأولياء قسمان: وليٌّ مُرْشِد، وهو الذى يقيمه الله عز وجل لدلالة الخلق عليه، ووليٌّ لنفسه: وهو الذى يقيمه الله لعبادته وطاعته.

ولما كانت الكلية بحيِّ المنيرة بالقاهرة فى ذلك الوقت بالقرب من السيدة زينب ﷺ، فكنت أتردد على السيدة زينب كثيراً وأسأل عن الصالحين. فذهبت إلى الشيخ عبد المقصود سالم[٤]، وعرضت عليه صحبته فقال لى: هل تزوجت؟ فقلت: لا. فقال:

---

[٢] وهو من قرية تاج العجم مركز السنطة غربية، وقد فرغ نفسه لتحفيظ القرآن، ورفض العمل بالشهادة الأزهرية رغم حصوله عليها، عملاً بالحديث الشريف الذي روى عن سيدنا عثمان عن رسول الله ﷺ قال: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) (رواه البخاري)، وقد توفي في الخامس من فبراير ١٩٧٥.

[٣] وهو رجل صالح حصل على العالمية من الأزهر الشريف، وتفرغ للعبادة في خلوة بمسجد سيدي أحمد البدوي، على نهج شيخه الشيخ محمَّد الشريف وهو من كبار أقطاب الطريقة الأدريسية، وظل على عبادته ولم يتزوج النساء حتى لقي ربه عز وجل عن عمر يناهز مائة وخمسة أعوام، وله ضريح يزار بمسجد سيدي أحمد البدوي وله كتاب مطبوع هو (العظة والاعتبار– آراء في حياة سيدي أحمد البدوي الدنيوية والبرزخية) وتوفي في ١٣ يوليو ١٩٧٨م الموافق ٩ من شعبان سنة ١٣٩٨هـ.

[٤] وهو عسكري شرطة تدرج في الوظيفة حتى وصل إلى رتبة ضابط، وكان يكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ، وله في ذلك كتاب (أنوار الحق في الصلوات على سيد الخلق) ولما فتح الله عزَّ وجلَّ عليه أسس جماعة تلاوة القرآن الكريم في السيدة

عندما تنهى دراستك وتتزوج إإتنى. فتعجبت لأنى كنت في حال لا أحسُّ فيه بأن هذا الأمر عائق فى السير إلى الله، فقلت له على الفور: وهل سيدنا عيسى تزوج؟ فأجابني: لسنا كسيدنا عيسى.

وبعد بحث جهيد مع الصادقين من رجال الله تارة، ومع البطالين فى طريق القوم – والذين هم فى نظرنا قطاع طريق للخلق، ولذا لا نجد داعياً لذكرهم – ذهبت في المولد الرجبى لسيدى أحمد البدوى بطنطا لزيارة الشيخ إبراهيم حسين عمَّار[٥] – بعد ما سمعت عنه، وعندما صافحته وجلست أمامه، أخذ يتأملنى ثم يُثنى علىَّ، وطلب منى أن أكرر زيارته، فتوثقت عُرى المحبَّة بيننا، ومكثتُ معه سنتين كانت فيهما التربية الروحية الأولى لى.

وكان رجلاً صاحب حال، وهو قطب للمقام العيسوى، فكان يضع يده على ظهرى ويربت بها فأحسُّ بحرارة الحال تنتقل إلىَّ.

وقد ورثني الله عزَّ وجلَّ ببركته أحوالاً باطنية، حتى كنت لا أطيق أن أحرك لساني لاستماعي بوضوح إلى الذكر الذى ينشغل به جنانى، إلى درجة أنى كنت عندما أركب المواصلات فى طريقى إلى الكلية، لا أحس بأجساد من حولى رغم شدة الزحام

زينب وتفرغ لجمع الخلق على الله، وله من الكتب أيضًا في ملكوت الله مع أسماء الله والحضرة في رحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد توفي في ليلة الجمعة ٢٦ من شعبان سنة ١٣٩٧هـ الموافق ١١ من أغسطس سنة ١٩٧٧.

[٥] وهو رَجُلٌ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، نزح من محافظة أسيوط واستقر بطنطا، واشتغل بالتجارة، وتعرف على الشيخ صدِّيق، وهو رجل من المجاذيب مدفون الآن بقرية ميت يزيد مركز السنطة غربية، فانتقل إليه حاله، فترك تجارته وزوجه وولده وأقام في جبل بقرية الأمبوطين مركز السنطة غربية لمدة سبع سنين، منقطعًا عن الخلق، كان فيها يجد أحيانًا من حرارة الذكر ما يدفعه إلى إلقاء نفسه في الترعة وسط الماء في البرد القارص ليلطف من حرارة داخله، ولما استقرت به الأحوال، انتقل إلى عزبة شعير وأقام بها يهدي الناس إلى الله عزَّ وجلّ، حتى توفي بها عن خمسة وتسعين عامًا، وأقيم له مسجد وضريح بها وكانت وفاته في سبتمبر سنة١٩٧٨م.

ولصوقها بى لما أنا مشغول به، وهذا حال طيّب، ولكن كان سيؤثر علىَّ تأثيراً سلبياً لولا أن تداركتني عناية الله عزَّ وجلّ، **فقد قوَّى هذا الحال عزمي على التفرغ للعبادة، ونويتُ فعلاً ترك الدراسة والبحث عن مكان منقطع أتفرغ فيه لعبادة الله** عزَّ وجلَّ **لما أجده من لذة فى العبادة، لولا أن تداركتنى عناية الله بمعرفة الإمام أبي العزائم** ﷺ.

معرفة الإمام أبو العزائم رضي الله عنه

وفي غضون ذلك، كنت لا أكفُّ عن قراءة كتب الصالحين وآثارهم، وبينما أنا في جلسة مع نَفَرٍ من محبِّي الصالحين، ذكروا لى نبذة طيبة عن الإمام أبي العزائم وعن خليفته القائم فى ذلك الوقت، وهو ابنه السيد أحمد ماضي أبو العزائم، وبعد انصرافى نمتُ في تلك الليلة فرأيت السيد أحمد ماضي أبو العزائم جالساً على كرسيه الخاص به– ولم أكن رأيته من قبل– ثم استخرت الله عزَّ وجلَّ في زيارته، فرأيت سيدنا رسول الله ﷺ وقد أخذ بيدى وطاف بي العوالم العلوية ثم هبط بي إلى الأرض، وأدخلني على الإمام أبو العزائم وقال لي: تعرف مَنْ هذا؟ فسكتُ تأدباً معه ﷺ، فقال صلوات الله وسلامه عليه: هذا شيخك. فعلمت أن هذا إذن منه ﷺ بالانتقال، فتوجهت إلى السيد أحمد وكان عنده نَفَرٌ من الإخوان فانصرفوا سريعاً، وبقيت أنا وهو، فبايعته ولزمت طريق أبيه ﷺ.

البحث عن المعرفة

ولما كان الشيء الذى يؤرقنى ويدفعنى إلى البحث عن الصالحين هو كيفية معرفة الله عز وجل المعرفة الشهودية، وذلك لا يتأتى إلا بانكشاف أنوار البصيرة النورانية، فكان أو سؤال أطرحه على كل عارف ألتقى به هو: كيف تنفتح البصيرة؟ وكان كل واحد منهم يجيبني على حسب منهجه ومشربه.

ولما دخلت رياض المدرسة العزمية وجدت فيها طريقة التربية تختلف من فرد إلى فرد، فقد ربى الإمام أبو العزائم أفراداً على نهج الدعوة الصوفية الحقة. وأذن لهم فى الإرشاد، فكانوا يجوبون البلاد ويلتف حولهم الصادقون ويحيط بهم المطلوبون، ولكل واحد منهم نهج خاص به، وفي ذلك يقول الإمام ﷺ: (الوسعة تقتضي التفاوت).

فوسعة المرشد تقتضى تفاوت مشارب ومشاهد السالكين، فكان أن تقلبت على بعض هؤلاء الهداة أطلب الحصول على بغيتى، وهى فتح باب البصيرة.

وكان أول من تلقيت منهم الشيخ طاهر مُحَمَّد مخاريطة[٦]، فتعلقت به لأن الله وهبه لسان حال الإمام أبى العزائم، ومن شدة تعلقى به أنى– وقد كنت مواظباً على حضور دروسه في شتى الأنحاء –كنت أحفظ الدرس كلَّه من أوله إلى آخره، وأعيده على إخوانى بعد رجوعى– بِقَالِهِ وحَالِه– وكأنه شريط مسجل. وقد كان له الفضل علىَّ إذ حثنى على الإقبال على دراستى حتى الانتهاء منها، ثم بعد ذلك يكون الإقبال بالكلية على طريق الله عزَّ وجلّ. ولما كاشفته برغبتى ومنيتى، دلنى على الأوراد العزمية من الأحزاب والفتوحات الخمسين فى الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ، واللطائف البرزخية وغيرها، حتى أنه لما وجد نَهمى في ذلك، وأن كل ما وظَّفه لى لا يشبع رغبتى، قال لى: كل الأوراد مفتوحة لك ومعك الإذن فيها.

ولما كان من شروط السلوك الصحيح – الذى يعقبه الفتح عند الصوفية – أن المريد لا يفعل ورداً إلا بإذن من شيخه، حيث أن الإذن يفتح له باب الإمداد، ويجعل روح الشيخ تلاحقه فتحفظه من العقبات الخفيّة والوساوس النفسانيّة، فقد فرحت بهذا الإذن وأقبلت على الأوراد بهمة لا تكلّ، غير أن هذا لم يشف غليل نفسي، وكان قول الإمام أبي العزائم:

أبَداً إلى هذا الجَنَابِ حَنِينِي لا صَبَرَ لِى حتَّى تَرَاهُ عُيُونِى

[٦] وكان أبوه الشيخ مُحَمَّد مخاريطة من دمياط ومقيم في بورسعيد، وهو رجل من الصادقين في صحبة الإمام أبي العزائم وقد رباه أبوه هو وبنيه الآخرين على هذا الحب الصادق مما جعله يترك عمله في التجارة ويتفرغ للدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، وله لسان بيان يجذب القلوب إلى الله عزَّ وجلَّ، مع الصدق في الحال والنورانية والشفافية، وإن كانت تدهورت حالته الصحية في الفترة الأخيرة لكبر سنه، فلم يعد يستطيع القيام بأعباء الدعوة، وهو مقيم الآن في الإسماعيلية.

يرنُّ في أذني دائماً، مما حدا بي أن أكشف هذا الأمر للشيخ مُحَمَّد شحاته هنداوى[٧]، فقال لى: الذى يفتح البصيرة هو ذكر الله عزَّ وجلّ، ولكنه لم يبين لي كيفية هذا الذكر ولا طريقته، فعرضت الأمر على رجل آخر من الدعاة وهو الشيخ قطب زيد[٨]، فأجابني إجابة فهمتُ منها أنه يريد صرفى عن هذا الأمر، وأن يكون كلُّ هِمّى هو الإقبال على مجالس الإخوان، وتبادل الزيارات، وقراءة الصلوات فى الجماعة.

هذا ولم يكن يعجبنى المفاهيم التى راجت وسط جموع إخوان آل العزائم فى ذلك الوقت، حيث أنهم كانوا يروجون فيما بينهم أن هذه الأذواق العالية والأحوال الراقية والمشاهد السامية قاصرة على الإمام أبى العزائم ﷺ فقط، أما الباقون فيكفيهم أن يحبُّوه ويقبلوا على الأوراد والمجالس ولا يكلفون أنفسهم هذا الأمر، ويؤيدون دعواهم في هذا الأمر بأن هذه الأشياء تنال بفضل الله فقط وليس للمجاهدات فيها شأن. وكنت أرد عليهم بما سمعته منهم من أحوال الإمام أبى العزائم وغيره من الصالحين ومجاهداتهم الفادحة في ذات الله عزَّ وجلّ، وفي أن اصطفاء الله عزَّ وجلّ لم يتوقف، وفضله سبحانه وتعالى واسع وغير محصور، ورحمته عزَّ وجلّ واسعة تسع كل من اهتدى وأناب، وقد قال سبحانه وتعالى (٧٥:الحج):

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾

[٧] وهو رجل من بلدة الخادمية محافظة كفر الشيخ، تعرف على الإمام أبي العزائم في صباه وقد كان طالب علم بالمعهد الأزهري، فترك دراسته ومشى خلف الإمام أبى العزائم حتى فتح الله عليه وصار من كبار الدعاة إلى الله عز وجل وإن كانت تعتريه حدة أحيانًا، وقد توفي بكفر الشيخ في رمضان سنة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م عن عمر يناهز التسعين عامًا رحمه الله رحمة واسعة.

[٨] وهورجل من بلدة القنّ مركز سيدي سالم محافظة كفر الشيخ، وقد دعا له الإمام أبو العزائم بما دعا به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله(اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل) فكان يتجلى على قلبه حقائق صادقة في معاني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وظل مجاهدًا في الله طوال حياته حتى لقي ربه ودفن ببلدته سنة ١٩٨٣م.

فكلمة (يَصْطَفِى) بصيغة المضارع: تدل على دوام هذا الأمر إلى يوم القيامة.

العثور على الرَّجُلِ الحىِّ

ظللت على هذا الحال فترة من الزمن وأنا مشغول بالرجل الحىّ الذى يأخذ بيدى إلى الله، وإن كنت تيقنت أنه من بين أفراد آل العزائم للرؤية التي ذكرتها من قبل. وبعد انتهاء دراستي فى الجامعة وحصولى على درجة الليسانس من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة سنة ١٩٧٠ ميلادية صدر قرار تعييني بوزارة التربية والتعليم بمحافظة قنا، وذهبت إلى قنا واستلمت العمل بأرمنت مدرساً إعدادياً للغة العربية، فتعرفت على ثُلَّةٍ قليلة لكنها مباركة تعرف الإمام أبا العزائم معرفة يقينية، ولما سألتهم عن سبب معرفتهم بالإمام أبي العزائم قالوا: الشيخ مُحَمَّد على سلامة.

ولا أنس تلك الليلة المشهودة حيث دعونى لأحضر معهم احتفالاً بميلاد سيدنا رسول الله ﷺ، في منزل الشيخ عبد اللطيف مُحَمَّد على التاجر بأرمنت، وبعد تناول العشاء تجاذبنا أطراف الحديث فأذهلني ما رأيته منهم من الأحوال العالية، والأخلاق والكمالات السامية، مع أنهم كانوا قوماً غير معروفين في هذا الشأن، سواء بين إخوانهم من آل العزائم الظاهرين، أو بين ذويهم والمحيطين بهم، لأنهم شعارهم قول الإمام أبي العزائم:

أَخْفُوا عُلُومَكُمُ صَوْناً لهَا عَمَّنْ مَالُوا إلى الحَظِّ مِنْ زُورٍ وَبُهْتَانِ

فمنهم الشيخ أبو العدب[٩] الذى قال لى: "عرفتم أبو العزائم بالقول وعرفناه بالعين". وأما الذى كان له الفضل الأكبر علىَّ فى معرفة شيخى وإمامى فهو الشيخ أحمد حسن غرباوى[١٠]، وهو الباب الذى دخلت منه على الرجل الحىّ. فعندما أصابتنى الدهشة من جمال هذه الأحوال التى كنت أبحث عنها، وسألتهم عن سرِّ تجمُّلهم بها، فألمح إلى فضيلة الشيخ مُحَمَّد على سلامة، وكان قد انتقل فى ذلك الوقت إلى بلدة ههيا محافظة الشرقية، ولم أكن قد حظيت بمقابلته رغم ذهابي إليها مراراً لشدة تكتمه وخفاءه.

وبعد انتهاء السهرة ذهبت إلى غرفتى فنمت مأخوذاً بهذه الأحوال، فرأيت الشيخ ﷺ في المنام وهو ينظر إلىّ، وأخذ ينظر إلىّ ويطيل النظر، وكلما نَظَرَ إلىّ أحسستُ بأننى أغيب عن كيانى وأرتفع إلى الملكوت وأشاهد أشياء لا أذكرها الآن، فتعجبتُ مما رأيت وشاهدت، وهممت أن أسأل عن سرِّ ذلك، فسمعت صوتاً يجيبني عما جاس في خاطرى قبل أن أتكلم به ويقول: لكل أمةٍ نبيّ، وهذا الرجل نبيّ هذه الأمة. فاستيقظت وقد علمت أنه الرَّجُلُ الحىّ الذى يُحيى به الله القلوب والذى يقول فيه الإمام أبو العزائم:

(اللهُ حىٌّ قائم، ولا يصل إليه واصلٌ إلاَّ بحيٍّ قائم)

ويقول فيه أيضًا:

---

٩ وهو رجل أخذته الجذبة الإلهية عندما وُوجه بالأنوار الحقية في صحبة الشيخ مُحَمَّد على سلامة وإن كان مع شدة جذبه شديد التمسك بالأوامر الشرعية، وقد توفي ودفن الآن ببلدته: حاجر الرزيقات قبلي مركز أرمنت في ١١ مارس ١٩٨٦م، وكان يتميز بالكشف الصريح، والمعرفة بما يدور في الخواطر، وإن كان يستر ذلك بظهوره في حالة الجذب.

١٠ وهو رجل من خاصة أولياء الله ومن كُمَّل ورثة أنبياء الله تعرفه بقاع السماء وتجهله بقاع الأرض، يدعو إلى الله بسره وحاله، وهو الآن قائم ببلدته الرزيقات قبلي مركز أرمنت يجمع حوله الصادقين ويوجه بإشاراته المقربين، ويرفع بأحواله العالية السالكين.

(نَفَسٌ مع الحيِّ حياةٌ للقلب، ونَفَسٌ فى حياة القلب خَيْرٌ مِنْ حياة الفردوس)

ويقول أيضًا للمشغولين بالعبادة والظانين أنها تغني فى مقام الوصول عن معرفة العبد الموصول:

(إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول)، وأول أصل من هذه الأصول أن يجمعك الله على عبد موصول لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٤٣:النحل]

ويقول لهم أيضًا:

ألفُ عَامٍ بِغَيْرِ بَابِ التِّهَامِى هى نَفَسٌ بُشْرَى لأَهْلِ السَّمَاحِ

ويُعرفهم فضل الجلوس مع العارف الحى فيقول:

(نَفَسٌ مع العارف خيرٌ مِنْ عمل العبَّاد والزهَّاد لسنين طوال).

وشاءت إرادة الله أن أعثر بعد ذلك على الحديث الذى يوضح ما رأيته فى المنام وهو قوله ﷺ:

(الشَّيْخُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ)[١١]

فعلمت أنه ﷺ شيخ هؤلاء القوم الذين كنت معهم – ومن على شاكلتهم، وهو الباب الذى تفاض منه علوم النبوة وأحوالها لهم، وعلمت أيضاً أن الله عزَّ وجلَّ تفضل علىَّ وجعلني معهم، وأسأله سبحانه وتعالى أن يزيد علىَّ هذا الفضل ويجعلنى منهم لقول الإمام أبي العزائم ﷺ: (من كان معنا فقه المعنى، ومن كان منا نال المنى).

[١١] رواه الديلمى (مسند الفردوس)، وأبو نعيم (الحلية)، والسيوطى (الجامع الكبير) من حديث أبى رافع.

اللهم أنلنا المُنى، ومتع عيوننا بمشاهدة أنوار نبيِّنا، وأسرارنا بشهود محبوبنا، ونفخة قدسنا بمعاينة الكمالات الربانية والأنوار الذاتية، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد سرّ الخصوصية، وفرد الحضرة الذاتية، وكاشف كل الكمالات لأهل النفوس الذكية، وآله ورَّاث تلك الحضرات النورانية، آمين يا رب العالمين.

البداية الصحيحة للسير إلى الله

وكان من فضل الله عزَّ وجلَّ علىَّ أن أكرمني بصحبة أخى الشيخ أحمد حسن غرباوى الذى أخذ بيدى إلى الطريقة الصحيحة لتهذيب النفس، وصقلها وتكميلها بالآداب العالية الواجب إتباعها عند الدخول على الشيخ أو مصاحبته، وفي ذلك يقول الإمام أبو العزائم:

(على السالك فى طريقنا أن يصطفى له أخاً صادقاً سبقه فى صحبة الشيخ، يتأدب بأقواله، ويتهذب بأفعاله، ويأنس بأحواله، حتى يُدخله على حضرة المرشد، ويكشف له عن جمالات وكمالات المرشد، لأن المرشد في ذاته عَبْدٌ ولا يتحدث عن نفسه).

وكنت وأنا في غمرة تلك الأحوال أتطور سريعاً في الأحوال الروحانية، وأشعر بشوقٍ شديد إلى لقاء الشيخ ﷺ، إلى أن حانت الفرصة ونزلنا لقضاء إجازة العيد، فذهبت توًّا للقاء الشيخ ثانى أيام عيد الفطر المبارك، وكان هذا أول لقاء بيني وبين الشيخ.

واستهله ﷺ - بعد سؤاله عن الإخوان – بأن حكى لى قصة الرجل الذى عزم على زيارة الشيخ أبى الحسن الشاذلي ﷺ، وأثناء سيره إليه وجد عابداً يسكن فى كوخ صغير بالقرب من ساحل البحر، فعرَّج عليه ليتعرف عليه، وعرف منه أنه يصوم النهار

أبداً ويقوم الليل أبداً، ولما سأله العابد عن وجهته؟ عرف أنه متجه لزيارة الشيخ أبو الحسن الشاذلي فطلب منه أن يسأل الشيخ أن يدعو له.

فسار الرجل فى طريقه حتى وصل إلى الإسكندرية، ونزل على القطب أبى الحسن فوجد من خيرات الله الحسية والمعنوية ما لا يحيط به الوصف، وبعد قضاء مدة الضيافة، استأذن الشيخ فى السفر فسأله الشيخ: ألم يكلفك أحد بشيء؟ فحكى له ما دار بينه وبين العابد. فرفع يديه وقال لأصحابه: إني داعٍ فأمِّنُوا: (اللهم انزع حب الدنيا من قلبه).

فتعجب الرجل!! وسافر راجعاً حتى وصل إلى كوخ العابد، فسأله عن رحلته فأخبره بها وكتم عنه حياءً منه ما دعا به الشيخ له، لما يراه من عبادته، ولكن العابد ألحَّ عليه فى معرفة الدعوة التى دعا بها الشيخ له، فذكرها له. فقال الحمد لله لقد تعرفت الإجابة وأحسست بها فى نفسى منذ ذلك الوقت.

فقال الرجل مندهشاً: وما الدنيا التي عندك؟!!

فقال: أنا أصوم النهار، فإذا دنا المغرب ذهبت إلى البحر لأصطاد شيئًا أفطر عليه، فكان الله عزَّ وجلّ يُخرج لى كل يوم سمكة واحدة، كأنها هى بعينها التي أتحصل عليها كل يوم، ومهما اجتهدت فى الحصول على غيرها لا أستطيع!!

فكنت كل يوم وأنا ذاهب إلى البحر أتمنى بقلبى أن يرزقني الله بسمكة أكبر أو بأخرى معها. فلما دعا لى الشيخ لم أعد أجد ذلك الخاطر فى نفسي. فزادت دهشة الرجل من أحوال الصالحين وعزم على زيارة الشيخ أبا الحسن في السنة التالية.

وعندما ذهب إليه فوجئ بأن الأكل غير ما اعتاده، فهو صنف واحد في كل يوم، في الفطور والغداء والعشاء!! فتعجب من ذلك وظن فى نفسه أن الشيخ لا يريد

إكرامه، مع أنه كان يأكل معه. وأدرك الشيخ ببصيرته النورانية ما يختلج بصدره فقال: (نحن قوم نجود بالموجود ولا نتكلف المفقود).

فكانت هذه الحكمة هي المفتاح الذى فتح قُفل قلبه ووضعه على أول طريق الفلاح، الذى نهايته لقاء الكريم الفتاح.

وقد أثمر هذا اللقاء عندى عدة أشياء منها:

– أنى فهمت أني أنا على شاكلة هذا العابد لشغلى في ذلك الوقت بالعبادة، لأن المريد الصادق يأخذ كل حديث للشيخ فى الخلوة أو فى الجلوة على أنه هو المقصود به ولا شأن له فى ذلك بغيره.

– ومنها أني علمت أن المريد لا يصح له وضع قدم في طريق الله عزَّ وجلَّ حتى يخلع الدنيا بالكلية من قلبه.

– ومنها أنى أدركت أن دعوة الشيخ وقد كررها أمامى ثلاثاً – هى لى. والحمد لله شعرت بالإجابة من وقتها، فصارت الدنيا لا تساوى عندى قليلاً ولا كثيرًا بجانب رضا الله عزَّ وجلّ.

أما (الدنيا) التى كانت عندى، فهى أنى كنت أعبد الله عزَّ وجلَّ لأنال آمالاً وقصودًا فى نفسى، وهي وإن كانت قصودًا راقية – لأنها تتعلق بالدار الآخرة والوصول إلى الله عزَّ وجلَّ – إلا أنها لا تليق بآداب أهل الحضرة الذين يعبدون الله عزَّ وجلَّ لا نوال عطاء، ولا خوفًا من جزاء، وإنما لأنه سبحانه أهلاً لهذه العبادة.

وهذه طريقة العارفين، حيث يرمزون إلى السالكين بما يصحح أحوالهم فى سياق حديثهم – حتى ولو كان حديثاً عادياً – وفي ذلك يقول الإمام أبو العزائم ﷺ:

عَنِّي اسمَعُوا مَا تَعْقِلُونَ مِنْ الكَلام فَالعِلْمُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ صَافِي المُدَام

والعِلْمُ باللهِ العَلِيَّ غَوَامِضٌ لا يُفْقهن إلاَّ لِصَبٍّ فِى اصطِلام

خُذْ مَا صَفَا لَكَ مِنْ إشَارَةِ عَارِفٍ فالعَارِفُونَ كَلامُهُمْ يَشْفِى السِّقَام

وهكذا بدأت السلوك إلى الله عزَّ وجلَّ – الحقيقي – على القدم الثابت المحمدى فى حظوة هذا الولى، وما دار بيننا سنذكر بعضه فى ثنايا هذا الكتاب تنشيطاً لهمم الأحباب، ورفعاً لعزائم الطلاب، وإن كان أغلب ذلك لا يليق أن نذكره لقوله ﷺ:

(المَجَالِسُ بِالأَمَانَات)[١٢]

وقانون أهل الحضرة في مجالسهم: (نحن قوم نجلس مع الله، فإذا قمنا من المجلس فكأنما لم نجلس)، كتماناً للسرّ. وهذا لأن هذه العلوم والأسرار تحتاج إلى أذواق خاصة، فالطريق إليها الحكمة القائلة: (ذُق تعرف)، والإشارة إليها فى قول الإمام الغزالي:

فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ فَظُنَّ خَيْراً ولا تَسْأَلْ عَنْ الخَبَرِ

وهي المعنية بقول الإمام أبي العزائم ﷺ:

إحْفَظَنْ سِرّى فَسِرّى لا يُبَاح مَنْ يّبُحْ بِالسِّرّ بّعْدَ العِلْمِ طَاح

عِلْمُنَا فَوْقَ العُقُولِ مَكَانَةً كَيْفَ لا وَهُوَ الضِّيَا الغَيْبُ الصُّرَاح

[١٢] رواه أبو داود عن جابر

خَصَّـنَا بِالفَضْـلِ فِيهِ رَبُّنَـا ذَاكَ سِـرٌّ غَامِضٌ كَيْفَ يُبَـاح

والله أسأل أن يوفق الجميع إلى الهدى والصواب، وأن يبين مناهج الحقِّ فى هذا الزمان للصادقين من الطلاب، وصلى الله علي سيدنا مُحَمَّد وآله الأنجاب، وورثته الأقطاب. وكل من تبعهم بخير إلى يوم فصل الخطاب.

الباب الثانى
أطوار حياته الأولى

- قيادة حكيمة وأسرة مستقيمة
- مولده ونشأته

سنتحدث في هذا الباب عن بداية الشيخ الأولى، وتشمل ميلاده، ونشأته في صغره، بقدر ما نما إلينا من معلومات، لأن الشيخ ﷺ كان لا يتحدث عن نفسه إلا لماماً في الجلسات الخاصة، أما المجالس العامة فلم يكن يتحدث عن نفسه فيها مطلقاً، ولكونه كان منذ بدايته مشغولاً بربّه كاتماً لأحواله، فكثيرٌ من أقرب المحيطين به لا يعلمون عنه كثيراً من أخبار هذه الفترة، بل إنه كان أحياناً يكون بداخل المنزل وهم يبحثون عنه ظانين أنه بالخارج!! لرغبته الشديدة في الخلوة عن الخلق والإقبال على الحقِّ، حتى أنس بهذا الحال منذ صباه. وإلى مثله يشير الإمام أبو العزائم فيقول:

الأُنْسُ بالله أغْنَانِي عَنْ النَّاسِ والأُنْسُ باللهِ مِعْرَاجِي ونِبْرَاسِي

فما نسوقه في هذا المجال إنما هي شذرات سمعناها منه ﷺ في مجالسنا الخاصة معه، أو في سياحاتنا الروحانية في صحبته ﷺ.

قيادة حكيمة وأسرة مستقيمة

لا شك أن البيئة التي ينشأ فيها الأفراد عليها المعول الأول في تربيتهم على الفضائل والكمالات، وغرس المبادئ الراقية، والمثل العالية، في قلوبهم ونفوسهم، وفي ذلك يقول القائل:

ويَنْشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ مِنَّا عَلَى مَا كَان عَوَّدَهُ أَبُوه

فمثلاً نجد الشيخ سهل بن عبد الله التستري ﷺ يُرْجع سِرَّ ورعه وزهده إلى أنه تربَّى في بيت خاله مُحَمَّد بن سوار، فكان يرى خاله يقوم الليل، فيقوم ويقف بجواره،

ويصنع كما يصنع، وعمره لا يزيد عن ثلاث سنوات!!! فلما رأى خاله حاله قال له: يا سهل، قل ثلاث مرات كل ليلة: "الله معى، الله ناظر إلىَّ، الله شاهد علىَّ". فواظب عليها أسبوعاً، فقال له: يا سهل، كرر ما قلت لك إحدى عشرة مرة كل ليلة. وبعد مواظبته عليها لمدة سنتين، قال له: "يا سهل، من كان الله معه كيف يخشى غيره؟ ومن كان الله ناظراً إليه كيف يعصاه؟ ومن كان الله شاهداً عليه كيف لا يصلح شأنه؟"، اجعل هذه الكلمات وردك في كل عمرك، وحافظ عليها حتى تلقى الله عزَّ وجلّ. فكانت سرَّ فتوحه وصلاحه ومعرفته، والأمثلة في هذا كثيرة وكثيرة.

ولذلك نجد الشيخ ﷺ – كان متأثراً أشد التأثر بأبيه رحمه الله رحمة واسعة، وكان يذكره دائما ويذكر توجيهاته له وهو في صباه، فقد كان الشيخ على سلامة من أعيان مدينة ههيا محافظة الشرقية، وهو وإن كان لم ينل قسطاً كبيراً من العلم إلا أنه كان شديد الإقبال على دروس العلم والعلماء، فكان مع شدة شغله بالإشراف على زراعة أرضه الواسعة، يحرص كل الحرص على أداء الفرائض في وقتها في جماعة بالمسجد، ويحرص حرصاً شديداً أن يدفع أولاده على ذلك، وكان من يتخلف لا يكتفي بلومه بل يعاقبه عقاباً شديداً حتى لا يعود إلى تقصيره مرة أخرى.

وكان أيضاً شغوفاً بالعلم وأهله، حتى أنه لم يكن يفوته درسٌ واحد من دروس العلم بالمسجد الكبير بههيا – القريب من بيته، بالإضافة إلى أنه اشتهر بين قومه بأنه موئل العلماء، فكان يتمسك دائماً بضيافتهم وإكرامهم، سجية وفطرة في نفسه وطبعه. وقد اتضحت همَّتُه العليَّة أكثر في اتصاله برجالات الطرق الصوفية فى عصره. فقد اتصل بالشيخ عبد الوهاب الحصافي شيخ الطريقة الحصافية الشاذلية بعد والده الجليل

الشيخ حسنين الحصافي[١٣]. وكان يدعوه لزيارته هو ومحبيه في منزله بهيا باستمرار. ولما كان – لاستنارة بصيرته – غير متعصب، فقد كان يحضر مجالس الصوفية الآخرين.

وتصادف أن ذهب دعاة من آل العزائم في ذلك الوقت إلى هيا وتحدثوا ببعض علومهم في المسجد الكبير، فسمعهم الشيخ على وأعجب بهم ودعاهم إلى منزله ولازم هو وأولاده جميعا منذ ذلك الوقت الطرقة العزمية، وإن كان لم يقطع زيارة الشيخ عبد الوهاب الحصافي.

بل إنه لما تبرم بعض المريدين الحصافية من ذلك، قال للشيخ أمامهم: أنت شيخنا ونحن على العهد ونحن نَحِنُّ إلى زيارتكم ونريد أن تكون مرتين في العام بدلاً من مرة واحدة، ونحن نحب جماعة آل العزائم وندعوهم إلى بيتنا حُبّاً لهم وإن كنا على العهد معكم، فهل فى هذا شيء؟ فقال الشيخ: لا. فزادت المودة وقويت الألفة،

وضرب الشيخ علىٌّ مثلاً فريداً للتصوف الحقّ الذى لا يتعصب لمذهب أو شيخ، وسط هذا الزمن المملوء بالعصبيات والتكتلات نتيجة جهل أغلب الناس بأسس دينهم.

ومن هنا وجدنا الشيخ على سلامة يربى أولاده التربية الإيمانية السليمة، فهو يحرص على إطعامهم اللقمة الحلال المباركة، ويلين قلوبهم وأجسادهم إلى طاعة الله

[١٣] كان للشيخ حسنين الحصافي ﷺ دورٌ بارزٌ في إذكاء الروح الدينية والصوفية في مستهل هذا العصر، فقد جعل من داره في القاهرة منتدى يجمع صفوة المجتمع في العلم والأدب، بالإضافة إلى راغبي المعرفة وطلاب الحكمة من مختلف الأعمار، ونظرًا للمناظرات العلمية والقضايا الدينية التي كانت تدور في مجلسه بحضور صفوة علماء الأزهر في ذلك الوقت كالشيخ حسن الطويل والشيخ الساعاتي وغيرهم، فقد أقبل عليه الشباب الذين تغلب عليهم الغيرة الدينية ونهلوا من هذه المجالس ما جعلهم ينشئون نهضة دينية واسعة النطاق، وكان من أبرز هؤلاء الشباب الذين تخرجوا من المدرسة الحصافية الشيخ محمد ماضي أبو العزائم، وقد ذكر ذلك في هامش كتابه: (أصول الوصول)، وأيضًا الشيخ حسن البنا رائد الإخوان المسلمين، وقد كتب عن ذلك في مذكراته حتى أنه وصف دعوته – وهي دعوة الإخوان – بأنها صوفية وسلفية. وهذا يوضح لنا أثر المدارس الصوفية في تربية الأفراد وإصلاح المجتمعات.

وذكر الله، فيتحرى قيامهم بالفرائض فى أوقاتها، ويتعهد أخلاقهم ويقوم بتهذيبها وصقلها، وكان يجمعهم فى كل ليلة قبل النوم يعظهم ويذكرهم ثم يدعوهم إلى ذكر الله عز وجل، فلا ينامون إلاَّ على ذكر الله، فنشأوا جميعًا رجالاً من الذين قال فيهم الله عزَّ وجلَّ (٣٧:النور):

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾

مولده ونشأته

ولد الشيخ في هذه الأسرة المباركة بهيا وذلك في العشرين من نوفمبر سنة ألف وتسعمائة وثمانية وعشرون ميلادية، فتربى منذ نعومة أظفاره على التُّقى والورع، وحفظ القرآن الكريم كله صغيراً، وأتم تجويده بعد ذلك، وألم بالقراءات السبع المتواترة، ثم التحق بمعهد الزقازيق الديني وأتم فيه دراسته الإعدادية والثانوية.

وكان لما يراه في بيته من الأحوال الدينية والأخلاق الربانية أثر كبير فى نفسه، فقد تعلق بالعلم والعلماء تعلقاً بالغاً، وأقبل عليه بنهم شديد، حتى أنه كان لا يُرى إلا معه كتاب دينى يطالعه، أو مع عالم يستوضحه ويناظره، أو مشغولاً بعبادة ربّه عزَّ وجلّ. وتعلقت روحه بشدة برجل من صفوة الدعاة إلى الله وهو الشيخ عبد السلام الغريب[١٤]، وهو من صفوة أتباع الإمام أبي العزائم رضي الله عنه، اقتبس منه العلم النافع،

[١٤] وهو رجل صحب الإمام أبي العزائم بصدق، فأفاض الله عليه من علومه الوهبية وخلع عليه من صفاته الربانية ما جعل له قبولاً وإقبالاً في أفئدة الصادقين والصالحين، فكان إذا تحدث في مجلس أخذ بألباب الحاضرين والسامعين، حتى أنه كان إذا تحدث عن الجنة يشعر السامعون وكأنهم في الجنة، يشمون عبيرها وينتشون بأريجها فيصيح بعضهم طربًا وسرورًا، وتنخلع قلوب بعضهم شوقًا وحبورًا، وإذا تحدث عن جهنم يكثر الباكين، وترتفع أصوات الخائفين، ويظهر الوجوم على وجه السامعين. وكان له أسلوبه الفريد في الدعوة إلى الله عز وجل، فمثلا عندما دعاه آل العزائم ببورسعيد لإحياء ليالي شهر رمضان عندهم ووجدهم قد أعدوا له جدولاً يطوف فيه على مساجد المدينة بحيث يزور كل يوم مسجداً نظر إليهم بعد الإطلاع عليه وقال: "إن الذين

وتلقى منه الحال الرافع، وإن كان لم يمنعه هذا من الاتصال والجلوس والاستماع لغيره من الدعاة والهداة والمرشدين.

وفي هذه المرحلة توفي والده ﷺ، ومع أنه ترك له ولإخوته خيراً كثيراً، وقام له إخوته بالواجب عليهم خير قيام، إلا أنه رضي الله تعالى عنه لشدة عِفَّة نفسه آثر أن يبنى نفسه بنفسه، وأن يتولى الإنفاق على نفسه من كدِّه وتعبه.

فعندما حصل على الثانوية الأزهرية التحق بكلية أصول الدين جامعة الأزهر الشريف، وكانت بجامع الخازندارة بشبرا في ذلك الوقت وتصادف أن أعلنت وزارة الأوقاف عن مسابقة لتعيين أئمة بها بالثانوية الأزهرية، فتقدم إليها ليمارس منيته ورغبته في الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ ويكفل نفسه في دراسته التي حولها إلى نظام الانتساب.

وقد تأثر في طريقته بتلاوة القرآن بالشيخ مُحَمَّد سعيد نور الذي كان يقرأ قرآن الجمعة قبل الصلاة بمسجد الخازندارة فكان يبكي طوال قراءته لشدة تأثره بكتاب الله ويبكي السامعين.

****

بالمساجد هم المهتدون، وإنما نريد أن نرد الهاربين والشاردين"، وقد قال الله عزَّ وجلَّ لسيدنا داود:(يا داود من ردَّ إلىَّ هارباً كتبته عندى جهبذا –أي عالماً كبيراً). وطلب منهم أن يصنعوا له جدولاً بأسماء المقاهي الكبرى ببورسعيد على أن يذهب معه واحد منهم فقط. فيذهب مع رفيقه ويجلسان على منضدة ويتسامر معه فإذا بمن حولهما يلتفُّون بهما حتى يترك اللاعبون للنرد والورق وغيره ألعابهم ويستمعون له، فيصعد على المنضدة ويأخذ ألبابهم بحديثه حتى وقت السحر، فيتوب الله عز وجل على من شاء منهم وهكذا كانت دعوته ﷺ بهذه الحكمة العالية وكان يرتل القرآن بصوت له تأثير غريب في نفوس السامعين وظل على هذا الحال حتى لقي ربه راضيا مرضيا وإليه يرجع الفضل في معظم البلاد التي انتسبت إلى الطريقة العزمية وعلى يديه اهتدى خيار رجالها وتربى كمل أفرادها.

الباب الثالث

منهجه فى الدعوة الإسلامية

- الحكمة والموعظة الحسنة
- القدوة الحسنة
- الحج إلى بيت الله الحرام
- الصـــــدق والإخـــــلاص
- الدعوة إلى الألفة ونبذ العصبية
- الوفـــــــــاء

الحكمة والموعظة الحسنة

بعد نجاحه في اختبار الإمامة، عينته وزارة الأوقاف إماماً في محافظة أسوان سنة ١٩٥٤م. وتم توزيعه هناك إلى مسجد عزبة العسكر أقصى جنوب أسوان. وذهب إلى المسجد، ولم يكن هناك سكن بالمسجد للإمام أو بالقرية للراغب، فتحمل المشقة وكان ينام في صحن المسجد رغم أنه لم يكن له باب محكم، وجعل كل همِّه فى إصلاح أحوال تلك البلدة، فقد وجدهم متعلقين أشد التعلق بالخمر، ولا يكفون عنها بليل أو نهار، فأخذ يغشاهم فى مجالسهم، ويدعوهم إلى تركها، ويبين لهم آثامها ومضارها فى حكمة وبرحمة ولين، حتى انقادوا له، واستجابوا لله وللرسول، وبدأ المسجد يغصُّ بهم حتى عجز عن استيعابهم فكانوا يفترشون خارجه وقت الصلاة.

كل ذلك وهو لا يتألم، ولا يشكو من المعاناة والشدائد التي كان يتعرض لها، فقد كان عندما ينام يفاجأ بقطعان الضباع الجائعة – وهى كثيرة في هذه المنطقة – تدخل عليه وتشمه ثم تذهب، وهو راقد على جنبه منشغل بذكر الله عنها، وتسامع الناس بما فعله في أهل هذه المنطقة، فجاءوا إليه زرافات ووحداناً حتى كان المحافظ يحضر لصلاة الجمعة معه باستمرار.

وبعد أن أدى رسالته، وأقلع سكان المكان عن الخمور، ورجعوا إلى الله تائبين، إذا بالشيخ الأمير مُحَمَّد الحنفى– مراقب عام الوعظ بالوجه القبلى فى ذلك الوقت– يسمع به، وكان محبّاً للصالحين، فذهب لزيارته، وعندما وصل إلى المسجد وجد عجباً!! وجد الشيخ نائماً وحوله دائرة تبعد عنه – بمسافة ما – من العقارب، فلما رأته ولت هاربة، وكان الشيخ الأمير يحب المزاح فقال له: إنت عامل حلقة ذكر مع العقارب!!

وسأله عن حالته فلم يعجبه الوضع، فطلب من مسئولى وزارة الرى أن يسمحوا له بالإقامة في استراحة الرى التابعة لهم والموجودة فى ذلك المكان، ولكنهم رفضوا فصعَّد الأمر إلى وزارة الرى وتابع الموضوع بنفسه، ولكنه لم يرجع من عندهم بطائل،

فما كان منه إلا أن قال له: أريد أن أنقلك بلدتى طفنيس بمركز إسنا، لعل الله ينفع أهلها بك وينفعك بهم، فتجد راحتك هناك ويجدون منك الخير والهدى والبركة، فهل توافق على ذلك؟ فأجاب بالإيجاب. فكانت المرحلة الثانية في الدعوة الحكيمة إلى المنهج الإسلامي القويم.

القدوة الحسنة

سافر الشيخ إلى إسنا ليتجه منها إلى طفنيس، وكان السفر شاقاً فى ذلك الوقت ووسائل المواصلات قليلة جداً، ولا علم له بطبيعة البلد الذى يذهب إليه، ولا بسكانه ولا بكيفية الوصول إليه، ولكن عناية الله عزَّ وجلّ به تحوطه وترعاه:

وإذا العِنَايَةُ لاحَظَتْكَ عُيُونُهَا نَمْ فَالمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانٌ

فسأل عن الحافلة المتجهة إلى طفنيس، وركبها وجلس بجوار رجل لا يعرفه، وكان من عادته رضي الله عنه سرعة تألفه مع الناس، حتى قال لى أحد الوعاظ عندما سألته عنه في البداية: هذا الرجل ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ: **(المُؤمِنُ إلْفٌ مَألُوف)**[١٥].

فهو يألف ويؤلف. وبعد تجاذب الحديث سأله الشيخ عما يعرفه عن قرية طفنيس، فإذا به يفاجأ بأنه عمدة طفنيس في ذلك الوقت العمدة أبو دياب - رحمة الله عليه، فأخبره برسالته فبشَّره وقال له: "أنت ضيفى طوال إقامتك في طفنيس" ومنزلى بجوار المسجد، فأخذه معه وأنزله فى الديوان المجاور للمنزل.

ويضرب الشيخ المثل الأعلى للدعاة المصلحين، فى هذه الفترة التي قضاها في هذا البلد – وهى حوالي عشر سنوات– شعَّ فيها نوره على كل من حولها من قرى

[١٥] خرجه الحاكم عن أبي هريرة .

ونجوع، وقد دعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ بحاله قبل قاله، وبسلوكه وفعاله وخصاله قبل بيانه وإرشاده، حتى تعلقوا به وأحبوه حبّاً أكثر من أنفسهم وأولادهم، وكان منهجه في الدعوة بينهم كما يلى:

١. إئتلف بهم – صغيرًا وكبيرًا – بتواضعه الجمّ وتكرار مجالستهم حتى أحبُّوه الحبَّ الذي وصفناه، وهذا ليتسنى له توجيههم إلى ما يريده الله عزَّ وجلَّ ورسوله صلى الله عليه وسلم منهم.

٢. أقبل على الله عزَّ وجلَّ إقبالاً كلياً، فكان يُحي ليله قائماً يتلو كتاب الله بصوت خاشع، وكان يقرأ في كل ليلة ربع القرآن، أي أنه كان يختم القرآن في كل أربع ليالي مرة.

٣. تعرف على ذوي الحاجات منهم وكان يمد لهم يد المساعدة في طي طي الخفاء حتى أنه كانت أمه رحمة الله عليها ترسل إليه ثلاثين جنيهًا كل شهر وكانت لهم قيمة كبيرة في ذلك الزمان على مرتبه وكان ذلك كله ينفقه على ذوي الحاجات.

٤. تعرف أثناء ذلك على مشاكلهم وأبرزها عادة الأخذ بالثأر والتمسك بزواج الأقارب ورفض زواج الأجنبي عن العائلة وغيرها، وحاول أن يقضي على المشاكل باقتلاعها من جذورها بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالتدرج في تلك الأمور فوصل إلى الغاية المنشودة التي يرجوها في هذا الصدد.

٥. خفف غلواء التعصب القبلي واستطاع بصدقه وإخلاصه أن ينزع الشحناء والبغضاء وأن يجعل الجميع أخوة متآلفين متحابين.

٦. كان يتقرب ويقرب كل شخص بما يناسبه ليجذبه إلى الله عز وجل ويسلم على الصبيان ويوزع عليهم الحلوى أو النقود تحببًا لهم في طريق الله عزَّ وجلّ، ويردد في ذلك حديث رسول الله ﷺ القائل: (إن في الجنة دارًا لمُفَرّح الصبيان)[١٦].

٧. كان يكثر مجالسة الفقراء والمساكين ويعودهم إذا مرضوا ويعزيهم إذا مات لهم قريب ويهنئهم ويحضر أفراحهم جبرًا لكسر قلوبهم، ويرى أن تلك أعظم عبادة الدعاة في الإسلام لقول رسول الله ﷺ: (مَا عُبِدَ اللهُ بِشَيءٍ أفضَلَ مِنْ جَبْرِ الخَاطِر)[١٧].

٨. وفي أثناء تلك النهضة الدينية بالبلدة وجد أنَّ المسجد ضاق بالمصلين، فوجههم إلى تجديد بنائه وتوسيعه، فأسرعوا في ذلك ولم يكتفوا ببناء المسجد بل قاموا ببناء دار بجواره من طابقين وسجلوها باسمه كي يظل بينهم ولا يفارقهم، ولكنه ﷺ لزهده وورعه رفض ذلك في أدبٍ جَمّ وقال لهم: اجعلوها لإمام المسجد وأوقفوها على ذلك. أي: تكون لكل إمام يعمل بهذا المسجد.

٩. استطاع بعد ذلك أن يحثهم على جمع الزكاة وقاموا بتوزيعها على المحتاجين بالطريقة الإسلامية التي كانت متبعة في عهد الخلفاء الراشدين.

ومن هنا فقد وضَّح ﷺ في هذه الفترة الكيفية السليمة للدعوة إلى الله عزَّ وجلّ، وهي أن يكون الداعي أسبق الناس إلى العمل بما يقول وأن يكون صدره رحب يسع الجميع وذو شفقة وعطف على الصغير والكبير وصاحب إحساس رقيق وشعور مرهف يتعرف به بمجرد النظر في الوجه إلى ما يتخلل في صدور الجالسين، وكان يرى أن

[١٦] رواه بن عدي في الكامل عن عائشة.

[١٧] رواه السخاوي في المقاصد الحسنة.

الداعي يجب أن يمكث في المكان ولا يسارع بالخروج منه إلا بعد أداء مهمته التي قصدها، وإكمال رسالته التي حددها، وذلك تطبيقًا لقول الله عزَّ وجلّ:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢٤:السجدة)

وهذا هو الذي يجعل للداعي والدعوة أثرًا باقيًا في المكان الذي يذهب إليه، حتى أنه ﷺ تعلق به الناس جميعًا فكانوا لا يفعلون شيئًا صغيرًا أو كبيرًا إلا عن رأيه ومشورته، ولا يعقدون أمرًا أو يبرمونه إلا بعد سماع مشورته، وإذا حضر في مجلس امتثلوا جميعًا لإشارته، فعاشوا في صفاء ووفاء وخير وهناء يذكر القوم بمجتمع المدينة المنورة في أيام سيد الأنبياء ﷺ.

وما أحوجنا في هذا العصر إلى دراسة هذه الطريقة الحكيمة في الدعوة إلى الله بإطالة وإسهاب ليتعلما شبابنا الدعاة، ويؤسسون عليها دعوتهم إلى الله، إذًا لسعدوا وسعدت بهم المجتمعات، وإليها يرمز قول الرجل الحكيم:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا
كى ما يصحَّ به وأنت سقيم
إبدأ بنفسك فانهها عن غيّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفي
بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

الحج إلى بيت الله الحرام

ومن شدة حرصه على أداء فرائض الله، وشوقه الشديد لزيارة بيت الله حرص على أن يؤدي فريضة الحج، وكان لشدة تأثره بذلك أثرًا كبيرًا فيمن حوله، فعزم عدد كبير من أهل طفنيس على أداء الفريضة بصحبته، وكان ذلك عام ١٩٥٨ ميلادية، وكان الحج في هذا العام في وقت شديد الحرارة جدًا، ولم تكن وسائل تخفيف الحرارة وتهيئة الجو المناسب متوفرة في ذلك الحين، فمرض كثير من الحجاج ولقي الكثير منهم حتفهم.

ويحكي الشيخ شيئًا من هذه الوقائع فيقول: (رأيت أبواب الجنة مفتوحة للحجيج ويدخل منهم إليها الجمُّ الغفير، منهم من أعرفهم ومنهم من لا أعرفهم، ففهمت أن من يموتون فى هذا الحج مآلهم إلى الجنة بغير حساب، وكنت أرى نفرًا معي وحولي وأنا قد رأيتهم داخلين إلى الجنة، فأعلم أنهم سيموتون، ويحدث ذلك – ولم أكن أستطيع إخبارهم).

ولشدة تأثره بهذه الأحوال مرض مرضًا شديدًا غاب فيه عن وعيه لمدة خمس عشرة يومًا حتى ظن بعض رفاقه أنه مات، وأرسلوا إلى طفنيس بذلك، فأقام أهل البلدة عزاءً له وجلسوا يتقبلون العزاء عنه، وإن كان هو ﷺ قد رأى في ذلك خيرًا كثيرًا، حيث أخبر أنه كان في تلك الفترة بروحه في عالم البرزخ، وشاهد حقيقة هذا العالم وما يدور فيه، والذي أشار إليه الله عزَّ وجلَّ في قوله:

﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

(١٠٠:المؤمنون)

وفي تلك الفترة تزوج بابنة خاله السيدة/ منيرة يوسف أحمد عطوة واصطحبها معه إلى مقر عمله، ورزقه الله منها في طفنيس إبنته الكبرى هناء وولده حسين، فكانت نعم العون له في أداء رسالته، وقد كان يكلفها بوعظ النساء لإخراجهن من عاداتهن البالية في المآتم وغيرها، وأيضاً في شرح الآداب التى يجب عليهن مراعاتها في معاملة الزوج وتربية الأولاد وصلة الأرحام، وغيرها من الأمور التي من الأفضل للمرأة أن تتلقاها من امرأة مثلها – ستراً لحالها ومنعًا لخجلها – فكانت بذلك من أول الدعاة الذين عنوا بتعليم النساء وتثقيفهن الثقافة الدينية الخاصة بهن.

الصدق والإخلاص

وقد كان يرى أن أهم ما يلزم الداعي لتحقيق رسالته صدقه في دعوته وإخلاصه في نيَّته، فإن هذا يجعل القلوب تستجيب له وتتأثر بهديه، وقد ضرب في هذا أمثلة كثيرة كانت مثار إعجاب العلماء والصالحين.

فيحكي الشيخ الأمير أبو حفني أنهم عندما كانوا يذهبون إلى ندوة في مكان ما ويكون معهم الشيخ، كانوا يعجبون من حاله مع الناس، فقد كان وهو ذاهب إلى الندوة، لا يجد أحداً في طريقه يعرفه أو لا يعرفه، صغيرًا أو كبيرًا، إلا ويسوقه أمامه أو يدعوه إليها، وكان موضع عجبهم أن الناس كانوا يستجيبون له على الفور وبدون تراخي، فإذا حاول بعضهم تقليده في هذا الأمر لم يجد استجابة من أحد وهذا لشدة صدق ومحبة الناس العظيمة له.

ولم تَقِفْ محبَّةُ الناس له عند ذلك فقط بل كانوا كلما حدث لواحد منهم ألم في أي موضع من جسده، يذهب إليه ويطلب منه الرقية، وأيضا لصدقه وإخلاصه كان

تأييد الله عزَّ وجل باستمرار حليفا له، فلا يضع راحته على شيء إلا وشفي الألم بإذن الله، ولا يدعو لتحقيق أمر إلا ورأوا سرعة الإجابة من الله عزَّ وجل.

حتى أن رجلاً تحيَّر من شدة تعلق الناس به وحرصهم على درسه بعد صلاة الجمعة، وكيف أنه يعتذر إليهم المرة تلو المرة عن إكمال درسه لينصرفوا، فلا يتحرك منهم أحد!! ويصرون ويلحون عليه راجين أن يكمل لهم درسه – عكس ما يفعله الناس!! فإنهم ينفضون من حول غيره من العلماء بعد صلاة الجمعة مباشرة – فرأي في منامه الشيخ في المسجد وبيده خيوط، وفي نهاية كل خيط سنارة مثبته في حلق واحد من الجالسين، فعلم أن هذا الأمر من الله عزَّ وجلّ تصديقًا لقوله سبحانه (١٤:الكهف):

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ﴾

ومن الأشياء التي شاهدناها بأنفسنا، وشاهدها الحاضرون مرارًا جميعًا معنا. ما كان يحدث عند إلقائه الدرس في المسجد الكبير بطفنيس في رحلاته السنوية بعد انتقاله إلى بلده، فقد كان بمجرد أن يبدأ الدرس تتحرك اللمبة الكهربائية التي فوقه حركة شديدة دائرية حتى ينتهي الدرس فنجدها قد سكتت من تلقاء نفسها.

وهذا ومثله عندنا دليل على تأييد الله لمثل هذا العبد، وكأنه يقول عزَّ وجلّ: هذا عبد صادق فالتزموا به واتبعوه، وهو من الذين أمرتكم بأن تكونوا دائما معهم في قولي:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

(١١٩:التوبة)

وأما إخلاصه فحدِّث عنه ولا حرج، فقد كان لا يرجو بحركاته أو سكناته إلا وجه الله عزَّ وجل، ولذا كان يفر من الشهرة وينكر ذاته وينسب ما قام به من العمل لغيره، وشعاره دائمًا كان قول الله عزَّ وجلّ:

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾

(٩:الإنسان)

الدعوة إلى الألفة ونبذ العصبية

وكان أحرص ما يحرص عليه وهو جمع شمل المسلمين ونبذ الخلافات والعصبيات من نفوسهم سواء في ذلك المذاهب الفقهية أو الآراء الدينية أو في سلوك الطرق الصوفية.

ففي المذاهب الدينية كان يرى أن يلتزم الداعي بالمذهب السائد في المكان الذي يدعو فيه، حتى لا يثير خلافات لا داعي لها بين الناس خاصة وأن المذاهب الفقهية على كثرتها لا خلاف بينها في الأصول الثابتة، وإنما الخلاف في الفرع والتي هي الأمر فيها على السعة وكلها مروية عن سيدنا رسول الله ﷺ.

ولهذا لما ذهب إلى الصعيد، ووجد أهله يتَّبِعُون المذهب المالكي، وكان هو شافعي المذهب، أحضر كتب الفقه الخاصة بالمالكية ودرسها حتى استوعبها، ومشى على هديها في إفتاء الناس في كل المسائل الشرعية.

وأما في مجال الدعوة الدينية، فكان من أدبه العالي يرى ألا يزايد الدعاة بعضهم على بعض، بمعنى إذا اشتهر رَجُلٌ في مكان والتف الناس حوله، كان يرى أن الواجب ألا ننافسه أو نزاحمه في هذا المكان بل نبحث عن مكان آخر بكر حتى تعم الدعوة أرجاء الكون وأرض الله واسعة (٥٦:العنكبوت):

﴿ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ ﴾

وبالنسبة للطرق الصوفية، كان يدعوها للألفة فيما بينها، وينهى عن العصبيات لأشياخها، وفي سبيل ذلك، كان يحضر كل مجالس الصوفية المحيطة به، ويحفظ أحزابها وأورادها، وكان لا يسمع عن رجل من الصالحين إلا وذهب إليه وزاره، ولشدة إخلاصه وصفاء قلبه كانت له منزلة خاصة في نفوس الصالحين، فهاك مثالٌ – يبيَّن منزلته عند الشيخ أبو الوفا الشرقاوي بنجع حمادي – يحكيه الشيخ الأمير فيقول:

(ومن النوادر المستملحة أنَّا نزلنا بدار العارف بالله سيدي أبو الوفا الشرقاوي، وكان في هذه الآونة مريضًا لا يقابله أحد مهما كان وضعه، فما ولجنا الدار إلا وأحد أبناء الشيخ الكبار يدعونا (فورًا) للدخول عليه في حجرته، فعجبت لهذا وقلت لابن فضيلة الشيخ أبو الوفا: ما هذا الإجراء الغريب؟ فليس من عادة الشيخ أن يدخل عليه أحد في غرفته، بل إذا أراد المقابلة خرج واستدعى من يريده، فقال هذا الابن، وأنا أيضًا في عجب من ذلك فهو أمر خارق للعادة، فتفضلوا بالدخول فدخلنا على فضيلة الشيخ وهو في حالة إعياء شديد، فطلب منا الدعاء وامتد بصره إلى الشيخ مُحَمَّد على سلامة طويلاً، وأمره من بيننا بأن يلقي شيئا من العلم والعظات، فقلت للشيخ مُحَمَّد على سلامة: لا بد من التنفيذ، فانطلق الشيخ مُحَمَّد على سلامة يتكلم بطلاقة شيقة، وبدت على الشيخ علامات الابتهاج والانشراح بحالة أعادت له الحيوية والقوة، وود أن لو طال الشيخ مُحَمَّد على سلامة في كلمته.

مع أنني أتيت مرة لزيارة الشيخ وأحببت أن يسمح لي بالمقابلة، فأتى في هذه اللحظة، الأستاذ أحمد عبده الشرباصي وزير الأشغال إذ ذاك ومعه وكلاء الوزارة ومفتشوها، وطلب الأستاذ الشرباصي المقابلة، وكان الشيخ إذ ذاك قويًا في صحته، فعاد أحد الأبناء أكبرهم، فقال إنه يعتذر عن المقابلة، فألح الأستاذ الشرباصي وألح

الشيخ على الرفض، وبعد أن قُدِّمت إليهم التحية انصرفوا، وبعد انصرافهم بلحظات خرج الشيخ إلينا فاستمتعنا بلقائه وحديثه.

فانظر كيف يعتذر الشيخ عن مقابلة العظماء وهو صحيح، ويُلِحُّ في مقابلتنا وهو مريض!! وقد همست في أذن الشيخ مُحَمَّد على سلامة بعد المقابلة وقلت له: الشيخ قد استدعاني معك وأنت المقصود الأول، حيث أمرك أن تلقي كلمة بين يديه، صحَّ بعدها جسمه، وارتاح لها فؤاده، فقال في تواضعه المعتاد: "أنتم الآباء ونحن الأبناء")[١٨].

وكذا الشيخ أحمد رضوان ﷺ، فقد كان يلح الناس في الدخول عليه في كثير من الأحيان فيعتذر إليهم لانشغاله بالله عز وجل، وما أن يصل الشيخ إلى ساحته في ليل أو نهار، إلا ويخرج من خلوته لاستقباله ويستقبله بحفاوة بالغة ويقول له: أهلا بشيخي وابن شيخي. ويقول لمن حوله: هذا الرَّجُلُ وَلِيُّ الله في الأرض، ويُخرج مَنْ عنده ويخلو به لساعات طوال، فإذا حضرت الصلاة أو الجمعة يشير بأن يتقدم ليصلي بالناس ويعظهم.

والأمر يطول إذا حاولنا أن نحصي كل من قابلهم من رجال الله الصالحين، ولكن حسبنا أنه ما ذكر واحدٌ أمامه رجلاً من الصالحين إلا وذكر لنا أنه قابله ويحكي قبساً من هذه المقابلة، وهو يرى أن سرَّ الخلافات بين الطوائف الصوفية لأنهم يدعون الناس إلى أشياخهم، مع أن أشياخهم كانوا يدعون الخلق إلى الله ورسوله ﷺ – لا لذواتهم، فلو فهم المريدون هذا الحال، ودعوا الناس إلى الله عزَّ وجلَّ ورسوله ﷺ مباشرة – على نهج شيخهم – لما حدث خلاف البتَّة بين الطوائف والاتجاهات الصوفية، بل كانوا جميعاً أخوة متحابين متآلفين:

[١٨] مقدمة كتاب حكمة الحج وأحكامه – ص٩

(يسعى بذمتهم أدناهم على أعلاهم وهم يد على من سواهم)[١٩].

الوفـــاء

لم تمنع الدعوة ومشاغلها الشيخ عن دراسته في كلية أصول الدين رغم بعد المسافة، فحصل على الإجازة العالية في الدعوة والإرشاد سنة ١٩٦٠م، ورُقِّي بعدها إلى وظيفة مفتش، فنقل إلى الأقصر، ولقربها من طفنيس وما جاورها لم تنقطع صلته بأهلها وبأحبابه ومريديه، غير أنه رُقِّي بعد ذلك إلى مفتش أول سنة ١٩٦٧م ولما رأى تمسك أهله بعودته إلى بلدته ههيا، نفَّذ رجاءهم فنقل إلى محافظة الشرقية واستمر بها حتى رُقِّي إلى وظيفة وكيل مديرية، فنقل إلى محافظة بورسعيد سنة ١٩٧٤م. وظل بها حتى رُقِّي إلى درجة مدير عام.

وطوال تلك الفترة الطويلة، لم ينس الشيخ الأماكن التي تردد عليها، والأناس الذين تربوا على يديه وتلقوا منه، وكان يردد دائماً الحديث الشريف الذي يقول:

(حسن العهد من الإيمان)[٢٠]

ويتلفظ في كل موقف بالأثر الذي يقول:

(من صنع معروفًا أبقاه، ومن زرع زرعًا والاه، ومن غرس غرسًا سقاه).

لهذا كان يقضي أجازته السنوية كل عام متنقلاً في رحاب هذه البلاد وما جاورها، موقظاً للنفوس من سباتها، ومنبهاً لها من غفلاتها، ومُحْيياً لها من مَوَاتِها، فيعيد للناس صحتهم الروحانية وهمتهم الإيمانية. وقد قام الأخ الصادق الحاج مختار حافظ

[١٩] رواه البخاري ومسلم.
[٢٠] متفق عليه.

المدير العام بشركة مصر للطيران بتسجيل إحدى هذه الرحلات بقلمه من فِيّ الشيخ مباشرة، وذلك في يناير ١٩٨٦م، وقام الشيخ بتنقيحها وتهذيبها وطبعت في جزءين كبيرين تحت عنوان: "بريد إلى القلوب".

****

الباب الرابع

دوره في علاج مشكلات المجتمع

المشكلة الأولى: العمـــــــل

المشكلة الثانية: الغـش ـ آثاره وعلاجها

المشكلة الثالثة: المشكلة الاقتصادية

معناها ـ أسبابها ـ علاجها

المشكلة الرابعة: انتشار المخدرات

حكم تعاطي المخدرات ـ حكم تحريم المخدرات

وسائل القضاء عليها

المشكلة الخامسة: المشكلة السكانية

أسبابها ـ علاجها

المشكلة السادسة: معاملة غير المسلمين ـ علاجها

المشكلة السابعة: قيمة الوقت ـ علاج هذه المشكلة

المشكلة الثامنة: التهاون بالصلاة ـ علاج هذا المرض

كان ﷺ يرى أن أهم وظيفة للداعي المسلم هي المسارعة إلى إصلاح أي خلل يحدث في المجتمع الإسلامي فضلاً عن إصلاح ذات البين، أي معالجة ما يحدث بين المسلمين وبعضهم من نزاع أو خلاف قد يؤدي إلى شقاق أو قتال وبالتالي يترك في القلوب ضغائن وأحقاد يترفع عنها الفرد المسلم، لأن مجتمع المؤمنين وصفه الله عزَّ وجلَّ بقوله (٤٧:الحجر):

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾

ونلمح الإشارة إلى هذه الوظيفة في قول رسول الله ﷺ: (ألا أدلكم على ما هو أفضل من الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا بلى يا رسول الله قال: إصلاح ذات البين ثم قال: ألا إن إفساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)[٢١].

ولذا نجده ﷺ كان لا يسمع عن مشكلة بين اثنين – سواء كان يعرفهم أولا يعرفهم، قريبين منه أو بعيدين عنه – إلا ويسارع إليهم، ساعيًا للتأليف بينهم، وإزالة الشحناء والبغضاء من نفوسهم، ولا يرتاح إلاَّ إذا تم جمع شملهم.

أما بالنسبة للمجتمع الذي نعيش فيه وقد كثرت مشكلاته واستعصت على الحلِّ، فقد نظر إليها نظرة فاحصةً بِنُورِ الله الذي أتاه، وشخَّص لها الداء، ووصف لها الدواء، وكُلُّ جُلِّ اعتماده في ذلك – كما سنرى – على كتاب الله وسنة رسول الله صلى

[٢١] رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي الدرداء.

الله عليه وسلم، بحسب فهمها القريب، والبعد عن الإغراب، والخلو من الهوى. فعمله كلُّه في هذا المجال ينضوي تحت قول الله عزَّ وجلَّ (٨٨:هود):

﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾

وهو يعتمد أيضًا في معالجة هذه المشكلات على الوضوح والصراحة، والدخول مباشرة إلى المشكلة بلا لف ولا دوران ولا استطراد، وإنما تأسيًا بقول رسول الله ﷺ: (كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء)[٢٢]. ويا حبذا لو أخذ المسئولون والمسلمون بهذه العلاجات والأشفية، فإن فيها سعادة المجتمع وإصلاح أحوال العباد والبلاد، سرَّ قول الله عزَّ وجل (٨٣:الإسراء):

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

وسنتناول هذه المشكلات باختصار شديد ومن أراد أن يقرأها بإسهاب فعليه بالكتب التي عالج هذه المشكلات في غضونها وأهمها:

١- من منابع الدين الحنيف.

٢- بريد إلى القلوب.

٣- الصوم عبادة ومجاهدة.

٤- مصابيح على طريق الإيمان.

٥- خواطر إيمانية حول تنظيم الأسرة والمشكلة السكانية.

٦- توجيهات في بناء الأسرة.

٧- حقوق الإنسان في الإسلام.

[٢٢] رواه ابن عساكر عن ابن عباس.

المشكلة الأولي: العمل

والمقصود بمشكلة العمل هو التسيب والاستهتار وعدم المبالاة التي انتشرت بين جموع العاملين في الدولة وأدت إلى تفاقم الأزمة الاقتصادية للدولة، ويصور رضي الله عنه حقيقة هذه الأزمة فيقول:

(وما أخر مصالح الناس بل ما ضيعها إلا عدم التزام الموظف بوقت عمله، وعلى الموظف تقع تلك التبعة وهذه المسئولية في الدنيا والآخرة، والموظف غافل عن هذا الجانب تمامًا، ويظن أن هذا الوقت هو ملك له، فمرة يأخذ فيه أجازة، ومرة يستأذن ومرة يخرج من العمل بدون إذن، ومرة يتمارض ومرة يتنصل بأعذار كاذبة، وما إلى ذلك ولا يدري المسكين أنه بذلك يعصى الله ورسوله فضلاً عن مخالفة التعليمات التي وضعتها الدولة بتنظيم العمل وحسن سيره.

يا للعجب!! كأن هذا الموظف ليس من أبناء هذا الوطن الذي فرض عليه الدين أن يقوم بعمارته ويدفع عجلة الحياة فيه ما دام يعيش في أرضه ويستظل بسمائه!! فإنه يجب على كل إنسان أن يعلم أن الحياة حقٌّ له في هذا الوطن ما دام يدفع له حقه، وأن الحياة حرامٌ عليه فيه ما دام يتنكر لهذا الوطن ويغمطه حقَّه، فقد قال صلى الله عليه وسلم: (حب الوطن من الإيمان)[٢٣].

وحُبُّ الوطن: هو الانتماء إليه، والعمل على رقيه وازدهاره، وإنعاش حركته والمحافظة عليه – كُلٌّ على قدر عمله، كُلٌّ على قدر طاقته، كُلٌّ على قدر إيمانه وكُلٌّ على قدر مسئوليته – فإننا جميعًا مسؤولون ومحاسبون)[٢٤].

[٢٣] قال السخاوي في المقاصد الحسنة: لم أقف عليه ومعناه صحيح

[٢٤] من كتاب منابع الدين الحنيف ص٧.

وبعد أن يفيض ﷺ في أكثر من موضع وفي أكثر من كتاب من كتبه في الحديث عن جوانب هذه المشكلة يضع التصور الأمثل لحلها وعلاجها، ويكون بما يلي:

١. توضيح العلماء المخلصين للناس نظرة الإسلام للعمل والعمال وما أكثر النصوص الإسلامية التي تبرز ذلك مثل قول الله عزَّ وجلَّ (١٠٠:التوبة):

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾

ومثل قوله سبحانه (١٩٥:آل عمران):

﴿ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾

ومثل قوله عزَّ وجلّ (٧٧:الحج):

﴿ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

وغيرها ....

٢. ربط العامل بالله عز وجل ربطًا يجعله يستحضر عظمته عز وجل ويراقبه وحده في كل شأنه، فيستعين به سبحانه ويعتمد عليه في كل أموره.

٣. إبراز قيمة العمل وأهميته.

٤. تعليم العمال أحكام العمل الإسلامية وآدابه.

٥. قصر الأعمال في الدولة على الأعمال المشروعة أي التي تجيزها الشريعة الإسلامية.

٦. ملاحظة الدقة والإتقان والتجويد في الأعمال وتشجيع من يقوم بذلك ومحاسبة المقصرين.

٧. المحافظة على انضباط العمال في مواعيد العمل الرسمية.

٨. الاستعانة بالمخلصين والناصحين ليعطونا خبراتهم ومحاسبة من يحتكر الخبرة ولا يعطيها لغيره.

٩. تشجيع الابتكار والاختراع للعمل على الرقي والتقدم.

١٠. تبسيط الإجراءات وتيسير الخدمات وحسن معاملة الناس وملاطفتهم.

المشكلة الثانية: الغِشُّ

وهو أمر انتشر في مجتمعنا، حتى وصل إلى أن بعض الناس أصبح يجاهر به، بل ويفخر، به ناسيًا قول رسول الله ﷺ: (من غشنا فليس منا)[٢٥]. وفي مثل هؤلاء يقول الشيخ ﷺ:

(من المعاصي والمخالفات التي تقع من المسلم وهو لا يحس أنها معصية أو مخالفة بل يرى أنها شطارة ومهارة لجهله بدين الإسلام الذي يؤمن به، أن يحتال الرجل على أخيه المسلم ويأخذ منه ماله بدون مقابل أو يغشه في عمله الذي اتفق معه عليه أو يبيعه سلعة بأكثر من ثمنها أو يأخذ منه حاجة من الحاجيات ولا يردها إليه أو يغشه في بضاعته التي يبيعها إياه، ثم هو بعد ذلك يتبجح ويتفضح بأفعاله هذه تفاخرًا وتطاولًا على عباد الله بما فعل، وكأن هذه الأفعال الذميمة من المحاسن ومن المحامد التي يتمدح بها هذا الجهول الظلوم!!!

فإنه يعتبر بذلك من المجاهرين بمعصية الله التى وقع فيها، فبدلًا من أن يتوب إلى الله ويعتذر إلى من أساء إليه يتفكه ويتندر بمساوئه وأفعاله الذميمة، ومثل هذا الإنسان

[٢٥] رواه الطبراني عن ابن عباس

يحتاج إلى تقويمه وعلاجه إلى الشدة والمحاسبة والمؤاخذة حتى لا يستشري فساده إلى غيره من العمال والصناع والتجار وذلك بعد توجيهه وإسداء النصيحة إليه)[٢٦].

آثاره الضارة: والذي دفعه إلى الحديث المسهب في أكثر من موضع من كتبه عن الغش هو الآثار الضارة الكثيرة التي أصابت المجتمع من جرائه، ويركز ﷺ على اثنين منها هما:

١. تقدم غير المسلمين وتأخر المسلمين في الحضارة والرقي حيث أنهم أخذوا من ديننا القيم والمبادئ الفاضلة، وفقدان ثقتهم في المسلمين، لظهور رذيلة الغش وغيرها فيهم وفي ذلك يقول:

(وإنما كان سر تقدم الأمم الغربية وازدهارها أنها أخذت من الإسلام كل القيم والمبادئ السامية التي جاء بها الإسلام لإسعاد الإنسانية في حياتها الدنيا من الأمانة والصدق والعدل والوفاء والإخلاص في العمل والإجادة فيه والإبداع والتجديد والابتكار، فارتقوا في معايشهم وفي أسباب الحياة الدنيا وزخارفها وعمارتها، وسبقوا المسلمين أصحاب هذه القيم وتلكم الفضائل)[٢٧].

٢. حرص كثير من الناس على التعامل مع غير المسلمين لثقتهم فيهم ويُرجع ذلك إلى تخاذل المسلمين في إحياء هذه القيم وفتور همتهم وعدم مبالاتهم فيقول:

(فنرى غير المسلم يرعى تلك المثل ويحرص على الاعتصام بها في حين أن أخاه في الوطن من المسلمين قد لا يعبأ بها ولا يهتز لها، وأخذ الناس يشيعون السوء على

[٢٦] من كتاب الصوم عبادة ومجاهدة بتصرف ص٢١
[٢٧] من كتاب منابع الدين الحنيف ص ١١

المسلمين ويقولون: هل الإسلام دين غير الملتزمين وغير المستقيمين؟ إن معاملة النصارى أحسن من معاملة المسلمين، إن أخلاقهم أفضل من أخلاق المسلمين، إن سلوكهم أكرم من سلوك المسلمين، إن عطفهم على بعض فاق عطف المسلمين، إن تعاونهم مع بعضهم مخلص وأمين... إلى غير ذلك مما هو موجود في أساليب بعض المسلمين من انحراف وتميع، وأساليب المسيحيين من جد ونشاط)[٢٨].

علاجها:

والعلاج الأوحد – في نظره ﷺ – لهذه المشكلة هو الإيمان، ويقول في ذلك:

(الإيمان طَهَّرَ النَّفْسَ مِنْ كُلِّ شَيْنٍ ومِنْ كُلِّ عَيْب، وزينها بالفضائل الإنسانية الكريمة وجملها بالمعاملات الحسن، وإن الغِشَّ من أخلاق النفس الشيطانية، وإن الإنسان يصاب به إذا مات ضميره وخرب قلبه من الخير، فأخذ يتلاعب بمصالح الناس وبأرزاقهم)[٢٩].

بالإضافة إلى هذا يرى أن يصاحب توضيح هذه المفاهيم ذكر كثير من الأمثلة التي تذخر بها كتب التراث والتي وردت عن السلف الصالح ﷺ وأرضاهم، ولا داعي للإطالة هنا بذكرها، فمن أرادها التمسها في مثل هذه الكتب: (حياة الصحابة، حلية الأولياء، طبقات الصحابة).

[٢٨] من منابع الدين الحنيف ص ١١، ١٢

[٢٩] من منابع الدين الحنيف ص٩

المشكلة الثالثة: المشكلة الاقتصادية

وهي أساس كل أو معظم المشكلات التي يعاني منها المجتمع الآن، وقد قال الإمام أبو حنيفة ﷺ: (لا تشاور من ليس في بيته دقيق). وحكم الفقهاء ببطلان حكم القاضي إذا حكم وهو جوعان أو غضبان أو خائف أو وهو حابس لغائطه أو بوله، وذلك لأن المال هو عصب هذه الحياة وهو شقيق الروح وهو مفتاح أبواب النماء والثراء، وقديمًا قال الشاعر العربي:

بِالعِلْمِ وَالمَالِ يَبْنِي النَّاسُ مُلْكَهُمُ لا يُبْنَى مُلْكٌ عَلَى جَهْلٍ وَإِقْلالِ

وهو بصدد علاج هذه المشكلة يتناولها بالتحليل كما يأتي:

معناها:

وعن معنى هذه المشكلة والمقصود به يقول:

(والمشكلة الاقتصادية معناها: قلة الموارد وكثرة الاستهلاك، أو ازدياد الإنفاق وتناقص الإيراد والدخل، وهذا الوضع يشكل خطورة على الأمة، وهى الجوع، والفقر، والجهل، والمرض)[٣٠].

أسبابها:

ويستفيض ﷺ في ذكر أسبابها حتى أنه لم يترك في ذلك كلمة لغيره حتى ولو كان من المتخصصين في هذا الأمر، وسنذكر هذه الأسباب بجملتها رغم كثرتها لشدة الحاجة إلى علاج هذه الأزمة الشديدة في وقتنا الراهن حيث يقول فيها:

[٣٠] من منابع الدين الحنيف ص ٤٥

(وقد جاءت هذه المشكلة من أسباب عديدة نذكرها فيما يلي:

أولا: إصابة الناس بأمراض الشح والبخل مما ترتب عليه منع الزكاة ومنع الصدقة ومنع القرض الحسن.

ثانيا: حب الذات والأثرة، وهو ما يعبر عنه بالأنانية وقد أدى ذلك إلى عدم اهتمام الناس ببعضهم وتهاونهم نحو الصالح العام قال عليه الصلاة والسلام: (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم)[٣١].

ثالثا: حب المال وشدة التعلق به والحرص عليه، وقد ترتب على ذلك عدم المجازفة في إقامة المشاريع والمصانع التي تثري حياة الأمة.

رابعا: البطالة المقنعة وهي كثرة العاملين بدون عمل وقد تسبب عنه استنزاف أموال الدولة بدون عائد.

خامسًا: القعود عن الأعمال الخشنة والهروب منها، كالزراعة والتجارة والحدادة والبناء، ونحوها من الأشغال الجافة، وقد ترتب على ذلك ارتفاع الأجور بصورة خيالية بالنسبة لهذه الفئات.

[٣١] الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً بلفظ: (من أصبح وهمُّه غير الله فليس من الله في شيء، ومن لم يهتم للمسلمين فليس منهم)، والطبراني في الأوسط والصغير عن أبي ذر بلفظ: (من أصبح وهمُّه الدنيا فليس من الله في شيء، ومن لم يهتم بالمسلمين فليس منهم، ومن أعطى الذلَّ من نفسه غبر مكره فليس منا).

سادسا: عدم مبالاة العامل بالنتائج المترتبة على الأداء لأن العامل كل همه الحصول على أجره فقط ولا تعنيه الجودة ولا حسن الأداء.

سابعًا: عدم الانتماء إلى الوطن وفقدان الثقة بالقائمين على أمره وقد أدى ذلك إلى إحداث بلبلة في الأفكار وخاصة بين الشباب.

ثامنًا: عدم المقدرة على مواجهة المشاكل، وعدم وضع الحلول السليمة لها.

تاسعًا: تزايد عدد السكان المستمر وتوقفهم عن الإنسياح في الأرض والضرب فيها مما أدى إلى الازدحام الشديد في المدن والعواصم وحول ضفاف النيل.

عاشرًا: دعم الدولة للسلع مما يجعل الناس تعيش في غير الواقع وتطالب بالمزيد من الدعم مع استغلال الجشعين لهذا الدعم وحرمان المحتاجين منه.

حادي عشر: قيام الدولة بأعمال التجارة وفرض الضرائب المتصاعدة على أعمال الاستيراد والتصدير، مما يؤدي إلى تخوف التجار وتراجعهم عن الاستيراد والتصدير.

ثاني عشر: تدخل الدولة في تسعير الأقوات والملابس والمساكن والأرض الزراعية وغير ذلك مما أدى إلى عدم التراحم بين الناس، واختلاق لون من ألوان الابتزاز والخلوات المحرمة شرعًا وقانونًا.

ثالث عشر: عدم تجنيد الجمهور لتعمير الصحراء مع أنه لا يقل أهمية عن تجنيده للدفاع عن الدين والوطن لأن إحياء الأرض الميتة والسعي في طلب الرزق جهاد في سبيل الله.

رابع عشر: تهرب أصحاب الأموال من الضرائب بشتى الطرق لاعتقادهم أنها غير شرعية في حين أن الدولة لو استبدلتها بجمع الزكاة لتسابق الناس عليها لدفعها لإيمانهم فرضيتها عليهم من قبل الدين.

خامس عشر: التبذير والإسراف في الأكل والشرب واللبس والزواج والمناسبات وكلنا يعلم أن المبذرين إخوان الشياطين في تبديد الخيرات وتضييع النعم.

سادس عشر: عدم إقامة حدود الله على المختلسين والمهربين والمرتشين والمفسدين في الأرض والمعوقين لمصالح الجماهير والمحتكرين لحاجات المجتمع وضرورياته، وقد أدى ذلك إلى التمادي في هذه الجرائم.

سابع عشر: عدم التعاون المخلص والأمين مع المستثمرين الأجانب الذين يبتغون إقامة المشاريع داخل البلد ويتسبب عن ذلك حرمان الناس من فتح فرص جديدة للعمل.

ثامن عشر: سد باب الانفتاح الاقتصادي على الخارج ويؤدي ذلك إلى غلاء السلع وتهريبها.

تاسع عشر: تعامل البنوك بالربا فإن ذلك أثر على الاقتصاد القومي بسبب مضاعفات الربا نتيجة الإعسار والتأخير في السداد.

وهذه هي أهم الأسباب التي خلقت المشاكل الاقتصادية، وأزعجت الأمة بكافة طبقاتها)[٣٢].

علاجها:

ويرى ﷺ أن علاج هذه المشكلة يكون باتباع المنهج الإسلامي في الاقتصاد وذلك يعنى ما يلي:

١. إتباع النظام الاقتصادي الإسلامي وهو الاقتصاد الحر الذي يعتمد على قانون العرض والطلب مع مراعاة الأخلاق والقيم الإسلامية.

٢. القضاء على الاستغلال بكافة صوره وأشكاله لأن الاستغلال ظلم فاحش لا يقره الدين ولا يقبله أحد على نفسه وذلك بالقضاء على الغش والخيانة والسرقة والاختلاس والسلب والنهب والرشوة وانتهاز الفرص.

٣. تحريم الاحتكار وهو تخزين السلع التي يحتاجها الناس ومنعا منهم عند طلبها من أجل رفع أسعارها وبيعا بأثمان باهظة. {وهذا العمل حرمه الإسلام على التجار تحريمًا

[٣٢] من كتاب منابع الدين الحنيف ص ٤٥،٤٦،٤٧

شديدًا، وتوعد فاعله بأفظع البلايا في الدنيا وهو مرض الجزام الذي يتقطع منه لحمه وجلده، وهو من أبشع المصائب التي ينتقم الله بها من المحتكر لأقوات الناس وحاجاتهم، وقد قال ﷺ: (من احتكر على المسلمين طعامًا أربعين يوما ابتلاه الله بمرض الجزام فلا يبرأ منه أبدًا)[٣٣]، وقال ﷺ: (من احتكر طعام المسلمين فقد برأت منه ذمة الله ورسوله)[٣٤] }[٣٥].

٤. حماية الدولة للناس من جشع التجار، فإذا وجدت التجار يتلاعبون بالأسعار، فعليها أن تتدخل وتسعر للمسلمين وتراق ذلك بدقة وفي ذلك يقول:

(إن التاجر كان في الأمس القريب يرضى باليسير من الكسب ليسد حاجته ويستمر في تجارته، ولكنه اليوم أصيب بمرض الجشع، فهو يحاول الثراء السريع ويتعجل هذا الثراء بكل الوسائل، لا يبالي في ذلك بدين ولا قانون إلا من عصم الله من عباده المؤمنين والتجار الصادقين، ولذلك وجب على الدولة أن تحدد الأسعار بدقة وأن تراعي الفقير وصاحب الدخل المحدود لأنهم السواد الأعظم من الشعب، وأن تراقب بعناية فائقة تلاعب التجار بأرزاق الناس حتى نقضي على هذا الفساد الذي أصاب الأمة في أبنائها)[٣٦].

٥. نشر الآداب الإسلامية للتجارة والتعامل في البيع والشراء.

[٣٣] رواه أصحاب السنن عن عمر ﷺ بلفظ: (من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجزام الإفلاس).
[٣٤] رواه أحمد والحاكم من حديث ابن عمر
[٣٥] بريد إلى القلوب ج٣ ص٨٩
[٣٦] بريد إلى القلوب ج ٢ ص ٩٤

٦. تحريم وتجريم المعاملات الربوية بكل أشكالها وأنواعها.

٧. تشجيع الاستثمار وتبسيط الإجراءات وتسهيل إصدار التراخيص وغيرها.

٨. إلغاء ما يعرف بوزارة التموين وتطبيق المبدأ النبوي الكريم: (دعوا الناس في غفلاتهم، يرزق الله بعضهم ببعض)[٣٧].

المشكلة الرابعة: انتشار المخدرات

ويرى الشيخ ﷾ أن السبب في انتشار هذه الظاهرة يرجع إلى الحرب الشرسة التي يشنها علينا أعداء الإسلام فيقول في ذلك:

(لما لم يستطع الاستعمار والأعداء هزيمة الدولة في الحروب الساخنة التي شنها العدو ضد الأمة لجأ إلى نوع من الحرب السامة الفتاكة، فأغرى ضعاف النفوس بهذه المخدرات وتلك السموم التي تفقد الشعب كل مقوماته المادية والمعنوية وتنخر كالسوس في عصب الأمة بل أشد فتقوص أركانها من غير مواجهة في حرب بالصواريخ والطائرات والمدافع والقنابل والآليات لا يدرى أحد مداها ولا لمن تكون الغلبة والنصر، ولكن الحرب بهذه السموم مضمونة العاقبة، إذ أنها تفتك بالأفراد والأموال والإنتاج والأخلاق والدين من غير أن يتأثر العدو بأدنى غرامة تصيبه، ويجب على المجتمع أن يستيقظ ويتنبه لذلك)[٣٨].

حكم تعاطي المخدرات:

[٣٧] رواه مسلم عن جابر ﷺ بلفظ: (لا يبع حاضر لباد، دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض)

[٣٨] من منابع الدين الحنيف ص ٧٧

ويرى ﷺ أن المخدرات بكافة أنواعها وعلى اختلاف جرعاتها قلة أو كثرة حرام قياس على تحريم الخمر الذي ورد في القرآن الكريم في قول الله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (٩٠:المائدة)

فيقول في ذلك:

(وهذه المخدرات هي خمر جافة وإن كانت على هيئة حبوب أو حقن أو أفيون أو حشيش أو ما تولد منها كالهروين والكوكايين وهذه المخدرات يحرم تناولها بأي كيفية، سواء بالشرب أو بالأكل أو بالشم أو بالحقن أو بالتدخين فإن جميعها خمر لقول رسول الله ﷺ: (كل مسكر خمر وكل خمر حرام)[٣٩]. وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد عن أم سلمة ﷺ قالت: (نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومُفَتِّر).

وعلى ذلك فإن المدمن الذي لا يسكر إلا بالكثير من المخدرات إذا تعاطى قدرًا يسيرًا ولم يتأثر به فإنه إثم لتناوله الخمر، ولأن الإنسان العادي إذا تناول أي شيء منه ولو يسيرًا تأثر به وأحدث عنده الإسكار أو التفتير، وإن القاعدة الشرعية تقول: "ما أسكر كثيرة فقليله حرام"[٤٠].

حكمة تحريم المخدرات:

ويرجع حكمة تحريم المخدرات إلى نفس الحكمة من تحريم الخمور وتتبلور في ثلاث نقاط أساسية هي:

[٣٩] رواه البخاري ومسلم

[٤٠] من منابع الدين الحنيف ص٧٢ ، ٧٣

١. أنها رجس (والرجس: هو الشيء الخبيث النجس الذي تستقذره النفس ولا تستسيغه).

٢. أن تعاطيها يضر بالعقل والجسم ضررًا كبيرًا، فهو يغطي على العقل ويفقده السيطرة على تصرفات صاحبه ويجعله يأتي أفعالًا شيطانية فاسدة ومفسدة وأعمالا صبيانية لا عقل فيها ولا منفعة، وأما أضرارها بالجسم فلأنه يفقده خلايا كثيرة لا يعوضها أبدًا كما أنها تؤثر على الجهاز الدوري وخاصة الكبد والبنكرياس، هذا بجانب إصابتها لمن يتعاطاها في ماله وفي دينه وفي خلقه وفي عمله وإنتاجه وفي كرامته وشرفه وفي أهله وأمته.

٣. تحصين المؤمن من الوقوع في حبائل الشيطان ومن المخاطر المهلكة التي تصيب من تعاطاها.

وسائل القضاء عليها:

ويُجْمل ﷺ وسائل القضاء على هذه الظاهرة فيما يلي:

١) توعية المواطنين بكافة الوسائل الإعلامية مبينين أضرار تعاطي المخدرات وآثارها على الفر وعلى أسرته وعلى وطنه وتوضيح أسباب تحريم الإدمان لها وحكمة تحريمها وذلك بالتوجيه السليم.

٢) البحث الجدي عن المتَّجرين فيها والمهربين لها، وتنفيذ حكم الله عزَّ وجلَّ فيهم.

٣) تصفية البيوت التي تقوم على صناعة الخمور تصفية نهائية.

٤) علاج الذين يتعاطون المخدرات في مصحات خاصة بذلك.

٥) وضع مدة زمنية للمدمنين لعلاجهم ومن لم يسارع لتقديم نفسه للعلاج في هذه المدة يقام عليه الحد الشرعي، وهو جلده ثمانون جلده وحبسه مدة علاجه وشفائه.

٦) فتح باب التوبة أمام الذين أصيبوا بهذا الداء وتحبيبهم في الرجوع إلى الله والاعتذار إليه والندم على ما فرط منهم ومعاونتهم على مجاهدة أنفسهم في الإقلاع عن هذا الإثم بالصبر والصلاة كما قال الله عزَّ وجلَّ (١٥٣:البقرة):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

المشكلة الخامسة: المشكلة السكانية

وهي المشكلة التى تعاني منها مصر الآن وأثرت تأثيرًا على إقتصادها وفجرت مشكلات كثيرة مثل البطالة والتضخم وأزمة الإسكان وزحمة المواصلات وغيرها.

أسبابها:

ويعزو الشيخ ﷺ أسباب هذه المشكلة إلى:

١. إعتدال المناخ.

٢. خصوبة السكان.

٣. رفع مستوى المعيشة.

٤. قلة الوفيات نظرًا لازدهار الطب وأساليب العلاج الحديثة.

علاجها:

ويقترح رضي الله عنه لعلاجها عدة بنود تتلخص فيما يلي:

١- تكثيف جهود التوعية في النواحي الاجتماعية والدينية والثقافية والسياسية لخلق وعي كامل لدى المواطنين بمشاكل الحياة والمجتمع مما يجعله يقوم بتنظيم حياته وأسرته عن إيمان واقتناع حسب الواقع الذي عيش فيه.

٢- تطوير الصناعة حتى تشمل جميع نواحي الإنتاج وتوفير المصانع في القرى والمدن حتى تمتص كل الأيدي العاملة ويرتفع مستوى الإنتاج ليغطي جميع الاحتياجات ويصدر الفائض.

٣- تطوير الزراعة بحيث تكون على أحدث الطرق وأوفرها في المحاصيل وبأقل تكلفة واستيعاب كل شبر في الأرض الزراعية والسماح بالتوسع العمراني في هذه الاراضي.

٤- استصلاح الأراضي البور والمستنقعات والصحراء بحيث تزيد الرقعة الزراعية بمعدل زيادة السكان.

٥- الكشف والتنقيب المستمر عن كنوز الأرض التي استودعها الله في جوفها ورفع مستوى الخبرة في هذا المجال حتى نكتفي ذاتيًا، ومكافأة الخبراء أدبيًا وماديًا لتشجيع روح البحث.

٦- رفع القيود على الهجرة للبلاد العربية وغيرها وتذليل الصعاب التي تعوقها.

٧- تحسين علاقات الجوار مع الدول المجاورة إلى أبعد الحدود ورفع القيود على التعامل والتجارة مع هذه الدول بحيث تنشط الحركة مع البلاد المجاورة لأنها تعتبر امتدادا للوطن.

٨- العودة إلى أحكام الإسلام وتعاليمه وتطبيقها لأنها تكفل الأمن والرخاء والتعاون الصادق.

٩- الحد من التوسع في الكماليات التي تمتص الكثير من الأموال الواجب استغلالها في دفع عجلة الإنتاج وتطوير الحياة إلى التقدم والازدهار[٤١].

[٤١] باختصار عن كتاب خواطر إيمانية حول تنظيم الأسرة والمشكلة السكانية.

المشكلة السادسة: معاملة غير المسلمين

وهذه المشكلة قد تفجرت في العصر الحديث نتيجة الإثارة التي يقوم بها بعض المتطرفين ممن حجبهم الحظ والهوى وأعماهم عن الحق بالإضافة إلى بعض الجهات المغرضة التي تعمل على إثارة المشاكل في المجتمعات الإسلامية.

علاجها:

وعلاج هذه الظاهرة في نظر الشيخ ﷾ يكون بتبيين المعاملة الإسلامية لأهل الذمة كما وضحتها الشريعة الإسلامية، ويلخصها ﷺ في الحديث المتفق عليه في قوله: (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)، وتوعده ﷺ لمن يخالف هذا النهج في قوله في الحديث المجمع على صحته: (من آذى ذميًّا أو خاصمه فأنا حجيجه يوم القيامة)[٤٢].

وذلك بالإضافة إلى الأمثلة الكثيرة لنماذج من معاملة السلف الصالح لأهل الذمة، والتي جعلت الكافر يتمنى أن يعيش في ظل الإسلام والمسلمين لأن أجداده لم يتذوقوا طعم الحياة السعيدة إلا في رحاب الإسلام الذي سوَّى في الحقوق بين جميع الناس، لا فرق بين المسلم وغير المسلم، وهذه المعاملة الكريمة هي التي جعلت النصارى واليهود يسارعون إلى الدخول في الإسلام، لِمَا لَمَسُوهُ فيه من سماحة وعدالة منقطعة النظير، فدخل الناس الإسلام بعد الاقتناع به، والاطمئنان إليه، وحبهم لقيمه ومبادئه، واستشرافهم إلى مثله العليا وآدابه السامية، وخصوصًا بعد مشاهدتهم لأعمال رجاله الأفذاذ وسلوكيات أئمته الأعلام الذين ملؤوا الأرض رحمة وعدلاً، بعد أن مُلئت قسوة وظلمًا.

[٤٢] رواه أبو داود بلفظ: (ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة).

المشكلة السابعة: قيمة الوقت

وهذه المشكلة انتشرت في أغلب الأوساط في عصرنا هذا، فنجد على المقاهي رواداً من مختلف الأعمار والمهن يجلسون يقتلون الوقت كما يقولون، فإن سئلوا عن هذا أجابوا: فكيف نقضي أوقات فراغنا؟ وكذا من يضيعون أعمارهم في اللهو واللعب والبطالة والكسل والخمول بحجة أنهم انتهوا من أعمالهم.

علاج هذه المشكلة:

ويرى الشيخ ﷾ أنه ليس لهذه المشكلة علاج إلا في الإيمان اليقيني بالحساب يوم القيامة وبالثواب أو العقاب في الدار الآخرة وإزاحة الستار للمرء عن الأمانات التي سيحاسبه الله عليها وفي ذلك يقول:

(والأمانات كثيرة جدًا والعهود أكثر، ومن بين تلك الأمانات: أمانة العمر الذي وهبه الله للإنسان، أمانة الوقت، أمانة الزمن)[٤٣].

ويوضح أثر هذه العقيدة على سلوك الإنسان فيقول:

(المؤمن أشد حرصًا على حياته لأنه يعلم أن الوقت الذي يفوته لن يرجع إليه ولن يأتي بدلًا عنه فهو ينتهز فرصة هذا الوقت ويؤدي فيه عملًا نافعًا له في الدنيا أو الآخرة. إنَّ المؤمن يبخل بِنَفَسٍ من أنفاسه أن يضيع في غير منفعة له أو لغيره، لأن المؤمن بين أمرين – لا ثالث لهما: إما مفيد أو مستفيد، وليس له وقت ثالث يضيع في غير ذلك)[٤٤].

[٤٣] مصابيح على طريق الإيمان ج٢ ص٧٤

[٤٤] مصابيح على طريق الإيمان ج٢ ص ٧٥

ويضع تحت تصور المسلم المنهج الرباني في قول الله عزَّ وجلَّ (٧، ٨:الشرح):

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾

ويوضحه فيقول:

(والمعنى إذا انتهيت من أعمال الحياة الدنيا، من تدبير شئون أمور الدولة، والنظر في مصالح المسلمين، وإبلاغهم ما أنزلته عليك، وبيانه لهم، وكذلك تفرغت من شئونك الخاصة، وشئون أهلك وبيتك، ﴿فَٱنصَبْ﴾، يعني: إتعب واجتهد، وجاهد في الإقبال على الله عزَّ وجلّ، والتملق لحضرته، والتقرب إليه ومناجاته، راغباً إلى الله، مُحِبًّا لجنابه العليّ، وارغب إلى الله عزَّ وجلَّ بعد فراغ نفسك ويدك من الأعمال التي تقوم بها لإصلاح أمر هذه الدنيا، وازهد فيما يشغلك عنا ويبعدك عنا في أوقات فراغك، لأن العمر قصيرٌ جداً والمطلوب عظيمٌ جدا، ويجب عليك أن تحصل هذا المطلوب قبل انتهاء المدة التي تعيشها في هذه الدنيا، والمطلوب هو رضوان الله الأكبر والفوز بالنعيم المقيم والملك الكبير والسعادة الأبدية)[٤٥].

وبعد أن ينعي– ﷺ – على الذين يقتلون عمرهم على المقاهي والسهرات، وأماكن السمر واللهو، يبيّن لهم قيمة الوقت، ويضع لهم برنامجاً لاستثمار أوقاتهم فيما يفيد فيقول:

- (هل لو جلس صاحب الوقت الفارغ إلى كتاب الله يقرأه ويتدبر معانيه ألا يكون قد كسب وربح ربحاً هائلاً؟!!
- هل لو عكف على أي كتاب يدرسه، يزداد به علماً ألا يكون قد أثرى حياته بالعلوم والمعارف؟!!

[٤٥] مصابيح على طريق الإيمان ص٧٧

- هل لو ذهب لأخٍ له أو قريبٍ له يساعده في عمله – حتى من غير أجر، بل على سبيل المعاونة والمساعدة – ألا يجد ذلك عند الله وعند هذا الإنسان الذي عاونه في عمله؟!!)

إلى غيرها من الأمثلة الكثيرة التي يسوقها، وهو الخبير بالنفوس، لا يرى بأساً في ترويض النفس والترويح عنها من ممارسة بعض المباحات، مثل التنزه بالرياض والبساتين، أو على شواطئ البحار، أو استماع بعض الفكاهات والنكات الأدبية، أو المزاح المعتدل، أو اللعب البرئ، أو سماع الأغاني التي لا تثير الغرائز والشهوات، ويضع ضابطًا لذلك كله فيقول:

(وأن يأخذ من كل ذلك بالقدر الذي يروض معه النفس حتى لا تستأسد عليه وتتجمد معه وتتوقف عن السير، ولا يتخذ من ذل ذريعة لإشباع أهواءه وحظوظه وإلا انقلبت الأمور ضده وانعكست عليه وهو إنما يريد ترويض نفسه وتليين جفائها وتذليل قيادها)[٤٦].

المشكلة الثامنة: التهاون بالصلاة

وقد انتشرت هذه الظاهرة في عصرنا نتيجة إقبال الناس الشديد على المادة، ويتذرع أهلها بحجة واهية، فيقول أحدهم أنا لا أحمل في قلبي ضغينة ولا كرها لأحد، ولا أسعى في ضرر أحد، وأساعد الناس وأفعل البر.

علاج هذا المرض:

[٤٦] مصابيح على طريق الإيمان ج٢ ص٩٠

يرى ﷺ أن هذا المرض القلبي أخطر من أمراض الأجسام لأنه يعرض الإنسان لغضب الله ونقمته، والعلاج الناجح في نظره يلمح إليه فيقول:

(والنجاة من هذه الأمراض المهلكة هو سرعة العرض على طبيب ماهر متخصص في أمراض القلوب من العارفين بالله عز وجل حتى يعطي العلاج النافع، والشافي هو الله عز وجل وملازمة هذا الطبيب حتى يبرأ المريض من هذه الأدواء المهلكة والعلل القاتلة)[٤٧].

ويوضح مهمة الطبيب الروحاني فيبين له أن عليه أن يبين لتارك الصلاة أهمية الصلاة في ربط المصلي بالله عزَّ وجلَّ وجعله قريبا من الله، دائم الصلة به يعرض عليه سبحانه كل أموره وجميع شئونه ليتفضل سبحانه بالنظر فيها وإصلاحها ومعونته وإمداده بما يحتاجه في هذه الحياة الدنيا وما بعدها إلى ما شاء الله وأن عليه أن يبين له نعم الله عزَّ وجلَّ عليه، ويعلمه أن الصلاة شكر متجدد لنعم الله سبحانه التي تتجدد عليه حينا بعد حين، ويمده الله بها آنا بعد آن، فهي شكر لله على تجددها وعلى المزيد منها، ويناقش الحجة التي يتذرع بها تارك الصلاة فيقول:

(وإن الذين يقولون إننا نفعل الخير، ونساعد الناس، ولا نؤذي أحداً، ولا نضمر لأحد سوءاً، ولكننا لا نصلي. هؤلاء قد نسوا أن أكثر الكافرين يعملون مثل عملهم، ولكنهم أشقياء محرومون من رُوحِ الله ومحبَّتِه، ومن توفيق الله ونُصرته، لأن الدين الذي آمنا به له مبادؤه وقواعده التي يقوم عليها وأهمها الصلاة)[٤٨].

أما الحُجَّة التي يرمون بها بعض المصلين فيدحضها بقوله:

[٤٧] مصابيح على طريق الإيمان ج٢ ص٩٠

[٤٨] مصابيح على طريق الإيمان ج٢ ص٨٦

(ولا يتعلل هؤلاء بأن بعض المصلين يرتكبون الذنوب والآثام، فإن الصلاة تكفر السيئات، وستنهاهم يوماً من الأيام عن هذه الآثام، فقد شكى نَفَرٌ إلى رسول الله ﷺ رجلاً يؤدي الصلاة ويحضر الجماعات، ولكنه يفعل كذا وكذا من السيئات، فقال لهم رسول الله ﷺ: (ستنهاه صلاته يوماً ما)[٤٩].

ويجعل الصلاة هى الدليل العملي والمستند الصحيح لدعوى العبد أنه يحب الله ورسوله والإسلام والمسلمين، وقد قال في ذلك الرجل الحكيم:

تعصى الإله وأنت تزعم حبَّه هذا لعمرى في القياس شنيع

لو كان حبُّك صادقاً لأطعته إن المحبَّ لمن يحبُّ مُطيع

****

[٤٩] مصابيح على طريق الإيمان ج٢ ص٨٧

الباب الخامس

هموم العالم الإسلامي وإصلاح أحواله

- حرب العاشر من رمضان
- حروب العراق
- إصلاح أحوال المسلمين

أولاً: عودة الروح للمجتمع الإسلامي

كيف تعود الروح الإسلامية

ثانياً: تطبيق الشريعة الإسلامية

حكم تطبيق الشريعة الإسلامية

خطوات تطبيق الأحكام الشرعية

أثر تطبيق الشريعة الإسلامية

ثالثاً: العمل على نشر الإسلام

مسئولية الدعوة إلى الله

منهج جمعية الدعوة إلى الله

رابعاً: الرد على المستشرقين

كان ﷺ يحمل هموم المسلمين كلها على عاتقه، فيقرأ الصحف اليومية، وليس له شأن إلا بأخبار المسلمين وأحوالهم يتلمسها فيها، فإذا أزعجته مشكلة، تنظر إليه فتجده شارد الذهن يبدو عليه الوجوم والحزن، ويقلُّ نومه ويخفُّ طعامه، ويكثر دعاءه وتضرعه لله عزَّ وجلّ، ولا يهدأ له بالٌ حتى يسمع عن حلِّ هذه المشكلة أو انتهائها. وقد ذكرني هذا الحال الذي رأيته عليه مرارًا بما قاله الإمام الشعراني ﷺ في وصف القطب الغوث – ويسميه القطب المتولي – فيقول في شأنه في كتابه المنن الكبرى:

(فإذا أصاب المسلمين أمر عظيم أهالهم تجده لا يأكل ولا ينام، ولا يجامع النساء، ولا يرتاح له بال، ولا يقر له قرار، حتى تأتيه البشرى من الله عزَّ وجلَّ بزوال تلك الغمة وانفراج هذه الأزمة).

حرب العاشر من رمضان

ومما لمسناه في ذلك ما حدث بعد حرب يونيو ١٩٦٧ م والتي انتكس فيها العرب أمام اليهود، فقد كان شارد الذهن دائماً، ولا ينام من الليل إلا لماماً وعن غلبة، وعندما يتقلب تجده يستغيث بالله ويتوسل إليه بسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ.

وظل على هذا الحال حتى كان بداية عام ١٩٧٣م، فرأى فيما يرى النائم أن سيدنا رسول الله ﷺ في مسجد بسيناء ولا يدخل عليه أحدٌ إلا بإذن، ويقف على باب المسجد سيدنا الحسين وسيدنا إبراهيم الدسوقي، فلما وصل هو إلى باب المسجد، رأى سيدنا رسول الله ﷺ جالساً في وسطه، وحوله جمعٌ كبير من الأولياء والصالحين، وسمعه وهو يقول لهم: أدخلوه عليَّ. فدخل وأخذ يبثُّه شكواه، ويرجوه أَنْ يَضْرَعَ إلى الله في رفع

هذه المحنة عن المسلمين، فلما انتهى من شكايته وسيدنا رسول الله ﷺ يسمعه وهو ساكت، قال له ﷺ: أبشر فقد أطفئوها يا بني.

قال ﷺ: فأخذت أقفز من شدة الفرح – حتى يكاد رأسي يلمس سقف المسجد – وأنا أقول: يا بشراي يا بشراي. فسُرِّي عنه، وبشَّرنا بأن المعركة ستكون هذا العام وأنَّ النصر للمسلمين إن شاء الله.

وعندما حان شهر رمضان، كانت وزارة الأوقاف قد اختارته ضمن بعثتها إلى السودان، للقيام بوعظ المسلمين هناك في هذا الشهر الكريم، فلما وصل إلى هناك التقى بإخوانه من آل العزائم في الخرطوم وأم درمان – وكان قد مضى عليهم زمن طويل منذ ترك الإمام أبو العزائم السودان لم يزرهم فيه أحد – فأحياهم بنورانيته، ورقَّاهم بلسان حكمته، حتى أنهم لما علموا أن البعثة وزعته على الأبَيِّض حزنوا، وسعوا سعيًا حثيثًا حتى استبقوه معهم في الخرطوم.

ويحكي الأخ الصادق الشيخ سيف نائب آل العزائم في السودان فيقول: في يوم العاشر من رمضان وفي صباحه وجدنا الشيخ على غير عادته، مهموماً محزوناً، فسألناه عن سر ذلك؟ وألححنا في السؤال، فأخبرنا أن المعركة ستكون اليوم في الثانية من بعد الظهر، ومنذ ذلك اليوم لم يأكل قليلاً ولا كثيراً رغم صومه، ولم ينم ولو لمحات، حتى انتهت أحداث المعركة. واشتد همُّه أكثر، وظهر عليه الضِّيقُ والتَّوتر عند حدوث الثغرة، ولم يهدأ له بال حتى وضعت الحرب أوزارها، وتحققنا بنصر الله عزَّ وجلّ لعباده المؤمنين.

حروب العراق

ولما نشبت الحرب بين العراق وإيران تعب تعباً شديداً، وكلما تسامع عن سقوط المسلمين قتلى من الطرفين، استرجع ودعا الله عز وجل أن يطفئ نار هذه الحرب المشتعلة، وكان يلقي باللوم على حاكم العراق لأنه بدأ بالحرب، ومن أجل شيء بسيط وهو حفنة

من التراب يهون بجانبها دم مسلم واحد، لأن حرمة المسلم عظيمة جداً في دين الله عزَّ وجلّ، يقول فيها ﷺ: (لزوال الدنيا من أولها إلى آخرها أهون عند الله من إهراق دم مسلم بغير حق)[٥٠]. وألقى باللوم أيضًا بعد ذلك على حكام إيران عندما رفضوا وساطات إخوانهم المسلمين لتحقيق السلام.

وقد أنبأنا في تلك الفترة أن الحرب ستطول لأن الفئتين المتصارعتين باغيتان، وهذه الحرب تأديباً لهما، وعلاجاً لكبريائهما وغرورهما، وإن كان بَشَّرنا أنها ستنتهي وسيصطلحان بعد تحقيق مراد الله عزَّ وجلّ.

ولما دخل حاكم العراق الكويت، ولم يستمع لنصح الناصحين، أخبرنا ﷺ في منزل الأخ أحمد الغرباوي بمدينة العاشر من رمضان بأنه لا بد من المعركة، وسيندحر فيها حاكم العراق، ووصف لنا المعركة من بدايتها إلى نهايتها كرأي العين، حتى أنه أخبرنا بأن (حاكم العراق) سيشعل النار في البترول، ولكن الله سيلطف الأمر ويطفئ هذه النار بسرعة عجيبة تدهش العالم كله، وهذا ما حدث.

وهكذا نجده رضي الله عنه يهتم بأمر المسلمين في كل بقاع الأرض ويكرر لنا دائما حديث رسول الله ﷺ: (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم)[٥١].

إصلاح أحوال المسلمين

وكان مشغولاً بالحال الذي تَرَدَّتْ إليه الأقطار الإسلامية، ولذا وضع تصوراً للبرنامج الذي يجب اتباعه لإصلاح أحوال المسلمين وخلاصهم من كبوتهم، ولحاقهم بركب الحضارة، وقيامهم بالدور الذي اختاره الله عزَّ وجلَّ لهم.

والخطوط العريضة لهذا البرنامج الإصلاحي كما يلي:

---

[٥٠] رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن البراء.

[٥١] رواه البيهقي والطبراني وأبو نعيم عن أنس.

أولا: عودة الروح للمجتمع الإسلامي

فهو يرى أن المسلمين لا تنقصهم الوسائل المطلوبة للنهوض والتقدم وأنهم يملكون الأفراد والأموال والخيرات والثروات اللازمة لقيم أي نهضة، ولكنهم غابت عنهم الروح الإسلامية ويصور هذا الأمر فيقول:

(إن رُوحَ الإسلام لم تغب أبدًا عن المسلمين، ولم تفارق جسد الأمة الإسلامية، نَفَساً من الأنفاس، لأن روح الإسلام والمسلمين هي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهما والحمد لله يملآن سمع الدنيا وبصرها، وإن هيكل المسلمين قد ابتعد عن روحه هذه بالنوم والغفلة والجهالة والنسيان، وأصبح هذا الهيكل كالشبح الذي يظهر من بعيد إنسانًا حيًّا ولكنه غير ذلك في الواقع ونفس الأمر)[٥٢].

وببصيرته النافذة ورؤيته الثاقبة يشخص الأدواء التي أصابت المسلمين بالتأخر والتخلف والتمزق فيجمعها في قوله:

(ونحن إذا رجعنا قليلًا إلى الوراء لوجدنا النقاط التي افترقت حولها وتشعبت مسيرتنا عندها ألا وهي:

١. تفرق المسلمين وعدم اتحادهم.

٢. العمل ببعض أحكام الإسلام وهجر البعض الآخر.

٣. كراهية المسلمين وعداوتهم لبعضهم.

٤. الاستعانة بأعداء الله في المهمات الصعبة.

٥. حب الدنيا وإيثارها على الآخرة.

[٥٢] من منابع الدين الحنيف ص٣٩

٦. الجهل بكثير من قضايا الإسلام.

٧. عدم معرفة المسلمين لعدوهم الحقيقي.

٨. تقاعس المسلمين عن نصرة المظلومين منهم ووقوفهم عند الحدود الجغرافية المصطنعة.

٩. النزاع والجدال حول الأمور الفرعية والجانبية في الدين ورمي كل فريق منهم صاحبه بالضلال والفسق.

١٠. انشغال علماء المسلمين بجمع حطام الدنيا وتركهم لمهمتهم الأصلية التي أمرهم الله بها وهي هداية الناس إلى الصراط المستقيم.

١١. عدم اقتناع المسئولين لتنفيذ شريعة الله وانتظارهم يومًا بعد يوم حتى تفوت الفرصة)[٥٣].

كيف تعود الروح الإسلامية؟

ويرى رضي الله تعالى عنه أن القضاء على هذه المشكلات التي أثارتها هذه النقاط لا يكون إلا بما يلي:

١. يعود المسلمون إلى الكتاب والسنة ليحيوا حياة كريمة طيبة، ويعيشوا عيشة سعيدة هنية.

[٥٣] من كتاب منابع الدين الحنيف ص ٣٩، ٤٠

٢. إذا جاهد العلماء أنفسهم وتركوا الطمع وحب الجاه وأقبلوا على الله ورسوله وقاموا بتذكير المسلمين وتبصيرهم، وقاموا بنصيحة الحكام وترقيق مشاعرهم نحو الله ورسوله واجتهدوا بإقناعهم في ضرورة تنفيذ أحكام الله.

٣. إذا قام الأمراء والحكام بتبني هذه المبادئ الرفيعة ودرسوا نتائجها وآثارها في الأمة من جميع النواحي، وأخذوا أنفسهم بها وتركوا المحن والفتن التي تعوق مسار تطبيق أحكام الله، كانت هذه الخطوة أجل وأكبر من كل ما يقولون ويفعلون.

٤. كل مسلم مطالب بتصحيح هذه النقاط أو تصحيح ما أمكن منها حتى يكون كل مسلم قد أبرأ ذمته أمام الله ورسوله وأمام جماعة المسلمين من المساءلة عن ذلك.

إذا فعل المسلمون ذلك تتم عودة المسلمين إلى الروح الإسلامية وهنالك يفرح المؤمنون بنصر الله ويسعدون بفضل الله ورحمته ولديها يحيا كل مسلم بروحه الحقيقية وهي كتاب الله سنة رسوله ﷺ، وهدي أئمة المسلمين، قال الله تعالى (٩٧:النحل):

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

ثانيا: تطبيق الشريعة الإسلامية

ويرى رضي الله تعالى عنه أن الطلب المُلِحَّ الآن في كل البلاد الإسلامية، والذي يؤدي بدوره إلى إظهار المُثل والأخلاق الإيمانية والكمالات الإسلامية للعالم أجمع، هو إلغاء العمل بالأحكام الوضعية وتطبيق الشريعة الإسلامية فيقول في ذلك:

(ومن هنا كانت عملية تطبيق الشريعة الإسلامية تحتاج إلى وقفة كبيرة ونظرة ثاقبة من جهة الدولة لأن مهمتها الأساسية كدولة مسلمة هي تطبيق شريعة الله التي أنزلها الله لإصلاح الناس في الدنيا وإسعادهم في الآخرة، على أن يشمل هذا التطبيق كل قضية من قضايا الدين والدنيا بدون تفرقة بين ما هو عبادة ومعاملة ولا بين ما هو عقيدة وأخلاق لأن الكل دين الله وشرع الله)[٥٤].

حكمة تطبيق الشريعة:

وعن الحكمة من وراء تطبيق الشريعة الإسلامية يقول ﷺ:

(لقد أنزل الله شريعته وجعلها صالحة لكل زمان ولكل مكان بدون استثناء، وإن الزمان لم يتغير وإن المكان لم يتغير ولكن الناس هم الذين تغيروا ولم يكونوا على هيئتهم الصحيحة، بل انعكست معانيهم وانقلبت حقائقهم وتبدلت أوضاعهم فغير الله عليهم وأدال الله منهم وسلط عليهم أعدائهم فأخافوهم وأساءوهم وأذلوهم، وسلط الله عليهم الدنيا والشهوات فتنافسوها ولعبت بهم الأهواء إلا من عصم الله، ولكن الله سبحانه وتعالى غفورٌ رحيم، وتوابٌ كريم، قد وعدنا أننا إذا رجعنا إليه وأنبنا إليه ونفذنا أحكامه وطبقنا شريعته أسرع إلينا بنصره وتأييده وأعزنا ومكَّن لنا في هذه الدنيا، وذلك معنى قوله تعالى (٤٠:الحج):

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

[٥٤] من منابع الدين الحنيف ص٣٣، ٣٤

وقوله جلَّ شأنه (١١:الرعد):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[٥٥]

إمكانية تطبيق الشريعة الإسلامية:

ونظرًا للبلبلة التي أثارتها فئة من المنافقين وروجوا لها في وسائل الإعلام، وزعموا فيها أن العصر والظروف لا تلائم تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، قال ﷺ ردا عليهم:

(إن تطبيق شريعة الله في هذه الظروف ممكنة جدا بل واجبة وإننا كلما تأخرنا في ذلك أَثِمْنَا بمقدار هذا التأخير، فإن الله قد جعلها مسايرة لكل ظرف من الظروف، ولقد جعل الله فيها متسعا للضرورات والضائقات التي تصيب الفرد أو الجماعة، بحيث لا تتوقف حركة الحياة أمام عقبة من العقبات، ولا تتأخر عجلة التقدم أمام سدٍّ من السدود، وقد جعل الله للضرورة أحكاماً مؤقتة على قدرها إلى أن تزول، وبمجرد زوالها يعود الناس إلى القواعد الأصلية الثابتة.

فعلى ذلك فإننا نعتقد والحمد لله أن هذا الظرف الذي تعيشه الأمة الآن مناسب جداً لإقامة حدود الله وتطبيق شريعته، وخصوصاً قد استيقظ الضمير المسلم في النفوس أكثر من أي ظرف مضى، وإذا كان بعض الضرورات فالمخرج منه موجود في شريعة الله، ولن تؤثر على عملية التطبيق في شيء)[٥٦].

خطوات تطبيق الأحكام الشريعة:

[٥٥] من منابع الدين الحنيف ص٣٥

[٥٦] من منابع الدين الحنيف ص ٣٦

والأحكام الشرعية في نظره ستطبق على المخالفين فقط، أما المسلم الصحيح فهو ينقاد لأنوار القرآن فلا يحتاج لسيف السلطان. وقد شُرعت الحدود الإسلامية لمثل هذا الإنسان الذي لم تطاوعه نفسه للخير إلا بالقهر والشدة، وعند ذلك تكون الدولة قد صنعت معروفاً بهذا الإنسان عندما تُقَوِّم إعوجاجه على هدي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فيرجع إلى صوابه ويعود إلى رشاده، وفي ذلك يقول:

(وإن تطبيق الأحكام سيكون على المخالفين والخارجين وما أقلهم، لأن السواد الأعظم من المسلمين قائم بالتطبيق من نفسه إيمانا بالله وخشية من محاسبته وعقابه، فالتطبيق إذا سيكون على المنحرفين الذين لم تنفع فيهم الموعظة ولم تجد معهم الذكرى)[٥٧].

وعلى هذا فهو يرى أنه يجب على الدولة المسلمة أن تترك فرصة للخارجين للتوبة والرجوع قبل عقابهم، ولا تعاقبهم إلا إذا ثبتت التهمة عليهم وتوافرت الأدلة على ذلك دون ضغط أو إكراه يضطرهم إلى الاعتراف بأشياء لم يفعلوها تحت وطأة التعذيب والضغط وفي ذلك يقول:

(فإن الدولة يجب عليها قبل تنفيذ الأحكام على الخارجين أن تمنحهم فرصة ليتوبوا فيها إلى الله عزَّ وجلَّ ويندموا على ما فعلوا، وبعد ذلك تؤاخذهم، فإن ذلك هو روح الشريعة الإسلامية، لأنها تهدف لإصلاح المجتمع وإسعاده وليس من شأنها أن تعاقب بالظنة أو تؤاخذ بالشبهة، فقد ورد في أصول التشريع: (إدرأوا الحدود بالشبهات، ولأن يخطئ الحاكم في العفو أفضل من أن يخطئ في العقاب))[٥٨].

[٥٧] من منابع الدين الحنيف ص ٣٦

[٥٨] من منابع الدين الحنيف ص٣٧

أثر تطبيق الشريعة الإسلامية

إن تطبيق الشريعة الإسلامية راحة لنفس المؤمن وطمأنينة لقلبه وخلاص له وللناس من ظلم التشريعات الوضعية التي تضيق وتتسع حسب أهواء الناس، وعند تطبيقها تعم المحبة ويسود الرخاء ويسعد الناس سر قول الله تعالى (٦٦:المائدة):

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾

وسر قول الله تعالى (٩٦:الأعراف):

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

وسر قول الله تعالى (٢، ٣:الطلاق):

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

وفي هذا المعنى يقول رضي الله تعالى عنه:

(وبهذا الأسلوب الحكيم يستقيم الناس وينال المجتمع خيري الدنيا والآخرة، ويتراحم الناس ويتواصوا بالحق ويتواصوا بالصبر. ولقد نَعِمَ النَّاسُ في ظل تطبيق شريعة الله زماناً طويلاً، حتى إن أحدهم إذا فقد منه شيء في مكان ما ورجع إليه بعد عام وجده كما هو، لم يزل في مكانه ولم تحركه يد أحد من الناس، لأن أحداً منهم لم يكن صاحبه حتى يمد يده إليه.

آداب لم يسمع الناس بمثلها إلا في دولة الإسلام والمسلمين، ولقد كان كل مسلم يمثل الإسلام من كل جوانبه، وذلك من كمال إتباعه له وصدقه في تطبيق أحكامه، فلو

أحببت أن ترى الإسلام متجسدا لرأيت المسلمين وهم يروحون ويجيئون على ظهر هذه الأرض، فليس الإسلام في حقيقته شيئا غير المسلمين المتمسكين به)[٥٩].

وصيـــة:

وقد وصَّى ﷺ إخوانه ومحبيه جميعاً بتطبيق الشريعة في أنفسهم، وفي بيوتهم، وفي أعمالهم، وفي جميع أحوالهم، ولا يمتنعون عن ذلك بحجة أن الناس لا تطبقها، فكُلُّ إنسانٍ مسئولٌ عن نفسه، والحديث الصحيح المتفق عليه يقول: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل راع في بيته وهو مسئول عن رعيته).

ولذا كمثال على ذلك نجده يحثُّهم على أن يذهبوا للمُلاَّك ويتراضوا معهم على الأجر الذي يرضيهم مقابل السكن، ويدفعونه لهم عن طيب خاطر، بصرف النظر عن الأجر الذي ينص عليه العقد، لأن أمر الشريعة في ذلك مبني على التراضي بين الطرفين، والإكراه كما في القانون الحالي يورث الضغائن والأحقاد، وهي التي تعمل الشريعة على إزالتها من النفوس.

والحمد لله بدأت الدولة تتحرك في الاتجاه الصحيح نحو تطبيق الشريعة، فقانون الأرض الزراعية قد صدر مطابقًا لأحكام الشريعة ووافق عليه مجلس الشعب بعد عرضه على الأزهر الشريف، وجاري الآن إعداد قانون الإسكان على حسب الشريعة الإسلامية، ونسأل الله عز وجل توفيق المسئولين لإخراج جميع الأحكام مطابقة لشريعة الإسلام.

[٥٩] منابع الدين الحنيف ص٣٧، ٣٨

ثالثا: العمل على نشر الإسلام

وفي نظره ﷺ أنَّ عزَّة المسلمين تتحقق بتطبيق شريعة الله أولاً، ثم العمل على نشر دعوته وتبليغ رسالته ثانياً، لقول الله عزَّ وجلَّ (١٠٤:آل عمران):

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

ويرى أن سرَّ خيرية هذه الأمة – وتفضيلها على ما سواها من الأمم – إنما يرجع إلى هذا الأمر، ويتضح ذلك في قول الله عزَّ وجلَّ (١١٠:آل عمران):

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾

دعوة الناس إلى الله

والناس الذين يقوم المسلمون بدعوتهم إلى الله في نظره ثلاثة أصناف:

١. أهل الكتب السماوية السابقة من اليهود والنصارى:

ودعوتهم تكون بالدعوة إلى الأمور الأساسية والأصلية التي اتفقت عليها جميع الكتب السماوية، وهي إفراد الله بالعبادة دون غيره، ثم دعوتهم إلى تنزيه الإله الحقّ عن الإبن والولد، وعن الصاحبة والزوجة، وغير ذلك مما نسبوه إلى الله زورًا وبهتانًا. (لأن الكتابين المنزلين عليهما لا يختلفان مع القرآن الكريم في شئ من أصول الدين من توحيد الله وإفراده بالعبادة والمساواة بين الناس لأن القرآن الكريم من عند الله وهما من عند الله

أيضًا، وهذين الكتابين قد بشرا بالقرآن وبسيدنا مُحَمَّد ﷺ، وهما أقرب الكتب السماوية عهدا بالقرآن الكريم وبسيدنا مُحَمَّد ﷺ)[٦٠].

ويجمع هذا كله قول الله عزَّ وجلَّ (٦٤:آل عمران):

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

٢. المشركون الذي أشركوا مع الله إلهًا غيره:

ودعوة هؤلاء تكون بمخاطبة عقولهم وإقامة البراهين العقلية والحجج المنطقية على إفراد الله عز وجل بالوحدانية، كما يتضح في قوله سبحانه (٢٢:الأنبياء):

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

٣. الكافرون الذين جحدوا وجود الله وأنكروه ولم يعترفوا به:

سواءٌ منهم الدهريون الذين لا يعترفون بالدار الآخرة ويقولون: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (٢٤:الجاثية)، أم الطبيعيون الذين لا يعترفون بالخالق، أم غيرهم من الطوائف الجاحدة لوجود الله. وهؤلاء واجههم القرآن بالحُجَجِ الناصعة والأدلة الساطعة، ويجمعها دليل الإيجاد: وهو الخلق من العدم لجميع الكائنات، ودليل الإمداد: وهو الرعاية والحرص والمعونة لجميع المخلوقات. وفي ذلك يقول الله عزَّ وجلَّ (٥٣:فصلت):

[٦٠] من كتاب كيف يدعو الإسلام الناس إلى الله ص ١٠

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

أسلوب الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ

ويرى ﷺ أن خير أسلوب يتبعه الداعي إلى الله عز وجل **هو:**

١. **أسلوب القرآن الكريم: وهو وإن كان مفصلاً في ثناياه إلا أنه يجمعه قول الله** عزَّ وجلَّ (١٢٥:النحل):

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

٢. **أسلوب النبي ﷺ: وله** صلوات الله وسلامه عليه **أساليب متنوعة في الدعوة إلى الله، فمرَّةً يرسل الرسل برسائل إلى جهات شتى، وأخرى يرسل علماء الصحابة وفقهائهم إلى الجهات النائية في الجزيرة العربية وغيرها، ليبشروا بدين الله بين مَنْ أرسلهم رسول الله إليهم. ويجمع هذا النهج القويم قوله ﷺ: (أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم)**[٦١].

٣. **أسلوب الأئمة والهداة المرشدين في الدعوة إلى الله** عزَّ وجلَّ: **وفيهم يقول ﷺ:**

(قد حصَّلوا العلم النافع واستوصوا خيراً بالعمل الرافع، وتخلَّقُوا بكريم الأخلاق وجميل الصفات، وحملوا نُورَ الإسلام في مشاعرهم ومداركهم، ونزلوا به للبلاد النائية البعيدة من بلاد غير المسلمين، على هيئة تجَّار وصنَّاع وسوَّاح وعمَّال، يجوبون الأقطار

[٦١] رواه الديلمي عن ابن عباس

والشعوب، ويندمجون في وسط المجتمعات التي نزلوا إليها، ويبلغونهم دعوة الله بأسلوب جذَّاب، وبحكمةٍ عالية، وبرقَّة ولطف نادرين، وبعزيمةٍ تَهِدُّ الجبال، وإرادةٍ تهتزُّ لها الأرض والسموات. وبذلك كانوا أمثلة عالية ونماذج راقية للإسلام الذي يدعو الناس إليه، فآمن على أيديهم خَلْقٌ كثير، وأممٌ وشعوبٌ بأسرها، لاقتناع الناس بهم، وحب الناس لهم، مِمَّا جعل قلوبهم تتفتح، وصدورهم تنشرح، للدخول في دين الله أفواجاً)[٦٢].

ويصف شيئاً من الجهاد الذي قاموا به ابتغاء وجه الله فيقول:

(وكان هؤلاء الأئمة ﷺ يستعذبون العذاب، ويتلذذون بالهوان في سبيل هداية الخلق إلى الله، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولذلك كانت أصواتهم تسري في القلوب مسرى النسيم العليل البليل فتحييها من العدم، وتخرجها من ظلام الشرك والجحود إلى نور التوحيد والإسلام، عملاً بتوجيهات رسول الله ﷺ:(ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب)[٦٣]، وقوله ﷺ: (لأن يهدي الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت)[٦٤]، وقوله عزَّ وجلَّ (٣٣:فصلت):

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِين ﴾[٦٥].

وبعد أن يفيض ﷺ في ذكر جماعة من هؤلاء الأئمة العظام كأمثلة، فيذكر الإمام مُحَمَّد عبده، والإمام جمال الدين الأفغاني، والإمام مُحَمَّد ماضي أبو العزائم، والإمام عبد

[٦٢] كيف يدعو الإسلام الناس إلى الله ص٣٧
[٦٣] متفق عليه
[٦٤] رواه بن حبان عن أبي رافع
[٦٥] من كتاب كيف يدعو الإسلام الناس إلى الله ص٣٨

الرشيد إبراهيم، ويوضح نماذج من أساليبهم المدهشة التي يدخلون بها على قلوب الناس، يذكر الفرق بين دعوة المسلمين ودعوة غير المسلمين فيقول:

(إن الدعوة الحقيقية إلى الله هي دعوة غير المسلمين إلى دين الإسلام بالكيفيات والأساليب التي سبقت الإشارة إليها، أما علماؤنا الأجلاء، وأئمتُنا الذين يقومون في المجتمعات الإسلامية، فإنهم مرشدون ومُذكِّرون، ومعلمون للمسلمين ما خفي عليهم من أمور الدين، وما يحتاجون إليه من التشريعات والإفتاء، لأن المسلمين قد استجابوا لدعوة الله ورسوله، وآمنوا وأسلموا، ولكن يحتاجون إلى واعظ ومُذكِّر ومرشد يبين لهم حقائق الإسلام ومعانيه، حتى يكونوا دائماً على ذكرٍ من دينهم، وعلى معرفة بقضايا إسلامهم.

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٥:الذاريات))[٦٦].

مسئولية الدعوة إلى الله

يرى ﷺ أن الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ مسئولية كل مسلم تشبعت رُوحُهُ بالإسلام، وأحسَّ بجمال هذا الدين، فأراد أن ينقله إلى غيره. وفي ذلك يقول:

(وإن أمر الإسلام لا ينهض في وقتنا هذا إلا إذا قام رجال من رجالاته يحملون أعباء الدعوة إلى الله على رؤوسهم وفي قلوبهم وألسنتهم وأخلاقهم وانساحوا بها في الآفاق يدعون الناس بأسلوب مثل هذا الأسلوب الذي مَرَّ بنا، فإن آخر هذه الأمة لن يصلح إلاَّ بما صلح به أولها)[٦٧].

[٦٦] من كتاب كيف يدعو الإسلام الناس إلى الله ص٣٨، ٣٩

[٦٧] من كتاب كيف يدعو الإسلام الناس إلى الله ص٣٧

ولكنه يلقي بالمسئولية الكبرى على الأجهزة الآتية:

١. الأزهر الشريف والهيئات الدينية:

ويرى أن عليهم توجيه الدعاة إلى خارج البلاد الإسلامية وتزويدهم بما يحتاجونه من العلوم والمعارف التي تعينهم على أداء مهمتهم في البلاد التي يتوجهون إليها على أن يكفلون أهليهم وذويهم، وكذا يقومون بإرسال الكتب والخطابات إلى جميع أمم أهل الأرض على المسلمة متمثلة في رؤسائها وملوكها ووزراءها وأمراءها وكبار المسئولين عنها، وكذلك إلى رجال الأديان في هذه الدول.

٢. وسائل الإعلام:

وعليها دور كبير لأنها تقوم بتوصيل المعلومات والمفاهيم بطرق شتى كالراديو والتليفزيون والصحف اليومية والمجلات ويلخص الدور الذي يجب عليها في الآتي:

أولا: عدم إذاعة وعرض وكتابة أي شئ يخالف أحكام الإسلام وآدابه الشريفة.

ثانيا: عدم إذاعة أو نشر أي شئ يكون فيه ترويج ونشر للأديان الباطلة بين المسلمين.

ثالثاً: توجيه مبادئ الدين الحنيف بصورة واضحة ومبسطة باللغات الحية لجميع شعوب العالم، على أن تغطي جميع القيم الإسلامية والعلوم الإيمانية.

٣. الهيئات السياحية الإسلامية:

ويرى أن الواجب على هذه الهيئات أن تقوم بإمداد السياح الذين تتعامل معهم بفكرة واضحة عن الإسلام تشمل آدابه وأخلاقه ووساطته في عقيدته ويسره وسماحته ويجب أن تقدم إليهم كتابا بسيطا يتضمن هذه المعاني.

٤. الحكومات الإسلامية:

وعليها الدور الأعظم بما تملك من إمكانيات وطاقات ويحدد أهم النقاط التي يجب عليها أن تقوم بها لإعادة مجد الإسلام وعظمته وإبلاغ رسالة الله الخاتمة ودين الله الحق إلى جميع العالمين فيم يلي:

أولا: إقامة حدود الله وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية الغراء في جميع مجالات الحياة وجميع المرافق والمصالح والأنظمة والهيئات التي تتألف منها الدولة.

ثانيا: العمل الجاد والمستمر من أجل توحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم ونبذ الخلافات والخصومات والمنازعات من بينهم.

ثالثا: تدعيم الشعوب الإسلامية الفقيرة وسد حاجاتها حتى لا تقع في حبائل الدول الكافرة المتسلطة.

رابعا: إقامة المشروعات الزراعية والصناعية الضخمة بالفائض من أموال الدول الإسلامية الغنية لسد العجز الاقتصادي والصناعي والزراعي في الدول الإسلامية الفقيرة.

خامسًا: إزاحة السدود والحواجز المصطنعة بين الدول الإسلامية حتى يندمج المسلمون في بعضهم ويتواصوا بالخير والبر والرحمة.

سادسا: عقد المؤتمرات واللقاءات الدينية الكبرى التي تتدارس شئون المسلمين الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على ضوء من تعاليم الإسلام الحنيف ويتخذون القرارات اللازمة في هذا الصدد لتنفيذها على الصعيد الإسلامي الدولي.

جمعية الدعوة إلى الله

وإزاء تمزق المسلمين وتفرقهم وتكاسلهم عن الدعوة إلى الله عز وجل قام رضي الله تعالى عنه يعاونه ثلة من الرجال الصادقين بتأسيس (جمعية الدعوة إلى الله) للقيام بهذا الغرض النبيل، وذلك في عام ١٩٨٥ بالقاهرة، وأشهرت برقم (٣٢٥٣) في سجلات وزارة الشئون الاجتماعية بمصر.

وقد وضع رضي الله تعالى عنه لهذه الجمعية منهجا شاملاً لكل ما يجب أن تكون عليه الجمعيات والهيئات الإسلامية، ولأهميته كبرنامج يجب أن تَحْتَذِي حُذْوَهُ الهيئات الإسلامية في عصرنا، رأينا أن يكتب هذا المنهج بجملته.

منهج جمعية الدعوة إلى الله

أولا: بيان أقوال سيدنا رسول الله ﷺ وأعماله وأخلاقه.

ثانيا: بيان هدي أصحابه ﷺ.

ثالثا: توضيح مذاهب أئمة المسلمين.

رابعا: عدم التعصب لمذهب دون الآخر لاعتقادنا أن كل الأئمة ﷺ مجتهدون ولكل منهم سنده من كتاب الله وسنة رسوله وهدي أصحاب رسول الله ﷺ.

خامسا: التركيز على تزكية النفوس وتطهير القلوب من الأمراض المعنوية التي تؤثر على المؤمن وتحجبه عن الترقي إلى الدرجات الرفيعة.

سادسا: التركيز على المعاني الروحية التي ترقق المشاعر وترهف الإحساس.

سابعا: اللقاءات المستمرة بين الدعاة وبين الإخوان ﷾ من جهة، وبينهم وبين عامة المسلمين من جهة أخرى حتى تنتشر هذه المعاني بين المسلمين.

ثامنا: أخذ الدعاة أنفسهم بعزائم الأمور لأنهم قدوة للإخوان وللمسلمين.

تاسعا: تجمل الدعاة بمكارم الأخلاق العالية من الرحمة والحلم والشجاعة والصبر والجود والسخاء، ولو مع غير المسلمين لأنهم أبدال رسل الله وأنبياءه في دعوة الخلق إلى الله، فالدعوة أعمال وأقوال وأخلاق وأحوال واعتقاد.

عاشرا: الإقتداء بأئمة الهدى والرشاد، وخاصة بالإمام أبي العزائم ﷾ حيث أنه الوارث الكامل لسيدنا رسول الله ﷺ، في هذا العصر.

حادي عشر: أخذ الحكمة والمعرفة والعلم من جميع الكتب الإسلامية الجديد منها والقديم وبخاصة كتب الإمام أبي العزائم رضي الله عنه لاشتمالها على شتى العلوم الإسلامية وخاصة الروحانية ولمسايرتها لروح العصر.

ثاني عشر: اعتقاد أن كل مسلم على جانب كبير من الخير وإن كان عاصيا لأنه يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ويحرم رميه بالكفر أو الضلال أو الفسق.

ثالث عشر: اليقين بأنك أقل واحد في المسلمين وإن أصغر مسلم خير منك عند الله ورسوله وأحق منك بكل فضيلة وبر ومعروف.

رابع عشر: إتهام النفس دائما بالقصور والتقصير وإن عظمها الناس وآثروها على أنفسهم بخيري الدنيا والآخرة.

خامس عشر: الإقرار بالضعف والعجز عن القيام الكامل بما يحبه الله ويرضاه من أمور الدين والدنيا ولو رفع الله قدرك إلى ما فوق الثريا، فإن ذلك فضل الله عليك، ونظرات سيدنا رسول الله ﷺ إليك.

سادس عشر: تحسس نقاط النقص في النفس والمجاهدة الدائمة لمعالجتها ولو كان ذلك على يد أصغر مسلم من المسلمين.

سابع عشر: النظر إلى أهل المجاهدة والمنافسة من كُمَّل المؤمنين حتى نحذو حذوهم وننهج على طريقهم.

ثامن عشر: الأخذ بأيدي أهل الكسل والغفلة واللهو من المسلمين حتى تحثهم على طاعة الله ورسوله.

تاسع عشر: محاولة انتشال الغرقى في المعاصي والذنوب إلى شاطئ التوبة والنجاة.

عشرون: دعوة غير المسلمين إلى الإسلام على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ودياناتهم.

واحد وعشرون: الابتعاد عن مس مشاعر الذين تدعوهم إلى الإسلام أو تنقذهم من المعاصي أو تنتشلهم إلى طاعة الله حتى يلينوا جميعا إليك، ولا يجدون في أنفسهم غضاضة عليك.

ثاني وعشرون: حب الخير لجميع عباد الله كل على قدر حالته ودينه.

ثالث وعشرون: مسالمة الناس وسد أبواب النزاع والجدال بالمرة.

رابع وعشرون: احترام الآراء التي تخالف رأيك في الدين.

خامس وعشرون: عدم إثارة الأمور التي اختلف فيها علماء المسلمين.

سادس وعشرون: الابتعاد عن ذكر مسالب ومساوئ أي مسلم كائن من كان فإن ذلك يحبط ثواب الأعمال الصالحة ويحملك من أوزاره.

سابع وعشرون: الحرص على تحصيل العلم النافع ومنافسة العلماء والمتعلمين في ذلك.

ثامن وعشرون: موالاة العارفين بالله والتقرب إليهم بالنفس والنفيس حتى تنتظم في عقدهم.

تاسع وعشرون: حب آل بيت رسول الله ﷺ، وصحابته والترضي عنهم جميعًا عند ذكرهم.

ثلاثون: السكوت عن ذكر الخلافات التي وقعت بينهم تأليفًا لقلوب المسلمين وخشية من الوقوع في تجريح أصحاب رسول الله ﷺ.

واحد وثلاثون: الإحسان إلى المسئ والعفو عنه، ومساعدة المحسن والدعاء له.

ثاني وثلاثون: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللين والرحمة والحلم والتأليف بين قلوب المسلمين.

ثالث وثلاثون: الإصلاح بين المتخاصمين والتواصي بالعدل والصبر والمرحمة.

رابع وثلاثون: مساعدة المحتاجين والعطف على البائسين.

خامس وثلاثون: عيادة المرضى ومواساتهم.

سادس وثلاثون: إغاثة المنكوبين وتقديم ما يلزمهم على قدر الاستطاعة.

سابع وثلاثون: إسداء النصيحة وتقديم الشورى للطالبين.

ثامن وثلاثون: ترشيد الإنفاق والحد من الاستهلاك والمحافظة على نعم الله والتوسط في كل أمر من الأمور.

تاسع وثلاثون: الحبُّ في الله والبغض في الله والقيام بجميع الأعمال من أجل الله ورسوله حتى تكون عبادة لله عزَّ وجلّ، وقربة إلى الله ورسوله.

أربعون: المسارعة إلى البر والقربات والأعمال الصالحة مهما كانت التضحيات وذلك بعد أداء الفرائض على الوجه الصحيح.

واحد وأربعون: مجاهدة النفس في ترك المعاصي والذنوب بالمرة.

إثنين وأربعون: التوبة والندم بمجرد الوقوع في الذنوب حتى لا يأثم بتأخير التوبة منه.

الثالث وأربعون: التفكر في آلاء الله ومصنوعاته وآياته في الموت وفي الدار الآخرة.

أربع وأربعون: المجاهدة المستمرة من أجل إعلاء كلمة الله والاستمساك بدين الله ولو مع الزوجة والأولاد والأقارب.

خامس وأربعون: الاعتبار والاتعاظ بأي مشهد قرآني أو كوني.

سادس وأربعون: الذكر المتواصل الذي يُخرج المؤمن من سجن الغفلة.

سابع وأربعون: الصلاة على النَّبِيّ ﷺ.

ثامن وأربعون: الغيرة لله ولرسوله عند انتهاك حرمات الله أو التفريط في أوامر الله ولو بعدم الرضى واستنكار القلب لذلك.

تاسع وأربعون: قراءة القرآن وتدبر معانيه.

خمسون: حفظ حديث رسول الله ﷺ، والتعلق به.

احدى وخمسون: تأليف الكتب الدينية وإعدادها وطبعها ونشرها بين المسلمين.

الثاني والخمسون: إنشاء المساجد وعمارتها ورعاية القائمين عليها.

هذا ولا تزال هذه الجمعية بعد انتقاله رضي الله تعالى عنه، تقوم بالدور الذي رسمه لها على وفق المنهج الذي بينه لها ويقوم بهذا الأمر نخبة من الرجال الأكفاء الذين تربوا على يديه ﷺ، رباهم على الصدق والإخلاص والعمل ابتغاء وجه الله عزَّ وجلّ.

وقد قاموا بتوسيع مجال العمل بهذه الجمعية وتعميمها وسجلوها في إطار عام جديد وهو (الجمعية العامة للدعوة إلى الله) والمسجلة تحت رقم ٢٢٤ في ١٩٩٢/٣/٢٥ بوزارة الشئون الاجتماعية ومقرها الرئيسي ٧٤ شارع ١٠٥ بالمعادي، القاهرة. ولها فروع في معظم المحافظات.

رابعا: الرد على المستشرقين

وينوه رضي الله تعالى عنه على الأهمية الكبرى لما تقوم به أجهزة الإعلام الغربية وخلفها جيش كبير من المستشرقين حيث يعملون جميعا على تشويه صورة الإسلام بكافة السبل والإساءة إلى نبي الإسلام وإلى القرآن الكريم وإلى مبادئ الإسلام الخالدة، مما يجعل الذين يقرأون لهؤلاء القوم وغالبيتهم من الأجانب يحجمون عن الإسلام، فيطالب الهيئات الإسلامية العلمية المختلفة وخاصة الأزهر الشريف والجامعات الإسلامية بدراسة ما كتبه هؤلاء القوم والرد عليهم بالحجج العقلية والبراهين المنطقية لأن الحجة لا تقرع إلا بالحجة، ويعالج في كتاباته كثيرًا من هذه القضايا نشير إلى واحدة منها كمثال على ذلك وهي:

قضية انتشار الإسلام بالسيف

حجج المستشرقين

يسوق حُجَجَهُم وأدلتهم فيقول:

(كثير من المستشرقين إن لم يكن كلهم يتهمون الإسلام بأنه انتشر بالقوة والقهر، ويدللون على ذلك بآيات من القرآن الكريم مثل قول الله تعالى (٢٩:التوبة):

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾

وقول الله تعالى (١٢٣:التوبة):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾

ويستدلون كذلك على فريتهم بأوامر الرسول وخلفائه الراشدين لقادة الجيوش الإسلامية عند لقاء الأعداء بدعوتهم إلى الإسلام أولا، فإن أبوا فيطلبون منهم دفع الجزية ثمنا لحماية المسلمين لهم وتركهم وشأنهم، فإن أبوا قاتلوهم، وليس لهذا معنى إلا حمل الناس على الإسلام بالقوة وذلك مخالف لمبدأ حرية الاعتقاد) [من كتاب قطرات من بحار المعرفة ص٦٦، ٦٧].

الرد عليهم:

وفي رده على هذه الفرية يسوق ﷺ **الأدلة ويرد عليها واحدا واحدا، ففي الدليل الأول يقول:**

(إن آيات القرآن التي شرعت القتال مرتبطة ببعضها وإنها قد كملت بعضها، وتأسس بعضها على بعض، فالآية الشريفة التي ذكروها وهي قول الله تعالى:

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾

يكملها قول الله تعالى:

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [١٩٠- البقرة].

فهم أخذوا ما يوافقهم من آيات القتال وتركوا ما يُظْهِر نواياهم وخبثهم، وإن كان التطبيق العملي لأحكام القتال في القرآن من رسول الله ﷺ هو الحجة الواضحة في الرد عليهم.

فإنه ﷺ لما هاجر للمدينة المنورة ووجد بها اليهود ترك لهم حريتهم الدينية والمالية والاجتماعية، وكتب بينهم وبينه عهداً احترم فيه مشاعرهم ومعابدهم ومرافقهم وجميع حقوقهم، واشترط عليهم فيه ألا يؤذوا المسلمين، ولا يألبوا عليهم أعداءهم، ولا ينقضوا عهدهم، وأن يشتركوا مع المسلمين في ردِّ الاعتداء على المدينة إذا هاجمها عدو.

ولكن اليهود سرعان ما ارتدوا على أعقابهم، ونقضوا عهودهم، وقلَّبوا للمسلمين ظهر المجن، وعادوهم وآذوهم أشد الإيذاء، فاضطر الرسول والمسلمون لمحاربتهم وقتالهم، ولولا نقضهم للعهد وانضمامهم لجيوش الأعداء ما حاربهم)[٦٨].

وفي الدليل الثاني الذي استشهد به المستشرقون وهو قوله تعالى (١٢٣:التوبة):

[٦٨] قطرات من بحار المعرفة من ص ٧٠،٧١ بتصرف

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

يرد عليهم بأن أكبر دليل على بطلان حجتهم هو آخر هذه الآية: (لأن معنى المتقين في هذه الآية: الذين يتقون الله في عباد الله، فلا يعتدون عليهم، ولا يظلمونهم، ولا يروعونهم. اللهم إذا بدأوا بالعدوان والشر فإنه يجب على المسلمين أن يلقنوهم درسا لن ينسوه أبدا حتى يحترموا جوار المسلمين وحرمتهم)[٦٩].

هذا مع أن الأذن المسلمين في القتال حدده الله بأنه لدفع الظلم عنهم ورد الاعتداء عليهم سواء في الدين أو المال أو العرض أو النفس وذلك في قول الله عزَّ وجلّ (٣٩:الحج):

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾

وبالإضافة إلى ذلك فإن الجميع يعلم كثرة وصايا الإسلام في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالجار فكيف يأمر بقتاله وحربه من غير سبب.

أما رده على الدليل الثالث وهو زعمهم أن خلفاء الإسلام وقواده كانوا يرغمون الناس على اعتناقه بالإرهاب والقوة فيرد عليهم:

(أن المسلمين لم يتجهوا لحرب هؤلاء الأعداء من تلقاء أنفسهم، وإنما كان ذلك لأسباب موجبة لهذا القتال، وهي: إما لأنهم اعتدوا على المسلمين، وقد توجَّه المسلمون إليهم ليؤدبوهم ويردوا اعتبارهم، وإما لأنهم يَصُدُّون أقواماً عن دين الله الحقّ، منتهكين حرية الإنسان وكرامته، وإما لأنهم يمنعون المسلمين من دعوة الناس لدين الله وعرض

[٦٩] قطرات من بحار المعرفة ص ٧٢

الإسلام عليهم، وإما لغير ذلك من الأمور التي تفرض على المسلمين لا مناص لهم عن خوض هذه الحرب)[٧٠].

هذا بالإضافة إلى أن الإسلام لم يأذن لأهله بمفاجأة عدوهم بالحرب، ولذلك يدعونهم كما سبق، أما الكافرون الذين لم يكن هناك أي داع لقتالهم، فإن الإسلام يمنع أهله من مبادأتهم بالحرب كل ما هنالك أن يدعونهم فقط إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتركوا لهم حرية التفكير والاختيار (٢٩:سورة الكهف):

﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾

وقال الله تعالى (٣٥٦:سورة البقرة):

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾

ولذلك دخل من دخل في الإسلام حبًا لعدالته وسماحته ورحمته ومساواته بين الجميع ولو أن الإسلام قام بالسيف كما يزعم هؤلاء المستشرقون ما بقي كافر على وجه الأرض لأن المسلمين وصلوا في وقت ما لدرجة من العز والسلطان والقوة جعلتهم يتحكمون في معظم الشعوب من هذه الدنيا، وكان يعيش في ظله في ذلك الوقت اليهود والمسيحيون والذين لا دين لهم وكان الجميع يتمتعون بالأمن والحرية والسعادة الوارفة التي كان يتغنى بها الزمان والأجيال.

(وسيظل الناس في شقاء هذه الحروب حتى تعود الدولة للمسلمين فيخلِّصُوا الناس من شرورها، ويرحموهم من ويلاتها، إذ أن المسلمون يعاملون الله في خلقه، ويرضونه ﷻ في عباده، ويخشون الله ربهم، ويخافون سوء الحساب، وهذا بخلاف دول

[٧٠] قطرات من بحار المعرفة ص ٧٤

الكفر والصليب اليوم الذين تجردوا من كل هذه المعاني والمبادئ التي يعيش من أجلها المسلمون قال الله تعالى (٢١، ٢٢:هود):

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ . وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾[٧١]

خامساً: العمل على جمع شمل الجماعات الإسلامية المتصارعة

ولأهمية هذا الموضوع وحساسيته، وخطورته على مستقبل العمل الإسلامي، فسنفرد له باباً خاصاً به فيما يلي.

[٧١] من كتاب قطرات من بحار المعرفة ص ٧٥، ٧٦

الباب السادس

فقه الخلاف في الصحوة الإسلامية المعاصرة

- **ظاهرة الخلاف.**
- **أسباب الخلاف.**

أولاً: شروط الاجتهاد.

موقف الناس من الاجتهاد.

ضرورته وآدابه.

ثانياً: التوحيد في القرآن والسنة.

التوحيد.

شبهات حول عقيدة التوحيد.

ثالثاً: حول السنة والبدعة.

رابعاً: تغيير المنكر.

ظهرت في الآونة الأخيرة صحوة إسلامية مباركة بين الشباب المسلم في كل أنحاء العالم وهي ظاهرة طيّبة تبشر بخير، وإن كان شابها كثيرٌ من الأمور التي جعلتها تخرج عن غايتها السامية وأهدافها النبيلة، وذلك أن كثيراً من روادها شغلوا الناس بأمور فرعية أو هامشية وجعلوها هي الدين وليتَهُم وقفوا عند ذلك.

وإنما الأدهى والأمر أنهم يلزمون الناس بأفكارهم وآرائهم، ومن يخالفهم يتهمونه تارة بالكُفر، وتارة بالمروق، وغيرها من التُّهم التي لا يليق بمسلم أن يلصقها بأي مسلم حتى ولو كان مرتكبًا للكبائر!! فلا يخرج الإنسان من الدين إلا بما دخل به، وهو الشهادة بالوحدانية لله، وبالرسالة لسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا ما جعل كثيراً من المفكرين الإسلاميين المعاصرين يتعرض لهذه الظاهرة بالشرح والتحليل، فهذا مثلاً الدكتور عبد الحليم عويس يقول:

(ومن أنكر النكر في الفكر الإسلامي الحديث أن إبادة شعب مسلم بأكمله، وأن تكبيل شعب مسلم وحرمانه من حقوقه في ممارسة دينه وحريته، بل والتنكيل به شرَّ تنكيل، قد لا تشغل من فكر بعض الناس، وحتى بعض العاملين للإسلام قدر ما يبذلون من جهد وطاقة في المحافظة على أشياء ربما يكون ترتيبها في قائمة الإيمان بعد الحياء – الذي هو شعبة من الإيمان – بعشرين درجة!!

- إن شعوباً إسلامية تُجلد كلها، وتجري عملية إبادتها وتصفيتها على مشهد ومرأى من الناس جميعاً!!!
- وإن الحرية مختنقة بالنسبة لمعظم المسلمين، والشورى مفقودة تقريباً.
- وإن الأقليات الإسلامية تخضع لبرنامج إبادة دولية!!

إن معظم هذه القضايا لا تحتل من اهتمام بعض المسلمين المكانة الجديرة بها، بينما تصدت قضايا أخرى ثانوية أو على الأقل في درجة متأخرة عن هذه القضايا بحيث اختلطت الأمور اختلاطاً شديداً، وأصبح المسلمون لا يعرفون الفرق بين الواجب العيني

والكفائي، ولا بين المكروه والمباح، ولا الفرق بين القضايا المصيرية، والقضايا الثانوية، تماما مثلما قيل عن أهل بيزنطة الذين سقطت مدينتهم وهم مشغولون بالجدال حول الأصل في الدجاجة، الكتكوت أم البيضة!!! ومثلما سقطت أثينا من قبل وهي مشغولة بالقضايا التي طرحها السوفسطائيون، وشلوا بها (العقل الإغريقي) عن الحركة مع الحقائق في الاتجاه الصحيح)[٧٢].

وبعد أن يسوق الكاتب نماذج للقضايا التي يجب أن تتصدر العمل الإسلامي: كقضية حقوق الإنسان المسلم، والشورى، والفقر والجوع لدى الشعوب الإسلامية، وضرورة التكافل الاجتماعي بين المسلمين، والاقتصاد الإسلامى، وتخلف المسلمين في العلوم الطبيعية والرياضية، والأقليات الإسلامية، والغزو الفكري، وغيرها ... ونماذج أخرى للقضايا الهامشية: كرفع الصوت أو عدم رفعه في كلمة آمين في الصلاة، وإسدال الثوب أو رفعه عن الأرض، وتكفير طوائف كثيرة من الأمة، وتعليم المرأة جائز أم لا، والأغاني حلالٌ أم حرام؟ واللحية ومكانتها في السلوك الإسلامي، ينتهي إلى بيان رأيه في هذه المشكلة برمتها فيقول:

(وإنه لمن الضروري في هذا المقام أن أقول: إنَّ مِنْ حَقِّ كُلِّ مُسْلِمٍ – بلغ درجة حق الاجتهاد – أن يطبق على نفسه ما يؤديه إليه اجتهاده، وإن من الأهمية بمكان أن يعي كل مسلم مجتهد أن اجتهاده لا يجعله فيما وصل إليه أفضل من غيره، فقد يكون غيره أفضل منه في جوانب أخرى، والمسلم أي مسلم يقاس بمحصلته الأخيرة، وبالفائدة النهائية التي تعود من جهوده واجتهاداته على المجتمع الإسلامي، داخليًا وخارجيًا ثم بمدى تطابق حركته في مجملها مع البناء الإسلامي الكامل المتوازن المنسجم ذلك هو المقياس الثابت، أما غير ذلك، فهو من الانحراف والهوى الممثلين في الجزئية،

[٧٢] من كتاب (الإسلام كما ينبغي أن نؤمن به) د. عبد الحليم عويس ص٢٧، ٢٨

والإسقاطات المذهبية، وفرض النزعة الشخصية، وما يتبع ذلك من عوامل الانحراف وإتباع الشهوات والميل العظيم)[٧٣].

وهذا الشيخ مُحَمَّد الغزالى يحذر من خطورة هذا الأمر فيقول:

(الصحوة الإسلامية المعاصرة مهددة من أعداء كثيرين، والغريب أن أخطر خصومها نوع من الفكر الديني يلبس ثوب السلفية، وهو أبعد الناس عن السلف!! إنها إدعاء السلفية وليست السلفية الصحيحة. إنَّ حُبَّ السلف دِينٌ، وكُرْهَهُم نفاق! إنهم دعائم حضارتنا، ومعالم رسالتنا، من أجل ذلك يجب أن نحسن التأسي بهم، وأن نرفع عنهم كل ما يؤذي سُمْعَتَهُم)[٧٤].

ويناقش الشيخ الغزالي قضية من هذه القضايا التي يثيرونها، فيقولون: نحن نرفض التقليد المذهبي، ونُعَلِّمُ الناس الأخذ المباشر من الكتاب والسنة!! ويرد عليهم قائلا:

(لا يأبى مُسْلِمٌ الارتباط بكتاب ربّه وسُنَّة نبيّه، وتصوركم أن الفقه المذهبي يستقي من نبع آخر غير الكتاب والسنة غير صحيح. والفقهاء الأربعة الكبار، نماذج رفيعة لاحترام الكتاب والسنة، ولا يُلام مُسْلِمٌ تَبِعَ واحداً منهم، كما لا تلامون أنتم في إتباع الشوكاني أو الألباني أو الصنعاني)[٧٥].

ويوضح سرَّ الخلاف ومنبعه وكيف ينشأ فيقول:

(إنكم ترون رأيكم . الذي تابعتم فيه أحد الناس . هو الحقَّ وحده، ثم تشنون هجوماً على مَنْ خالفه، بوصفه خارجاً على السُّنَّة كأن السُّنَّة وقفٌ عليكم أنتم لا غير!!!

---

[٧٣] الإسلام كما ينبغي أن نؤمن به – ص٢٣

[٧٤] سِرّ تأخر العرب والمسلمين للشيخ مُحَمَّد الغزالي ص ٥٢

[٧٥] نفس المرجع ص ٥٣

أُحِبُّ أن تعلموا أن الاجتهاد الفقهي خطأه وصوابه مأجور، وأن الأمر لا يتحمل عداوة وفرقة! ولو سلمنا أن ما لديكم هو الصواب، فمخالفكم ما حُرم ثواب الله! فلماذا تريدون إحراجه، وإخراجه من دائرة السلف، لتبقى حكرًا عليكم؟

الرأي عندي أن المأساة (خُلقية)، لا علمية، وأولى بكم أن تتواضعوا لله، وتصلحوا نيَّتكم معه، وتتطامنوا لإخوانكم المؤمنين، وتحسنوا الظن بهم.

إذا اقتنعتم برأيٍ فمن حقِّ غيركم أن يقتنع بغيره، ولا مكان لحرب ولا ضرب، والخلاف الفقهي لا حرج منه، أما الإثم ففي التعصب المذهبي الضيق!!! والعالم الإسلامي رَحْبٌ، والمذهب الذي يضيق به قطر يتسع له قطر آخر، والذي ينبو عنه عصر تتسع له عصور أخرى)[٧٦].

ويحلل الشيخ الغزالي أسباب هذه الظاهرة ويرجعها إلى العلم الذي يتلقونه ويسوق بعض النتائج التي تترتب على انغلاق هذه الفئات على هذا العلم فقط فيقول:

(وقد لاحظت ثلاث ثمار مُرة لهذا العلم المغشوش، الأولى أن بعض الطلاب الذين لا يحسنون إعراب جملة يقولون عن الأئمة المتبوعين: هم رجال ونحن رجال!.

الثانية أن نفرًا من العمال والفلاحين فرطوا في أعمالهم الحرفية أو الفنية، مكتفين في إثبات تدينهم بثوب قصير، ولحية مشوشة، وحمل عصا حينًا، أو ارتداء عمامة ذات ذنب عندها تكون – المشيخة – قد ثبتت لصاحبها!.

أما الملاحظة الثالثة – وخطرها شديد – فإن عملاء روسيا وأمريكا أيقاظ في محاربة الإسلام، مهرة في إطفاء صحوته الجديدة!! وهم يجتهدون في إبراز الجماعات المتطرفة والتغاضي عن نشاطها، لأنها وَجْهٌ دميمٌ للإسلام، ودعايةٌ حقيقية ضده، وهدمٌ للوحدة، وتسجيلٌ للفرقة)[٧٧].

---

[٧٦] نفس المرجع ص٥٣

[٧٧] نفس المرجع ص٥٣

وهكذا نجد العلماء الأجلاء يتعرضون لهذه الظاهرة شرحاً وتحليلاً، غيرة منهم على دينهم، وحميَّة منهم على إسلامهم، ورغبة في جمع شمل المؤمنين، وإذابة الخلافات بين المسلمين.

وكان للشيخ ﷺ باع طويل في تحليل هذه الظاهرة ومعالجة أسبابها، ومناقشة قضاياها على بساط البحث العلمي المنزه عن الهوى والعصبية، والخروج بعد ذلك بالرأي المعتدل الصحيح الذي يوافق الأئمة العدول سلفًا وخلفًا وهذا ما سنحاول بسطه فيما يلي:

ظاهرة الخلاف

استطاع الشيخ ﷺ أن يكشف الأسباب الحقيقية وراء الخلافات التي طفت على سطح الحياة الإسلامية وخاصة في العقدين السابع والثامن من هذا القرن (القرن العشرين). فهو يرى بادئ ذي بدء – أن الخلاف ظاهرة صحيَّة وخاصة بين المتخصصين في الشريعة الإسلامية، لأنه يكشف لنا عن خصائص جديدة وعظيمة في هذه الشريعة، وهو إلى جانب ذلك يثري الحياة الإسلامية بإضافة آراء جديدة إلى الفقه الإسلامي قائمة على قواعد الاستنباط والاجتهاد الديني، ولكن هذا الخلاف في الرأي لا يصل إلى حدِّ الإثارة بين المسلمين، فما بالك إذا وصل إلى حدِّ القذف والسبِّ وغيره!

الخلاف وارد – أي أنه كان يحدث بين الأصحاب ﷺ – ولكن الخلاف لا يفسد للودِّ قضية، هذا فضلاً عن أنه لا يدعو إلى تسفيه رأي أحد المعارضين للآخر، أو تجريحه، أو التشنيع عليه، ما دام كُلٌّ منهما قد أخذ بالمنهج الإسلامي في الاستدلال والاستنباط، بل كُلٌّ منهما يرى رأي صاحبه صوابًا لأنه يوافق الشريعة لسعتها ومرونتها تسع الجميع.

ويتحدث رضي الله تعالى عنه مبينًا أضرار هذه الفتنة فيقول:

(وإن اختلاف المسلمين حول هذه الجزئيات البسيطة في الدين قد أثرت على قلوبهم، وفتنتهم في دينهم، وجعلت بعضهم يسيء الظن ببعض، ويتهم بعضهم بعضًا بالابتداع، وهذا هُوَ المُنْكَرُ بِعَيْنِهِ، بل هذا الاختلاف وسوء الظن هُوَ بِدْعَةُ الضَّلالَةِ التي حرَّمها الله ورسوله. وتَفْرِيقُ كلمةِ المسلمين حول هذه الفروع، وَضَرْبُ بعضهم ببعض، هذا هُوَ الفَسَادُ الكبير، والفِتْنَةُ في الدين. فليتق الله المسلمون في بعضهم، ويراعوا حق الأخوة الإسلامية، فهي أكبر مِنْ إقامة سنَّة أو تركها)[٧٨].

وينعي رضي الله تعالى عنه على من يشغلوا الناس بمثل هذه الأمور، ويبين الواجب على المسلمين في هذه الظروف العصيبة التي يمرُّ بها العالم الإسلامي الآن فيقول:

(وإنه يجب على المسلم أن يدرك بعقله السليم وضع المسلمين الآن، وحاجتهم الضرورية إلى نبذ الخلافات المذهبية، والتعصبات الفكرية، والتشنجات النفسية التي تشيع العداوة والفرقة والبغضاء بين المسلمين، فإنها الطامة الكبرى التي دهمت المسلمين، ووقفوا يتناحرون حول الصغير من الأمور وتركوا الكبائر تُنتهك جهارًا، وتركوا المضيعين لأركان الإسلام، والمتهاونين في أداء الفرائض، تَعُجُّ بهم الأسواق والطرقات والمقاهي.

السنن لو تركها المسلم طوال عمره وتمسك بالفرائض لكان من المؤمنين الصادقين والناجين في الدنيا والآخرة.

وكم من وقت المسلم الثمين يضيع حول النزاع في سنَّة الجمعة القَبلية – مثلاً – هل هي سُنَّة أو بدعة؟ أو صحَّ سندها أو لم يصح، ولا ينتهي الحديث حولها، وكأن من تركها ترك فرضاً، أو من فعلها أتى منكراً، وتقوم الدنيا وتقعد حول الأذان يوم الجمعة، هل هو أذان واحد أو اثنين، وكأن الذين يفعلونه قد فعلوا ضلالاً وإثمًا مبينًا، أو من تركه ترك ركنًا من أركان الإسلام.

[٧٨] مصابيح على طريق الإيمان ج٢ ص ١١

والخلاف في هذه الأمور قديم، وسيظل، وهو خلاف لفظي، لكن المسلمين الآن لجهلهم بالدين جعلوا منه اختلافًا حقيقيًا فرَّق بينهم، وجعل بينهم النزاع والشحناء، وهذا هو نتيجة الجهل بوسعة الإسلام، وبأنه لا ضير على المسلم في الأخذ بهذا أو بذاك، ففي كل خير، والمسلم لا ينبغي له أن يضيق ما وسعه الله ورسوله وأئمة المسلمين باجتهادهم في فهم ما ورد عن رسول الله ﷺ وصحابته ﷺ)[٧٩].

أسباب الخلاف

وبعد أن يفيض ﷺ في وصف هذه الظاهرة وآثارها الضارة على المجتمعات الإسلامية، يضع يده على الأسباب الحقيقية التي أدت إليها.

فيعزو ﷺ السبب الأساسي لهذه الظاهرة إلى دخول غير المختصين في الدين في مجال الدعوة وتعرضهم للإفتاء بدون الحصول على مؤهلاته التي وضعها له علماء أصول الفقه، وكان يردد دائمًا هذه الحكمة:

(إنما حُرِموا الوصول بتضييع الأصول وأول أصل من الأصول:

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣:النحل)

ويرجع السبب الثاني إلى غرور بعض المتعالمين، وعدم تسليمهم إلى مَنْ فوقهم في العلم والدين، مع قول الله عزَّ وجلَّ (٧٦:يوسف):

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

هذا بالإضافة إلى العصبية في الرأي، وتحكيم الهوى، فضلاً عن الرغبات والآمال الفانية والتي تحمل الناس على تفسير الأحكام الدينية بما يساعدهم على بلوغ آمالهم

[٧٩] مصابيح على طريق الإيمان ج٢ ص١١٢ ، ١١٣

ومآربهم، ناهيك بالخروج عن الآداب الإسلامية في الحوار والمناقشة، حتى في الحديث عن السلف الصالح ... وفي ذلك يقول رضي الله تعالى عنه:

ويجب على المسلم أن يعتقد أن الله عز وجل جعل هذا الدين رحمة بالناس، وتأليفًا لقلوبهم، وتوحيدًا لكلمتهم، وجمعًا لشملهم، ولم يكن الدين يومًا من الأيام سببًا في الأضغان والأحقاد والأمراض النفسية بل:

﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ (٤٤:فصلت)

وإنما سبب ذلك: دعاة الجهالة بالدين، وحب الأثرة والرياسة والتعصب، والأطماع في حطام هذه الدنيا الفانية، لا حبا ولا حرصًا على المسلمين، وكذلك المتبعين لهم من الهمج الرعاع الذين لا علم لهم ولا بينة.

وقد قال ﷺ ما معناه: (الناس رجلان: عالم ومتعلم وما سواهما همج رعاع أتباع كل ناعق)، وقال صلى الله عليه وسلم: (الناس رجلان: عالم ومتعلم ولا خير في ما سواهما)[٨٠]. وقال عليه الصلاة والسلام: (اتقوا الدنيا فو الذي نفسي بيده إنها لأسحر من هاروت وماروت)[٨١]. وقال عليه السلام: (حب الدنيا رأس كل خطيئة)[٨٢].

فمن اهتدى بهذه الحكم والأحاديث والآداب التي أشرنا إليها في هذه الرسالة أقلع عن كل ما يشين المسلمين ويسيء إليهم ويضرهم، وتاب إلى الله عز وجل عما وقع منه، توبَة نصوحًا لا يعود بعدها إلى إحياء أسباب الفرقة والنزاع، ووسائل الخصام

[٨٠] رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود
[٨١] رواه الترمذي في نوادر الأصول عن عبد الله بن بشر المازني
[٨٢] رواه بن أبي الدنيا والبيهقي

والشقاق، وترك الجدال والمراء وإن كان محقًا، كما قال ﷺ: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا)[٨٣].

ثم يعتذر المسلم إلى رسول الله ﷺ، عما بدر منه من عدم رعايته لسنته الشريفة، وهديه الكريم في دعوة المسلمين إلى الخير ونهيهم عن الشر.

ثم يستسمح إخوانه المسلمين، الذي قد هيج عليهم أفكارهم، وأقلق عليهم راحتهم، وأشغل بالهم وتركهم يتخبطون حول ما ألقاه عليهم من آراء وأفكار قد تكون خطأ يحتمل الصواب، وقد تكون صوابًا يحتمل الخطأ وعليه أن يعتقد في المسلمين الخير وأن يظن في نفسه الشر حتى ينهض بحاله، ويفيق إلى رشاده، ويهتدى بهدي الله ورسوله)[٨٤].

هذا وسنشير إلى بعض النقاط التي عالجها رضي الله تعالى عنه على حسب المقام، ومن أراد التوسع في ذلك فعليه بكتاب مصابيح على طريق الإيمان، التوحيد في القرآن والسنة، ندوة حول التصوف وغيرها من كتبه رضي الله تعالى عنه.

أولا: شروط الإجتهاد

ونتيجة للجدل الكثير الذي ثار حول موضوع الاجتهاد نجده ﷺ يعالج هذا الموضوع من شتى نواحيه، فأما من ناحية وجوبه في هذا العصر وفي كل عصر فيتفق مع السادة العلماء الأجلاء على ذلك، ولكنه يشترط لمن يقوم بهذا الأمر أن تتوفر فيه الصفات التي يتطلبها القيام بهذه المهمة العظيمة ويجملها رضي الله تعالى عنه في قوله:

(لا يجوز لأحد أن يأخذ من كتاب الله وسنة رسوله مباشرة إلا إذا كان:

[٨٣] رواه أبو داود والبيهقي عن أبي أمامة

[٨٤] مصابيح على طريق الإيمان ج٢ ص١١٥، ١١٦

١. عالمًا بأسرار كتاب الله وسنة رسوله.

٢. عالمًا بأسرار اللغة العربية التي نزل بها كتاب الله ووردت بها سنة رسول الله ﷺ.

٣. علم أسباب نزول القرآن وأسباب الحديث الذي ذكره النبي عليه السلام.

٤. علم التواريخ والسير.

٥. علم أعراف الناس وعاداتهم وطباعهم لأن التشريع جاء من أجلهم.

٦. علم أقوال الصحابة والأئمة المجتهدين في بيان كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

٧. علم أصول الفقه من الحلال والحرام، والمكروه والمباح.

٨. علم الفرض والسنة، والمندوب والمستحب، وخلاف الأولى، والمصالح المرسلة.

٩. عرف القياس وما أجمعت عليه الأمة من تشريعات في كل عصر من العصور.

١٠. علم حاجة المجتمع في عصره من الأقضية والأحكام بحسب ما استجد من أمور وأحداث حتى يستخرجها لهم من القرآن والسنة.

١١. علم العلوم التي تتعلق بتفسير القرآن والسنة من علوم السند والمتن والجرح والتعديل والرواية والدراية وغيرها.

١٢. وبعد هذا كله يستفت قلبه المتعلق أولاً وأخيرًا بالله ورسوله، ويستلهم الرشد والمدد والعون من الله، ويستلهم النظرات والرضى من رسول الله صلى

الله عليه وسلم، متبرءًا من حوله وحيلته، ومن الشهرة والسمعة، وحب الجاه والمنزلة، وزاهدا في عَرض الحياة الدنيا، فانيًا عن كل شهوة ورغبة، معتذرًا إلى الله ورسوله عن أي همة أو لمة، تكون منه لغير الله ورسوله، ثم يأخذ من القرآن والحديث ما يحتاج إليه هو وأهل عصره، مع احترامه وتقديره لآراء إخوانه من الأئمة المجتهدين، السابقين منهم والمعاصرين له، حتى يعطي كل ذي حق حقه)[٨٥].

موقف الناس من الاجتهاد

ويقسم رضى الله عنه الناس بالنسبة للاجتهاد إلى قسمين، أما من توافرت فيه شروط الاجتهاد السابقة فله ذلك وفي ذلك يقول:

(إن باب الاجتهاد مفتوح لمن تحققت فيه الأهلية والصلاحية للاجتهاد، وليس كل إنسان حصل قشورًا من العلم أو أصابه رذاذ من وابله، يدعي لنفسه أنه غني عن علوم الأئمة، وآراء الفقهاء، واجتهاد العباقرة الأفذاذ، وأنه يأخذ من القرآن والسنة مباشرة دينه وطريقه فهذا خطأ في الرأي، وفساد في العقل، وضلال في السلوك)[٨٦].

وأما من لم تتوفر فيه هذه الشروط فهو داخل في قوله رضي الله عنه:

(أما عوام المسلمين الذين لم يكن لهم نصيب من العلم والتعلم فيكفيهم أن يعبدوا الله سبحانه وتعالى على أي مذهب من المذاهب الإسلامية، من غير أن يعرفوا أن هذا مذهب زيد أو عمرو، وكل من أفتاهم من العلماء فيما يحتاجون إليه، فعليهم أن يأخذوا به من غير أن يعرفوا مذهب هذا العالم الذي أفتاهم، وذلك تيسيرًا من الله عليهم، لأنهم

[٨٥] مصابيح على طريق الإيمان ج٣ ص ٢٦و٢٧
[٨٦] مصابيح على طريق الإيمان ج ٣ ص ٢٧

معذورون بعدم قدرتهم على الدرس والتحصيل، وعليهم أن يتعلموا ما يصحح عبادتهم في نظر الله ورسوله، فإن الله عز وجل لا يكلف نفسًا شيئًا أكثر من طاقتها)[٨٧].

ضرورته وآدابه

وأما عن مدى حاجة المسلمين إلى الاجتهاد ففي ذلك يقول ﷺ:

(وحاجة المسلمين إلى اختلاف آراء الفقهاء حول موضوع واحد أمرٌ لا بد منه، لأن اختلافهم جاء من فهم كل واحد منهم للنص القرآني أو الحديث النبوي، والنص في حد ذاته يتسع معناه لهذه الآراء المختلفة، والمسلم إن أخذ بأي رأي منها فهو مصيب، وكل مسلم له ظروفه الصحيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديّة التي تتحكم فيه، فليس المسلمون كلهم على حالة واحدة حتى يأخذوا جميعاً بمبدأ واحد)[٨٨].

غير أنه لا يحدث خلافٌ بين الفقهاء والعلماء بسبب اختلاف وجهات نظرهم حول مسألة ما، لأنهم يؤمنون بأن النص يتسع لكل هذه الآراء التي ذهبوا إليها، وأن ذلك توسعة من الله على عباده المؤمنين، فقبلوا هذه التوسعة من الله عز وجل، بصدور منشرحة، وقلوب مطمئنة.

ولذا يوجه رضى الله تعالى عنه المسلمين أجمعين إلى الآداب التي يجب أن يتحلُّوا بها عند مناقشتهم للمسائل الاجتهادية، أو حديثهم عن أئمة المجتهدين فيقول:

(ويجب على المسلمين الذين هم في أمسِّ الحاجة إلى كل هذه المذاهب والآراء على كثرتها، لأنهم يجدون فيها المخرج من المضايق والشبهات والله واسع عليم، يجب عليهم أن لا يختلفوا مع بعضهم حول هذه المذاهب ما دامت كلها صحيحة عن الله

[٨٧] مصابيح على طريق الإيمان ج٣ ص ٢٨
[٨٨] مصابيح على طريق الإيمان ج٣ ص٢٨

ورسوله، وأن يترك بعضهم بعضاً يختار منها ما يشاء من غير حساسية ولا كراهية، ولا نزاع ولا جدال، لأن الجدال في الحق بعد ما تبين خصلة من خصال النفاق، نعوذ بالله جميعاً منه) [٨٩].

هذا ما اتفق عليه أجلة علماء المسلمين قديمًا وحديثًا ويكفي أن نشير إلى مثال واحد من جهابذة القدامى وهو الآمدي حيث يقول:

يجتهد العلماء في ضوء القواعد الكلية ومقاصد الشريعة لاستخراج الأحكام الجزئية التي تلائم زمنهم وبيئتهم، وتناسب عاداتهم وأحوالهم، وفيها يكون الاختلاف باختلاف طرائق الاستدلال، ولا يؤدي هذا الاختلاف إلى ضرر أو مفسدة ما دامت مسائل الدين الأساسي– الإعتقادية والعملية – موضع اتفاق، تجتمع عليها الأمة، بل في الاختلاف بالجزئيات وتعدد الآراء في حكمها ما فيه يُسرٌ، إذ يتيح هذا لولي الأمر أن يختار منها ما يحقق مصالح الناس، ويتفق مع ما تتطلبه حياتهم، ويرفع عنهم الضيق والحرج، وهي التي كانت مصدر ثروة تشريعية عظيمة، وتراث فقهي رائع، يستوعب ما يَجِدُّ للناس من أقضية في ظل شريعة الإسلام الخالدة.

وما كان لنصوص الشريعة القطعية المتناهية أن تحكم ألوان النشاط البشري المتجدد الذي لا ينتهي، ولو جاءت أدلة الأحكام كلها قطعية، لكان في هذا حجر على العقول، وجمود في التفكير، وحرج شديد يقف الناس أمامه عاجزين عن معرفة أحكام المسائل المتجددة في كل عصر.

وقد اكتسبت الشريعة الإسلامية بأدلتها الظنية مرونة كثيرة، إذ أتاحت للعلماء المجتهدين أن ينظروا فيها، وأن يستنبطوا الأحكام التي تتفق مع المصالح المعتبرة شرعا بما يناسب البيئة والزمان، وهذا هو الذي أدى إلى اختلاف الفقهاء، فكان في اختلافهم

[٨٩] نفس المرجع ص٢٩

سعة على الأمة، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : (ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنهم إذا اجتمعوا على قول فخالفهم رجل كان ضالاً، وإذا اختلفوا فأخذ رجل بقول هذا ورجل يقول هذا كان في الأمر سعة)[٩٠].

وهذا أيضا ما قرره الأستاذ طه عبد الباقي سرور بعد دراسته الشاملة لآراء السابقين واللاحقين والمسلمين والغربيين حيث يقول:

فكل كلية في التشريع الإسلامي، خلية عامرة بالحياة المتجددة، التي ترسم الأفق الأعلى للروح الإسلامي، ثم تترك للمشرع التفصيل والتقنين، والمطابقة بينها وبين واقع الحياة، ومقتضيات العرف، وملابسات الزمان والمكان، وهذه أكبر معجزات التشريع الإسلامي الذي جاء ليكون شعارًا لخير أمة أخرجت للناس، ودستورًا هو عدالة الله بين خلقه، ورحمته بين عباده.

فهو تشريع لا يستمد قانونه العام من الكتاب والسنة فحسب، بل تتسع آفاقه لكل تطور في الزمان أو المكان، فيضيف إلى كلياته العامة في الكتاب والسنة العقل الإنساني باجتهاداته وأقيسته واستنباطه، والتطور الزمني وما ينشأ معه للناس من أقضية وحاجيات، فيضيف إلى الاجتهاد والقياس والإجماع قاعدتين تتسعان بآفاقهما الرحبة لكل طارئ على الحياة وقادم على الوجود قاعدتي سد الذرائع والمصالح المرسلة.

إلى أن يقول: .... فقد اكتفى القرآن والسنة، برسم الخطوط العريضة، والكليات العامة، وتركا التفصيلات والتطبيقات للناس يحيلون فيهما عقولهم بما يوافق مصالحهم ويكفل حاجياتهم.

[٩٠] معوقات تطبيق الشريعة منَّاع القطان ص ١٠٣، ١٠٤

والأصل في الشريعة الإسلامية، أنها شريعة تقوم على الرحمة والسعة والرفق والتيسير، وبذلك ينتفي كل تشريع يوجب العسر والحرج.

وهذا امتياز واصطفاء للأمة الإسلامية، التي أكرمها الله وأنعم عليها، وجعل من بعثة رسولها صلوات الله وسلامه عليه رحمةً عامة للعالمين، ورحمةً خاصة بها. هو هذا التشريع الذي وضع عنها الإصر والأغلال والشدة التي فرضت في التشريعات السابقة[٩١].

ثانيا: التوحيد في القرآن والسُّنَّة

ونظرًا للجدل الكثير الذي ثار حول قضايا التوحيد والشبهات التي يبلبل بها كثير من الأدعياء عقول العامة: كَدَوْرِ الأسباب في الحياة، والتوسل والوسيلة، وزيارة الأولياء والصالحين، وغيريها. ويتمادى بعضهم فيصف مخالفه في الرأي في هذه القضايا بالكفر أو الشرك أو الفسوق.

عالج ﷺ هذه القضايا باستفاضة موضحاً وجه الحقِّ فيها، ومبتغياً بذلك رضا الله ورسوله والدار الآخرة. وسنحاول أن نُجْمِل رأيه في بعض هذه القضايا لأهميته وجدته، وإن كان فصَّل ذلك في كتابه التوحيد في القرآن والسنة.

التوحيد

يستند ﷺ في بيان حقيقة التوحيد إلى الآيات القرآنية الكريمة:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١٦٣:البقرة)

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾ (٢٥٥:البقرة)

[٩١] دولة القرآن ـ طه عبد الباقي سرور ص ١٣٨ ، ١٣٩

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١٨:آل عمران)

وبذلك يرجع إلى طريقة السلف في الاستدلال بالقرآن وترك الاحتجاج بالمنطق والفلسفة وغيرها من الحجج السوفسطائية العقيمة التي شتتت وحدة المسلمين، وبعد أن يشرح هذه الآيات شرحًا مبسطًا بعيدًا عن الغرابة والتكلف ينتهي إلى تقرير حقيقة التوحيد فيقول:

(فالتوحيد هو اعتقاد القلب بأن الله واحد لا شريك له في ملكه وملكوته، وأن الله له التصريف المطلق فيهما لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وأن الله فردٌ صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد)[٩٢].

ثم يوضح ذلك التعريف بلغة أبسط لتأكيده في النفوس وتقريره في الأذهان فيقول:

(وعلى ذلك فإن التوحيد هو: تفريد الله بالخلق والإيجاد، والرزق والإمداد، والإحياء والإماته، والتقدير والتدبير، والتصريف التام في جميع الكائنات في السموات والأرض وما بينهما، وفي الدنيا والآخرة، ثم بعد ذلك: تنزيه الله عن كل علَّة وغرض، وعن كل نقص وهزل، وعن كل لهو ولعب، وعن كل ما لا يليق بجنابه المقدس عز شأنه)[٩٣].

وبعد أن يبين الصفات الواجبة للذات الإلهية وذلك من خلال الآيات القرآنية، يوضح المقصود بالتوحيد الخالص فيرى أنه: (هو تطهير القلوب من الآراء الفاسدة، ومن الشَّكِّ والأوهام الباطلة، وعقد القلب على العقيدة الحقَّة)[٩٤].

[٩٢] التوحيد في القرآن والسنة ص ١٣
[٩٣] نفس المرجع ص ١٤
[٩٤] نفس المرجع ص ١٨

ثم يبين ركائز التوحيد، وهي: الإيمان بالله ورسله، وملائكته وكتبه، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره. وبعد ذلك يبين ﷺ أساسين عظيمين يؤدي فهمهما إلى إزالة الخلافات بين المسلمين في شأن عقيدة التوحيد هما:

١. دور الأسباب في حياة الناس:

فقد جعل الله المنافع في تلكم الأسباب، لينتفع بها الإنسان، ويقضي بها مآربه، ويشهد في هذه الأسباب حكمة الله في إيجادها وتسخيرها للإنسان. وهذا لأن الأسباب لا تفعل من ذاتها ولا من نفسها، وإنما تفعل بقدرة الله عزَّ وجلَّ وإرادته، وبأمره لها أن تفعل: (فالأسباب وسائل فقط يستعين بها الإنسان على الوصول لغايته وقضاء حاجته)[٩٥].

ويبين ﷺ الحكمة من إيجاد الأسباب فيقول:

(ولقد أقام الله الأسباب ليظهر للعقل مسبب الأسباب سبحانه وتعالى، ولتوجد المسببات عند مباشرة السبب لها، لأن الأشياء إن وجدت بدون أسباب اختل نظام العقل، لعدم شهود الحس قدرة الله التي أوجدت الشيء من غير سبب، فتصير الحياة كلها معجزات وخوارق تدهش الألباب وتحير العقول والأفهام، ولكن الله رفيق بعباده فوضع الأسباب رحمة بهم، حتى لا تفجأهم الأحداث بدون مقدمات وبدون وسائل. فسبحان اللطيف الخبير)[٩٦].

٢. أما الأساس الثاني فهو رسوخ العقيدة في قلب كل مؤمن:

وعليه فلا خوف على أي مسلم من الشرك والكفر لأن التوحيد مستقر في قلوبهم وفي ذلك يقول:

[٩٥] نفس المرجع ص ٢٤
[٩٦] نفس المرجع ص ٢٥

(إن الكفر بعيد جداً عن كل مسلم، كما أن الإسلام بعيد جداً عن كل كافر، وإن الذي يفضِّل كافراً على مسلم فقد باء بغضب من الله، وإن الذي يُكَفِّر مسلماً بغير موجب للكفر فقد كفر بالله ورسوله، قال رسول الله ﷺ: (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه)[٩٧]).

شبهات حول عقيدة التوحيد

ويعالج رضي الله تعالى عنه بعض الشبهات التي يثيرها بعض المتشددين حول عقيدة التوحيد، فيضيّقون على الناس ما وسَّعه الله لهم من رحمته وذلك مثل:

١- إدعائهم أن الاستعانة بغير الله عز وجل شرك، واستنادهم في ذلك إلى الحديث المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما والذي يقول فيه رسول الله ﷺ: (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله)[٩٨].

ويسوق إلينا ﷺ في دحض حجتهم فهماً ثاقباً لم يسبقه إليه أحد فيقول:

(وفهمي في هذا الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ لم يقل لابن عباس: ولا تسأل غير الله، فقد أمره أن يسأل الله ولم ينهه أو يحرم عليه سؤال غير الله، وذلك لقول الله تعالى:

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣:النحل).

[٩٧] متفق عليه من حديث ابن عمر

[٩٨] رواه الطبراني والبيهقي عن ابن عباس

وكذلك قول الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: (وإذا استعنت فاستعن بالله)، فلم يقل له: ولا تستعن بغيره، فإن الاستعانة بغير الله من صميم الدين، لقول الله تعالى على لسان سيدنا موسى (٢٩ – ٣٢:طه):

﴿ ٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي . هَٰرُونَ أَخِي. ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي. وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾

وقول الله تعالى (١٥٣:البقرة):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾

وقول الله تعالى (٢:المائدة):

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾

يعني ليعن بعضكم بعضاً على أعمال البر وعلى أعمال التقوى)[٩٩].

وهكذا يتبين لنا أن الاستعانة بغير الله إنما هي بأمر من الله ورسوله، ولا حرمة ولا كراهية فيها، ولا كفر ولا شرك فيها، فقد جعل الله كل شيء ليستعين به الإنسان في قضاء حاجاته ومآربه، ويصل به إلى منتهى غاياته وآماله، وعليه أن يشكر الله عزَّ وجلَّ على تسخيره الأشياء إليه، وجعلها معينة له على معاشه ومعاده.

ولقد استعان رسول الله ﷺ في أمور الدين والدنيا بأصحابه وبغيرهم، وبكل ما حوله من أشياء، تنفيذاً لأمر الله وحكمته في إقامة الأسباب.

٢– ما أثاره بعض المتعالمين حول قول رسول الله ﷺ: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[١٠٠]، وقولهم: إن المسلمين الذين يتخذون المساجد على

[٩٩] التوحيد في القرآن والسنة ص ٣٥

[١٠٠] رواه الطبراني عن أسامة بن زيد

الموتى ويصلون في هذه المساجد قد تشبهوا باليهود والنصارى، وقد دخلوا في هذه اللعنة التي ذكرها رسول الله ﷺ في هذا الحديث الشريف.

وقد ردَّ عليهم ﷺ بكلماته النيِّرة وحُجَجِهِ الساطعة فقال:

(هذا الحديث موجه أصلاً على اليهود والنصارى وليس مُنْصبًّا على أحد من المسلمين، وذلك لأن اليهود والنصارى قد فسدت عقائدهم، وضلوا في إيمانهم، وأخذوا يقصدون بعبادتهم أصحاب القبور من أنبيائهم وأحبارهم ورهبانهم والصالحين منهم، وذلك بنص قول الله تعالى (٣١:التوبة):

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾

وإن اليهود والنصارى يعتقدون فيهم النفع والضُّر، والإعطاء والمنع، وغير ذلك من الأمور التي لا تتأتى إلاَّ من الله سبحانه وتعالى، ولا تنبغي لأحد سواه، ومن هنا اتخذوهم أرباباً وعبدوهم من دون الله، وكانوا يسجدون في هذه القبور لأصحابها، وذلك لعنهم رسول الله ﷺ في هذا الحديث الشريف. ونحن نعلم أن اللعن هو الطرد من رحمة الله، والحرمان من مغفرته سبحانه وتعالى، لأن من تنصب عليه اللعنة إما كافراً بالله وأما أشرك مع الله آلهة غيره.

أما المسلمون الذين يدفنون أمواتهم في المساجد ويصلون فيها فإنهم بعيدون كل البعد عن لعنة الله ورسوله، لأنهم لم يتشبهوا باليهود ولا بالنصارى في شيء مما سبق ذكره من الأمور التي توجب اللعن، فإن المسلمين إنما يدفنون الصالحين منهم في المساجد تكريماً لهم وتقديراً لفضلهم وعملهم وجهادهم، حتى يتذكر مَنْ يصلى في هذه المساجد

مآثرهم وأعمالهم، وأخلاقهم وفضلهم، فيتأسى بهم ويقتدي بأعمالهم وأخلاقهم. ولم نسمع أن مسلماً سجد لقبرٍ ولا لصاحبِ قبر مهما كان شأنه)[١٠١].

وبهذا يظهر لنا معنى الحديث ويتبين كيف أن اللعن منصبٌّ على اليهود والنصارى لكونهم عبدوا أنبيائهم ورهبانهم وأحبارهم، واتخذوهم آلهة من دون الله، وظهر أيضًا كيف أن أصغر مسلم لم يتخذ مع الله إلهاً آخر، ولم يقصد بعبادته أحداً غير الله عزَّ وجلّ، لصحَّة عقيدته وصدق إيمانه بالله ورسوله.

٣- قول بعض المثقفين إن الذين يشدون الرحال ويسافرون إلى أي مسجد من مساجد الأولياء قد ارتكبوا إثماً كبيراً، لظنِّهم أنهم مخالفين للحديث الشريف الذي يقول: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى)[١٠٢].

وقد بين ﷺ له وجه الصواب في هذا الحديث فقال:

(فاتهم أن هذا النهي إنما هو للكراهة فقط وليس للتحريم لعدم وجود قرينة تدل على تحريم ذلك، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإنه فاتهم أن الصلاة في المسجد الأبعد فيها مثوبة أعظم، وفيها تكفير للخطايا ورفع للدرجات بسبب كثرة الخطوات لهذا المسجد، ومن ناحية أخرى ثالثة: فإن معنى الحديث الشريف لا تشد الرحال – بصفة واجبة أو مفروضة – إلا لهذه المساجد الثلاث، وإن كان يجوز شد الرحال لغيرها من المساجد على سبيل الندب والسنة)[١٠٣].

بل يذهب ﷺ إلى أبعد من ذلك فيوضح جلية هذا الأمر ويبين أن الذين يسافرون إلى هذه المساجد لا يقصدوها في الحقيقة ونفس الأمر، وإنما يقصدون زيارة أصحابها من

[١٠١] التوحيد في القرآن والسنة ص ٤٥،٤٦

[١٠٢] رواه الطبراني في الجامع الكبير عن عمرو وأبي سعيد

[١٠٣] التوحيد في القرآن والسنة ص ٤٧، ٤٨

آل بيت رسول الله ﷺ، ومن الأولياء والصالحين رضي الله تعالى عنهم وهذا من السنة المؤكدة، وفي ذلك يقول:

(وإن من السنة المؤكدة أن يزور المسلم قبور الصالحين والشهداء والمقربين، فقد كان رسول اله ﷺ يزور شهداء أحد، ويزور أهل البقيع وغيرهم من الموتى، ويدعو الله عندهم بما شاء)[١٠٤].

ثالثاً: حول السنة والبدعة

كثر اللغط من أدعياء العلم في كل مكان عن السنن والمبتدعات، وجعلوا حديث سيدنا رسول الله ﷺ القائل: (كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)[١٠٥] – سيفاً مسلَّطاً على كل شيء يخالف رأيهم، فأوقعوا الناس في الحيرة، فقام ﷺ يبيّنُ للناس المقاصد الشرعية والدينية من هذا الحديث فقال:

(إن المحدثات هي الأمور التي حدثت في الدين بعد رسول الله ﷺ وهي نوعان:

النوع الأول من المحدثات: هو ما يدخل تحت ما أمر الله به ورسوله، وقد استحسنه المسلمون من أعمال القربات والبر والخير، فهو من السنة، وهو بدعة حسنة، قال ﷺ: (من سَنَّ سنَّةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء)[١٠٦]}[١٠٧].

ويضرب لها أمثلة كثيرة، فيذكر مثلاً: قتال مانعي الزكاة، وجمع القرآن في عهد سيدنا أبي بكر، وجمع المسلمين على صلاة التراويح جماعة بالمسجد، وتدوين الدواوين – في عهد سيدنا عمر– والأذان الثاني للجمعة، وإجراء التوسعة في مسجد رسول الله

[١٠٤] التوحيد في القرآن والسنة ص ٤٨
[١٠٥] رواه أحمد عن ابن مسعود
[١٠٦] رواه الترمذي عن جرير
[١٠٧] التوحيد في القرآن والسنة ص ٣٦

ﷺ، وجمع المسلمين على مصحف واحد وإحراق ما عداه في عصر سيدنا عثمان، ثم تدوين الحديث، ووضع النقط على حروف القرآن، وكذا حركات الإعراب في عصر التابعين، ثم الصلاة على النبي بعد الأذان، والاحتفال بمولد النبي ﷺ، وغيرها من الأمور التي استجدت، ويقول:

(وما ذكرناه هو على سبيل المثال لا الحصر فكل هذه الأمور يسمى بدعة لأنه استحدث بعد عهد رسول الله، لكنه في الوقت نفسه يسمى سُنَّةٌ من سنن الإسلام لأنه فعل أصحاب رسول الله، وقد ورد فيهم قول النبي ﷺ: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ)[١٠٨]}[١٠٩].

بل إنه يؤكد على وجوب هذا الأمر على العلماء المجتهدين، والأئمة الراشدين في كل عصر، ويستدل على ذلك بقول الله عزَّ وجلّ (٨٢:النساء):

﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾

ويوضح هذا الأمر فيقول:

(إن أولى الأمر وذوى الشأن فى فهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله، جعل الله لهم حكمة وعلماً فى استخراج الأحكامالتى يحتاجها الناس فى حلِّ مشاكلهم، وفى تصحيح مسارهم على نور من كتاب الله وسنة رسوله، وهذا هو الفقه فى دين الله، واستنباط الأحكام لكل حدث يحدث ويستجد فى المسلمين من كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله تعالى: ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ تؤكد قيام العلماء المجتهدين، والأئمة الراشدين في كل عصر من عصور الأمة الإسلامية، حتى لا تضل أمة

[١٠٨] رواه الترمذي وابن ماجه عن العرباض بن سارية.

[١٠٩] مصابيح على طريق الإيمان ج١ ص ٤١

الإسلام، ولا تزيغ عن الهدى. وحيث أن هذه الأمور، أمور ضرورية لحياة المسلمين، واستنباط الأحكام لها أشد منها ضرورة، لاطمئنان المسلمين على دينهم ومعاشهم، فلم تكن هذه الأمور، ولا الأحكام التي تستنبط لها بدعة في الدين، لأنها لمن تكن موجودة في عهد رسول الله ﷺ وصحابته، ولكنها سنة الإسلام، وهدى القرآن)[١١٠].

أما النوع الثاني من المحدثات، فيشير إليه بقوله:

(هو كل عمل خالف ما كان عليه رسول الله ﷺ، أو خالف نصًا صريحًا من كتاب الله عز وجل، أو حديث رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو بدعة الضلالة التي ضَلَّ بها مخترعها، وضَلَّ عن سبيل الله كلُّ من عمل بها. وإن من يعمل بهذه البدعة يعذب في نار جهنم حتى يتطهر منها، وهذا إذا لم يتب إلى الله منها في الدنيا، ومات مصرًّا عليها، أما من تاب فقد تاب الله عليه، وعفا عنه والله عفو كريم، قال رسول الله ﷺ: (ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)[١١١].

ويضرب لها أمثلة كثيرة جدًا نسوق منها:

١. تبرج النساء.

٢. اختلاط النساء بالرجال لغير حاجة.

٣. تجمل المرأة لغير زوجها، وتجمل الرجل لغير زوجته.

٤. استعمال الملابس التي تحدد العورة أو تصفها سواء في ذلك الرجل أو المرأة.

٥. رمي الحكام والأمراء بالكفر أو الفسوق.

---

[١١٠] مصابيح ج ١ ص٤١

[١١١] التوحيد في القرآن والسنة ص٣٨ – والحديث رواه الترمذي عن جرير.

٦. تكفير المسلم المخالف لبعض أحكام الشريعة.

٧. إقامة المسارح للرقص الخليع.

٨. فتح حوانيت للقمار والميسر والتصريح بها.

٩. التفرقة بين المسلمين ولو باسم الدين.

١٠. الجدال حول الفروع التي اختلفت فيها الأئمة.

وهكذا يتضح لنا الفرق بين البدعة الحسنة التي سنها العلماء وأئمة الهدى حيث أن لها أصل في دين الله، ورآها المسلمون شيئًا حسنًا، وأقرها العلماء منهم، أما البدعة السيئة، فهي التي لا أصل لها في الشرع، ولا يستحسنها المسلمون ولا يقرها أهل العلم والذكر.

رابعًا: تغيير المنكر

ارتفعت أصوات كثير من الجانحين في الفترة الأخيرة تطالب كل فرد في المجتمع بتغيير المنكر بالقوة وإلا كان آثمًا، ويؤيدون دعواهم بقوله ﷺ: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[١١٢].

فتصدى ﷺ لهذه الفرية مبينًا من هم الذي يتوجه إليهم هذا الخطاب النبوي والطرق الحكيمة التي يتبعونها في إزالة المنكر فيقول:

(هذا الحديث الشريف موجه بادئ ذي بدء إلى من يستطيع تغيير المنكر من الأمراء والحكام والعلماء الذين يقدرون على تغيير المنكر مرة بالحكمة، ومرة بالموعظة

[١١٢] رواه الترمذي عن أبي سعيد

الحسنة، وثالثة بالتخويف والزجر، ورابعة بالأخذ على يد صاحب المنكر، وخامسة بالمداراة والستر حتى يستقيم هذا الإنسان المعوج على الصراط المستقيم)[١١٣].

وأما العوام ومن في حكمهم ممن يعجزون عن التغيير باليد أو باللسان فلهم دور أيضاً في تغيير المنكر ينبه إليه فيقول:

(وإن الذي لا يمكنه تغيير المنكر بلسانه أو بيده يجب عليه أن ينكره بقلبه يعني لا يرضى به ولا يرضى عن فاعله ويحزن ويتألم لوقوعه، ويدعو الله أن يغيره ويبلغ الذين يمكنهم تغييره وعلى ذلك يكون كل المسلمين قد اشتركوا في تغيير المنكر كل بحسبه وعلى قدر طاقته)[١١٤].

هذا وكل إنسان يملك تغيير المنكر بالقوة وباللسان أيضًا في منزله وعلى من يعولهم، ويمونهم، وفي دائرة عمله واختصاصه وكل مكان من المجتمع يصل إليه تأثيره بلا ضرر يحصل له من جراء ذلك. لكن ما هو المنكر الذي يجب تغييره؟

ونظرًا للخلط الكثير في تحديد ماهية المنكر الذي يجب إزالته وتغييره وخاصة بين الجهلة وأنصاف المتعلمين وضَّح ﷺ هذا الأمر ووضع له الضوابط الشرعية التي تحدده بدقة فقال:

(ما هو المنكر الذي يجب تغييره؟ هو كل أمر توعَّد عليه الشارع الحكيم مرتكبه بالعذاب والخسران في الدنيا والآخرة، وهى الأمور المحرمة شرعاً، والمنصوص على حرمتها في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ، وأجمع على حرمتها أئمة المسلمين.

وليس من المنكر الأمور المختلف في حرمتها بين علماء المسلمين وأئمتهم، وليس من المنكر ترك المسلم لبعض السنن والمندوبات والنوافل والمستحبات، وإنما المنكر هو

[١١٣] التوحيد في القرآن والسنة ص٤١

[١١٤] التوحيد في القرآن والسنة ص٤١

تركه لفريضة من الفرائض الواجبة عليه لله عز وجل، أو ارتكاب إثم من الآثام المحرمة شرعاً)[١١٥].

ولا يترك ﷺ هذا الموضوع حتى يبيّن الآداب الواجب اتباعها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأما من يترك السنن والنوافل فيوجب على العلماء والمرشدين أن يرغبوه في الإتيان بها، وأن يشوقوه إلى عملها، بتذكيره بالثواب المنوط بها، وبالجزاء الذي أعدَّه الله لفاعلها، وبالحرمان الذي يصيب من قعد عنها وتهاون فيها. مع عدم مؤاخذة المسلم عليها وعدم التشديد عليه في شيء منها. وكذلك من يفعل المكروهات أو الأمور المشتبه فيها فإن على الأئمة والعلماء أن يتلطفوا له في القول، وأن ينبهوه إليه برفق، من غير أن يجرموه أو يثيروا ضجة حوله.

ويلخص الأدب الواجب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيقول:

(لا يجوز أمر بمعروف يؤدي إلى جدال وشقاق، كما لا يجوز النهي عن المنكر بغلظة وفظاظة فيكون الشرُّ الذي يجلبه على الناس أكثر من الشرِّ الذي ينهاهم عنه. إن الشرَّ لا يأتي بالخير أبدًا، قال الله تعالى لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام عند دعوتهما فرعون إلى الإيمان (٤٤:طه): ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾، وإن أفجر مسلم خير من فرعون لأنه لم يكفر بالله ولم يشرك به شيئًا)[١١٦].

هذا وقد اكتفينا بإبراز هذه الموضوعات من بين الموضوعات التي عالجها الشيخ في هذه الناحية خوفاً من الإطالة، حيث أنه ﷺ عالج كل المسائل الخلافية كالتوسل والوسيلة، وحكم الاحتفال بالمولد النبوي، وقراءة القرآن بصوت مرتفع في المساجد، وغيرها... بدقة متناهية، وبأسلوب سهل مبسط، وذلك من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فمن أراد الاستفاضة في ذلك فعليه بالكتب التي أشرنا إليها فيما سبق.

---

[١١٥] التوحيد في القرآن والسنة ص٤٢

[١١٦] التوحيد في القرآن والسنة ص٤٣

الباب السابع

بناء الأسرة المسلمة

الفصل الأول: هيكل الأسرة الفاضلة

- أولا: القدرة على الزواج
- ثانيا: اختيار الإنسان شريك حياته
- ثالثا: القدرة على المباشرة الجنسية
- رابعا: تربية الأبناء وحسن رعايتهم

- الواجب نحو الابن جنيناً -الواجب نحو المولود -أسرار الرضاعة - تأخير الحمل أثناء الرضاعة - حكم تنظيم الإنجاب - اليوم السابع للمولود

الفصل الثاني: منهج الإسلام في تربية النشء

- المرحلة الأولى: الملاعبة
- المرحلة الثانية: التأديب
- المرحلة الثالثة: المصاحبة

مشكلات الأبناء مع الآباء : العقوق وعدم الرضا. هضم حقوقهم. إلغاء شخصية الابن.

الفصل الثالث: عناية الإسلام بالمرأة

- قوامة الرجل على المرأة
- الإنفاق
- الميراث
- الطلاق
- قضية النشوز

إن بنيان المجتمع لا يكون قويًا ومتماسكًا إلا إذا كانت الأسرة طيبة وصالحة، لأن المجتمع يتكون من الأسر، والأسرة تتكون من الزوجين والأبناء، ومن هنا وضع الإسلام الأسرة فى مقدمة القضايا التى عالج أمورها، ورتب شئونها، ونظم حياتها، من بداية نشأتها إلى نهاية أمرها، وأحاطها بأسوار قوية من الأحكام والآداب، حتى تظل مصونة الجانب، محفوظة الكرامة، لها حرمتها، ولها حريتها، ولها حقوقها.

ومن هنا وجدنا الشيخ رضي الله تعالى عنه يولي اهتماماً كبيراً بالأسرة من كافة جوانبه، ويركز بصفة خاصة على الجوانب التى برزت فى العصر الحديث ولم تكن موجودة بهذه الصورة فيما قبل، ليضع لها العلاج الناجع والدواء الشافي من كتاب الله، وهدي سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ.

وقد برزت فى عنايته بالأسرة المسلمة فى كل كتبه وخاصة منها: حقوق الإنسان فى الإسلام، توجيهات فى بناء الأسرة، قبس من معانى سورة النور، الإنسان الوسط الجزء الثالث من كتاب مصابيح على طريق الإيمان، خواطر إيمانية حول تنظيم الأسرة.

وسنحاول فى عجالة سريعة توضيح الجوانب البارزة فى اهتمامه بالأسرة فى المجتمع العصرى الحديث وذلك لحاجة المجتمع الإسلامى إلى هذه التوجيهات فى تلك الفترة التى تحاول الأمة فيها العودة إلى روحها الإسلامية السامية.

الفصل الأول

هيكل الأسرة الفاضلة

يجعل رضى الله تعالى عنه الأسرة بناء يتكون هيكله من أربع أسس رئيسية هى:

أولاً: القدرة على الزواج

ويعني بها القدرة على القيام على تكاليف الزواج حسب العرف والعادة والشرع الشريف، وكذلك نفقات الإعاشة فى ظروف تسمح بعدم الجور والحيف على الزوجة بحيث تجد ما كانت تجده فى بيت ولي أمرها من الإعاشة والسكن والملبس، وكذلك القدرة على رعاية الأبناء وتربيتهم تربية طيبة ولذلك عندما سئل رضى الله عنه عن معنى حديث النبي ﷺ الذى يقول فيه: (بئس الإثم أن يضيع المرء من يعول)[١١٧].

كان مما قاله فى شرح ذلك الحديث: (كلمة بئس معناها الذم والوعيد لمن يوصف بها، وقد وصف بها الإثم كأن الآثام تتفاوت فى مدارجها وفي النحوس والشقاء، وكان من أشدها جرماً وعناءا وعذاباً فى الدنيا والآخرة إهمال الإنسان أسرته وأبناءه وتضييع الإنسان لهم وذلك بحرمانهم من أى حق من حقوقهم فى هذه الحياة كالتعليم والتمريض والتغذية الكافية ووقايتهم من الشرور والمفاسد وحمايتهم من البرد والحر الشديدين وغير ذلك من مرافق الحياة التى يعيشها الناس).

ثانياً: اختيار الإنسان شريك حياته

ويقصد بالإنسان هنا الرجل أو المرأة وضوابط الاختيار السليمة يجمعها رضي الله تعالى عنه فى النية وهى القصد الذى يدفع الإنسان للعمل، فالعمل لكى يكون عملاً صالحاً يعود أثره على صاحبه فى الدنيا والآخرة لابد أن يسبقه النوايا الطيبة، والقصود الحسنة،

[١١٧] رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود

ولذا يوضح ﷺ النوايا التي يجب على الإنسان أن يستحضرها في نفسه، ويضمرها في فؤاده عند رغبته في الزواج فيقول:

{ينوي الإنسان بهذا الزواج إرضاء الله، وإعفاف النفس، وإحصان الفرج، ووضع لبنة صالحة في صرح الأمة، ويقصد بذلك الزواج إيجاد العلائق الكريمة، والروابط الطيبة بين الأسر، وتوفير المحبة والتآخي والتعاون بين المجتمع، وتنشئة الأبناء على الخلق والفضيلة الحميدة، ليكون قد قدم بذلك عملاً صالحاً وخيراً عظيماً، يعود عليه أثره وثوابه في الدنيا والآخرة.

ويتمثل ذلك في قول الله تعالى (٧٤:الفرقان):

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

وقول رسول الله ﷺ: (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس)[١١٨]}[١١٩].

ثم يفصِّل ﷺ الأسس التي يجب أن يراعيها الرجل في اختيار الزوجة وهي:

١. أن تكون على خلق فاضل ومتمسكة بدينها، لقول النبي ﷺ: (فاظفر بذات الدين تربت يداك)[١٢٠].

٢. أن تكون من بيت سليم من الأمراض النفسية والجسمية، وأن لا تكون من بنات العم أو الخال لقول النبي ﷺ: (اغتربوا لا تضووا)[١٢١].

٣. التقارب في السن وفي الثقافة وفي الناحية المالية وأن تحوز الرضى والقبول، ولذا فيجب أن ينظر الرجل إلى المرأة التي يريد الزواج منها، وأن تنظر هي أيضاً إليه،

[١١٨] رواه ابن ماجه من حديث عائشة
[١١٩] خواطر إيمانية ص ٧
[١٢٠] رواه ابن حبان من حديث أبي هريرة
[١٢١] رواه إبراهيم الحربي في غريب الحديث عن عمر

حتى ترى منه ما تحبه ويرى منها ما يحبه، وذلك لأن الحياة التي تبدأ بالألفة والمحبة تدوم سعادتها، ويعظم أثرها في كل المجالات[١٢٢].

ثالثا: القدرة على المباشرة الجنسية.

وهي من أهم الشروط التي لا بد من توافرها في كل من الرجل والمرأة على السواء فإنها من أهم مقاصد الزواج ويترتب عليها وجود المحبة بين الزوجين والرحمة بينهما، وإنجاب الذرية التي بها تتم سعادة الأسرة وينبني المجتمع.

وحول هذا المبدأ يقول الله تعالى (٢١:الروم):

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا الأمر بقوله: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[١٢٣].

وأيضًا أوضح الله سبحانه وتعالي في كتابه العزيز ضرورة توفر مبدأ القدرة على الزواج ونفقاته وتربية الأبناء وتنشئتهم فقال جلَّتْ قدرته (٣٣:النور):

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ ﴾

ويُجْمِلُ ﷺ ما سبق فيقول:

[١٢٢] باختصار من كتاب توجيهات في بناء الأسرة ص ٥، ٦

[١٢٣] متفق عليه

(مع أن الزواج أصل عظيم من أصول الإسلام، ورغب الإسلام فيه بشتى الطرق، إلا أنه حاطه بسياج قوي من الأسس والقيم التي تحفظ عليه قدسيته وروابطه، فإذا انعدمت هذه الشروط أو بعضها تجد الإسلام يأذن بتأخير الزواج، لأنه يصبح عائقاً في وجه الحياة السليمة والعيشة الطيبة، وإن تم الزواج في هذه الحالة فسيكون نوعاً من العبث بالحياة وقِيَمِهَا، ويترتب عليه الشقاء والمتاعب.

لذلك نرى الإسلام يتدخل لتفرقة هذه الحياة الهزيلة التي تمت في الظلام وتحت شعار التغرير وعدم الفهم الصحيح للزواج، قال تعالى:

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [١٣٠- النساء])[١٢٤].

رابعًا: تربية الأبناء وحسن رعايتهم

ويركز ﷺ بصفة خاصة على هذا الجانب لأهميته بالنسبة لاستقرار الأسر واتزان الأفراد، وسعادة المجتمعات، ولذلك نجده يبرز جوانب رعاية الأبناء في شتي مراحل حياتهم، بل إنه يحرص على وجود هذه الرعاية قبل إيجادهم وسنوضح خطوات الرعاية التي رتبها ﷺ للأبناء على سبيل الاختصار فيما يلي:

الواجب نحو الابن جنيناً

ففضلاً عن مراعاة الأسس الشرعية في اختيار الزوجين وهو أصل عظيم في العناية بالأبناء يوجب الإسلام على الأبوين نحو جنينهما ما يلي:

١. أن تتناول الأم الأغذية الجيدة الطيبة الحلال حتى يتكون الجنين تكوينًا سليما قويًا ويقوم بتوفير ذلك الغذاء الوالد أو ولي الأمر.

[١٢٤] خواطر إيمانية ص ٨

٢. أن لا يتعرض له أحد بسوء كالإجهاض أو تعاطي الأدوية التي تَضُرُّ به. ويوضح ﷺ حكم الدين في الإجهاض فيقول:

(في هذه المراحل الأربعة التي هي العلقة والمضغة والعظام واكتساء العظام باللحم يكون الإجهاض حرامًا وتتضاعف فيها حرمة التعرض للجنين من مرحلة لأخرى، كل مرحلة بقدرها، إلا أن الإجهاض في تلك المراحل لا يكون قتلاً، لأن القتل لا يتحقق إلا بعد أن تدخل الروح إلى الجسم، وذلك إنما يكون بعد تلك المراحل الأربعة، وقد قدر العلماء هذه المراحل بفترة زمنية قدرها أربعة أشهر قمرية من بدء حمل المرأة، وإن المرأة بعدها تحس بحركة الجنين في أحشائها.

وعند ذلك يكون الإجهاض قتلاً لإنسان وجدت فيه كل مقومات الحياة الإنسانية، وكل من أعان على عملية الإجهاض في هذه الحالة يعتبر جانيًا ومشتركًا في جريمة القتل. ولا يجوز الإجهاض بحال من الأحوال بعد ذلك إلا إذا قرر الطبيب العدل المختص أن بقاء الحمل فيه خطورة على حياة الأم، وحينئذ يكون الإجهاض أمرًا اضطراريًا ويدخل تحت القاعدة القائلة "الضرورات تبيح المحظورات"، وهي مأخوذة من قول الله عز وجل (١٧٣:البقرة):

﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ ﴾

ومع ذلك فإن من يباشر هذا العمل يستغفر الله ويعتذر إليه من هذه الضرورة التي ألجأته إلى مباشرة هذا العمل، والله شاهد ورقيب وحسيب وليس بغافل عما يعمل الناس، قال جل شأنه مشنعًا على من يأتي هذا الفعل بغير حق (٣٢:المائدة):

﴿ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾}[١٢٥]

٣. توفير الجو الصافي له في البيت، حتى لا يتأثر بالخصومات والمنازعات التي تثار في محيط الأسرة، فيصاب بالاهتزازات النفسية والأمراض العصبية، كذلك يحظى

[١٢٥] مصابيح على طريق الإيمان ج٣ ص١٨

الجنين بحب الأبوين والرغبة فيه حتى يحرصا على خلق المناخ الطيب له. ولذا يوضح ﷺ الواجب على الزوجين إذا حدث بينهما خلاف فيقول:

(وإن الحياة الأسرية لا تخلو من بعض المشاحنات والمنازعات وسوء التفاهم، وعلى الزوجين أن يتجنبا هذه الأمور أمام أولادهما صغاراً كانوا أو كباراً، حتى لا يتأثروا بهذه المواقف الصعبة، وينحاز فريق منهم للأب وآخر للأم، أو يتحيزوا جميعاً إلى واحد منهما، أو يتركوا البيت ويهربوا منه، فتسوء حالتهم وينحرفون عن الصراط السوي.

وإنه يجب على الزوج – وهو ربُّ الأسرة – إذا احتدم النزاع بينه وبين زوجته، أن يخرج من المنزل فوراً إلى أي مكان حتى تهدأ العاصفة، وإن عاد بعد ساعة أو أكثر فيعود بوجه غير الذي خرج به من البيت، حتى يعالج هذه المنازعات بروح الدين الشريف، ويغير هذا الجو المتعكر.

وإذا لم يخرج الزوج وجب على الزوجة أن تقطع دابر الشيطان وتدخل إلى حجرة من المنزل بعيدة عن مكان النزاع حتى يتغير الوضع) [توجيهات في بناء الأسرة ص٢٨و٢٩].

٤. يكون مسكن الأسرة صحياً ومناسباً لحياة الإنسان. وعن شروط هذا المسكن يقول: (يجب على الأبوين الحرص على إيجاد المسكن الصحي قبل الزواج، وليس معنى ذلك أن يكون شقة واسعة مفروشة بالرياش والأساس ونحو ذلك مما يحتفل به الناس اليوم، كلاَّ، بل المسكن الصحي حجرة واحدة بمنافعها يدخل إليها الهواء والضوء من النافذة، ومجهزة بما تيسر من المستلزمات الضرورية للأسرة)[١٢٦].

الواجب نحو المولود

[١٢٦] حقوق الإنسان في الإسلام ص ٩

إذا خرج الجنين إلى الحياة فيجب إماطة الأذى عنه ولفُّه في ملابس ملائمة له، وتسميته إسماً كريماً يعتز به إذا كبر وأدرك، ويضفي عليه بهجة وسروراً، والأذان بصوت خافت في أذنه اليمنى، وإقامة الصلاة في أذنه اليسرى، وتعويذه بالأدعية الواردة، مثل: أعيذه بالواحد من شرِّ كل حاسد، وبسورة الفلق والناس والفاتحة، وتقوم الأم بإرضاعه من لبنها).

ولأهمية الرضاعة الطبيعية للطفل تحدث ﷺ عن حكمتها، ثم بين كيفيتها.

أسرار الرضاعة

ويسوقها ﷺ أثناء شرحه لقول الله عز وجل (٢٣٣:البقرة):

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾

فبعد أن بيَّن بلاغة القرآن وإعجازه في توجيه الأمر للأم بإرضاع ولدها بنفسها – إلا أن يكون بها مرض فتقوم أخرى بإرضاعه باللبن الذي يناسبه، أو ترضعه من اللبن المعد بمعرفة الطبيب المختص – بيَّن أسرار الرضاعة فقال:

(ولا يقدر إنسان مهما أوتي من علم أن يحيط بكل هذه الحكم، وهذه الحكم حسيَّة ومعنويَّة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١. أن الأم ترضع الولد مع لبنها الرحمة والعطف، والحنان والحب، والوفاء والإخلاص، والبر والود والإحسان. ومعان كثيرة تتعلق بصفات الأم من الإيمان والشجاعة، والثبات على المبدأ، والتفاني في سبيل الحق والواجب، وحب الوطن، وغير ذلك من قول الله تعالى (٧:القصص):

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾

فالأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق

أما بعض الحِكَمِ المادية التي تكون في إرضاع الأم طفلها من لبنها فهي كثيرة جدا وقد كشف عنها الطب، فلبن الأم يتكون من الغذاء الذي نأكله وعناصر أخرى في جسم أجهزة الأم الذي يتكون الطفل منه فهو يناسب طبيعة الطفل وقدرته على الهضم والامتصاص. وكذلك يتناسب مع نمو الطفل فلبن الأم له ميزات خاصة وآثار كبيرة في نموه لا توجد في أي لبن آخر مهما كان.

تأخير الحمل أثناء الرضاعة

يجب على الأم أن لا تحمل أثناء الرضاعة لأن ولدها لم ينفصل بعد عنها، ولا ينبغي لها أن ترضعه بعد الحمل، فإن الحمل يفسد لبنها ويؤذي طفلها.

هذا ما يؤكده ﷺ عند شرحه الوافي لحديث رسول الله ﷺ: (لا تقتلوا أولادكم سرًا فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره عن فرسه)[١٢٧]، حيث يقول: (ومن هنا نجد الإسلام يفسح صدره في هذه الفترة المهمة من حياة الطفل ويوصي بل ويأمر بأن تمتنع الأم عن الحمل في هذه المدة بوسيلة أو بأخرى حتى يتم فطام الولد بعد عامين كاملين من ولادته ...

ويسترسل في شرح الحديث قائلاً:

ومعنى الحديث والله أعلم أن لا تأتوا الأمر المستتر بينكم وهو الوطأ أثناء إرضاع أولادكم فيتسبب عنه الحمل الذي يودي بحياة أولادكم وهذا توجيه كريم من رسول الله ﷺ، وتنبيه إلى أن مباشرة الزوجة أثناء رضاعها اغتيال لحق الطفل وهضم له لأن في هذا هلاك له سرًّا، أي بطريقة لا يعرفها أحدٌ إلا الخاصة من الأطباء والعلماء بسنة رسول الله

[١٢٧] رواه أحمد والسيوطي في الجامع الكبير عن أسماء بنت زيد

ﷺ، لأنه هو الطبيب الذي بعثه الله لعلاج الإنسانية، وحل مشاكل المجتمع في كل ناحية من نواحي الحياة)[١٢٨].

حكم تنظيم الإنجاب

وحرصًا على المولود وشفقة عليه، ورغبة في الحفاظ على المودة والرحمة بين الزوجين يبيح ﷺ تنظيم الإنجاب بالوسائل الطبية الحديثة فيقول:

(مع ملاحظة أن الرسول ﷺ قال: (لا تقتلوا أولادكم سرًّا)، كأن حمل المرأة أثناء إرضاعها الطفل قتلاً له، وهذا جرم يحرمه الإسلام وكل الشرائع، وفي تعبير النبي بقوله فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره عن فرسه يشير إلى عدم مباشرة الزوجة مدة الرضاعة والزوج لا يستطيع صبرًا عن زوجته مدة الحولين ولذا فقد يسر الله للزوج أمر العزل أو تعاطي العقاقير التي قد تؤخر الحمل لحين فراغ الأم من إرضاع طفلها وفطامه، وفي ذلك تيسير على الناس وعدم إيقاعهم في الحرج أو المشقة والعنت ولا يكون في ذلك قتلًا للذرية كما يدعي البعض)[١٢٩].

وعن كيفية تنظيم الإسلام للإنجاب حرصًا على حق الطفل المولود، ورعاية لصحة الأم يقول ﷺ:

(إن مدة الحمل المعتادة تسعة أشهر تضاف إلى مدة الرضاعة فتصير فترة الحمل والرضاعة ثلاثة وثلاثين شهراً، وهي فترة العناية بالإنسان الذي يستقبل الحياة على وجه الأرض، وهي أهم مراحل عمره، ولذلك بذل الإسلام جهوداً كبيرة لرعاية الطفل في هذه المرحلة. وبعد فترة الحمل والرضاعة – وهي تسعة أشهر وسنتان – لا مانع بعدها من

[١٢٨] خواطر إيمانية ص ١٥، ١٦

[١٢٩] خواطر إيمانية ص ١٦

تجدد الحمل مرة أخرى إذا لم تكن هناك عوائق – غير ما تقدم – تمنع من الحمل، وكانت ظروف الأسرة مهيأة لاستقبال حَمْلٍ آخر)[١٣٠].

اليوم السابع للمولود

يقوم والده في اليوم السابع من ميلاده بحلق شعره والتصدق بوزنه فضة أو ذهبًا إن أمكن، فإن لم يستطع يتصدق بما تيسر من النقود، ويختنه إن كان ذكرًا، ويعق عنه بذبح عنز أو شاة يطعمها الأهل والأقارب والأصدقاء والفقراء إن تيسر له ذلك وعن عادة السبوع الذي يعمله الناس الآن يقول ﷾:

(هو عادة طيبة لا بأس بها لأن أهل المولود يقدمون بعض الهدايا البسيطة لأهليهم وجيرانهم وأصحابهم فرحًا بالمولود، ولكن هذا لا يغني عن السنن والآداب التي أشرنا إليها)[١٣١].

[١٣٠] خواطر إيمانية بتصرف ص ١٨، ١٩

[١٣١] توجيهات في بناء الأسرة ص ١٢

الفصل الثاني
منهج الإسلام في تربية النشء

ويوضح ﷺ الهدي النبوي في تربية النشء، وذلك على ضوء التقسيم الذي أشار إليه الحديث النبوي الشريف: (لاعبوهم سبعًا، وأدبوهم سبعًا، وصاحبوهم سبعًا، ثم اتركوا لهم الحبل على الغارب)[١٣٢].

فيقسم مراحل تربية النشء إلى ما يلي:

١. المرحلة الأولى: الملاعبة

وفي هذه السن يحتاج الطفل إلى محاكاة الأبوين أو الرائدات بدور الحضانة، وهنا يجب أن تكون القدوة سليمة ومستقيمة وواعية ومتحركة مع الأطفال وأن يمنح كل طفل ما يناسبه من الرعاية حسب طاقاته الذهنية والصحية، وفي هذه السن يمكن اكتشاف المهارات والقدرات لدى الأطفال، ويزيد ﷺ هذا الأمر وضوحًا فيقول:

(وعلى المنزل أو دور الحضانة إحضار اللعب للأطفال، والنزول إلى مستواهم واللعب معهم، حتى يكون اللعب مهذبًا ومجديًا للأطفال. وقد كان رسول الله ﷺ يلاعب الأطفال، ويسألهم عن أدوات اللعب، ويمسح على رؤوسهم، ويحملهم ويقبلهم، ويعطيهم الحلوى، ويؤانسهم ويمازحهم. وكان إذا ركب على ظهره أحد أحفاده وهو ساجد، انتظره حتى ينزل، ثم يرفع من سجوده، ولما قيل له في ذلك؟ قال عليه السلام: (إن ابني قد ارتحلني فكرهت أن أستعجله)[١٣٣]}[١٣٤].

---

[١٣٢] رواه أبو الشيخ ابن حبان عن أنس

[١٣٣] رواه النسائي والحاكم عن عبد الله بن شداد

[١٣٤] توجيهات في بناء الأسرة ص١٤، ١٥

٢. المرحلة الثانية: التأديب

وهي من أخطر المراحل في حياة الطفل ويتم التأديب أو التعليم فيها في أيامنا هذه عن طريق المناهج الدراسية التي وضعتها وزارة التربية والتعليم وعنها يقول ﷾:

(وهي وافية بالغرض لو أحسن المربون أدائها فإنها في غاية الجودة والكمال، وتحتاج إلى القدوة الطيبة، والصادقين من الأساتذة لكي يسيروا بأبنائهم إلي الخير والمجد المنشود، ثم يقول: ومن لم يسعفه الحظ بدخول المدرسة، وذهب يتعلم حرفة أو صنعة فعلى والديه وعلى شيخ الحرفة والصنعة أن يقدموا له الزاد الكافي من الدين والأخلاق والأمانة والعفة مع تعليمه الصنعة، وهكذا فكل راع مسئول عن رعيته) [توجيهات في بناء الأسرة ص١٥].

وفي هذه المرحلة أيضًا يجب تنفيذ التوجيه النبوي الشريف الذي يقول فيه صلى الله عليه وسلم: (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها لعشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع)[١٣٥].

وعن الصلاة – فله ﷾ رأيٌ لم يسبقه أحدٌ من الفقهاء إليه – وذلك حيث يقول:

(وإنني أرى أن يصلي الصبيان خلف الرجال، ولكن يصلي معهم أولياءهم يتخللون صفوفهم حتى يحكمون حركتهم في الصلاة، ويخشى الصبيان من آبائهم فلا يلعبون ولا يتزاحمون ولا يتصايحون، ويمكن أن يصلي الصبيان بجوار الحوائط والأعمدة، حتى يحسوا بأنهم كبار فيحترمون الصلاة.

وهذا الرأي وإن كان يخالف ما عليه المسلمون من قبل، لكن هذا الزمن يختلف عن زمانهم وعلى العلماء أن يجتهدوا للمسلمين، ويروا ما هو خير لهم ويرشدونهم إليه)[١٣٦].

[١٣٥] رواه أحمد والخرايطي في مكارم الأخلاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

وأما عن التفريق في النوم فيبين حكمته فيقول: (النوم عورة من العورات التي يجب سترها ومعنى ذلك أن الإنسان في حالة النوم قد يتعرى ولا يدرى، وقد يلقي بيده أو رجله على من ينام معه ولا يحس، وقد تقع يده أو رجله على مكان عفة النائم بجواره وهو لا يشعر، لكل ذلك وغيره كان التفريق بين الأبناء في النوم أمر واجب)[١٣٧].

ثم يوضح كيفية هذا التفريق ويرى أن يتم بين الذكور والإناث بحيث يكون للذكور غرفة، وللإناث حجرة، ثم بعد ذلك يتم التفريق بين أبناء كل صنف وذلك يكون بجعل سرير لكل منهم إن أمكن، أو وضع حاجز بينهم إن كانوا على سرير واحد، أو ينامون على الأرض من غير أَسِرَّة[١٣٨].

وينبه على ولاة الأمور أن يلاحظوا في منهج التأديب أن يشمل ما أشار إليه الحديث النبوي الشريف الذي يقول: (أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب آل بيته، وتلاوة القرآن. فإن حملة القرآن في ظلِّ عرش الله، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه، مع أنبياءه وأصفياءه)[١٣٩].

ويرى ﷾ أن الأجهزة المسئولة عن تربية النشء هي: المنزل والحضانة والمدرسة والنوادي والمساجد، وتفصيل دور هذه الأجهزة مبسوط في كتابه توجيهات في بناء الأسرة.

٣. المرحلة الثالثة: المصاحبة

والمصاحبة هي المرافقة والمؤاخاة وذلك بأن يشركه في جميع الأمور المنزلية والعملية والعلمية التي تعيش فيها البيئة، ويحمله مسئوليات يقوم بها تحت الملاحظة

---

[١٣٦] توجيهات في بناء الأسرة ص ٢٠

[١٣٧] توجيهات في بناء الأسرة ص ٢١

[١٣٨] توجيهات في بناء الأسرة ص ٢١

[١٣٩] رواه الشيرازي والديلمي وان النجار في تاريخه عن علي

والاختبار، ويكلفه المهام اليسيرة والسهلة ويوجهه لكيفية الأداء والتنفيذ، ويصوب له أخطاءه، ويعطيه الفرصة بعد الفرصة لكي يتدارك ما أخطأ فيه وهكذا حتى سن الواحد والعشرين سنة، وعن هذه الفترة يقول:

(وهذه هي فترة التجربة والخطأ، والتصحيح والتمرين على حمل الأعباء، وفي نهايتها يصبح الواحد منهم قادراً على سياسة الأمور، وتدبير الشئون، ويتحملون الأمور المنوطة بهم، ونقف وراءهم نراقبهم من بعيد، كما يراقب صاحب الدابة المعلمة والمدربة كيفية تصرفها نحو مهمتها التي كلفت بها، مثل كلاب الصيد ونحوها من الطيور والسباع المتعلمة)[١٤٠].

مشكلات الأبناء مع الآباء

كثيرا ما يحدث مشكلات بين الأبناء والآباء وهي ترجع إلى الجهل بالحقوق والواجبات الشرعية، أو إلى الشدة البالغة من الآباء، أو الغرور والطيش من الأبناء ، أو لغيرها من الأسباب، وقد تناول ﷺ هذه المشكلات بالبسط والتحليل وخاصة المشكلات التى تجعل الأبناء في حيرة ربما لإحساسهم بالعجز عن إرضاء الآباء، أو لشعورهم بأنهم عاقين في نظر الآباء بلا سبب فعلوه أو جرم ارتكبوه، وسنشير إلى بعض هذه المشكلات على سبيل المثال:

١. العقوق وعدم الرضا:

فبعض الوالدين يعامل ابنه معاملة قاسية وغليظة ويهدده بعدم الرضا عنه، مع أن الأبن في غاية الاستقامة والطاعة لهما ويحاول إرضاءهما بكل ما يقدر عليه، وعن هذا يجيب ﷺ فيوضح معنى العقوق الذي يشير إليه الشرع بأنه:

[١٤٠] توجيهات في بناء الأسرة ص ١٥و١٦ بتصرف

(أما الابن الذي يحسن إلى والديه، ويعاملهما معاملة كريمة، ويطيع أمرهما ويجتهد فى إرضائهما، ويبتعد عن كل ما يحزنهما أو يغضبهما، ويتقى الله فيهما، ومع ذلك فإن أباه أو أمه غير راضين عنه، فإن ذلك من إساءة الأبوين لابنهما وعقوقهما له – وذلك أمر أيضاً حرمه الله على الوالدين.

وإن الرجل الذي ذهب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وشكا إليه عقوق ابنه فاستدعى أمير المؤمنين الابن وقال له كيف تعق أباك وأنت تعلم أن ذلك من الكبائر؟ قال له يا أمير المؤمنين إن أبى عقني قبل أن أعقه. قال وكيف ذلك؟ قال : اختار لى أما زنجية، وسماني جعرانا ولم يعلمني شيئا من القرآن فقال أمير المؤمنين للرجل: اذهب وأحسن صحبة ولدك فإنك قد عققته قبل أن يعقك)[١٤١].

أما الأب أو الأم التي تقول لابنها أنا غير راضية عنك مهما تعمل، وأنا أدعو عليك دائماً أن لا يريك الله طيّباً، وأنت ابن عاق، إلى غير ذلك من التهديد والوعيد، والابن لا يفعل شيئاً يستحق عليه ذلك فيقول في ذلك ﷺ:

{إن الله سبحانه وتعالى ليس على رغبة أحد ولا على هواه، قال تعالى (٧١:المؤمنون):

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

وإن الله لا يظلم أحداً مثقال ذرة ولا أقل، وإنه يطلع على القلوب والأعمال لا على الصور والأموال، وإن الله يجازى الوالدين على هذا القول الذي يخالف الحقيقة والواقع، لأنه يعتبر من البهتان والافتراء الذي يجب التوبة إلى الله منه، والاعتذار إلى الابن عنه، فإن لكل إنسان حقٌّ قِبل الآخرين سواء كانوا آباءاً أو أبناءاً أو غيرهم}[١٤٢].

[١٤١] توجيهات في بناء الأسرة ص٣٥، ٣٦

[١٤٢] توجيهات في بناء الأسرة ص ٣٧

وإن كان يوصي الإبن أن يقابل جفوة الأبوين بالصبر والتحمل، ومصاحبتهما بالمعروف، وإطاعة أمرهما، وإزالة هذه الجفوة بكُلِّ الوسائل حتى يرضي الله ورسوله فيهما، ويرضي بقية الأسرة.

٢. هضم الأبناء حقوقهم:

وذلك أن بعض الآباء المستبدين يكلف ابنه بالعمل معه ولا يعطيه أجراً، أو يعطيه أجراً لا يكفيه، وكذلك بعض الآباء يريد الاستئثار بمال ابنه والتصرف فيه على وفق هواه، وهؤلاء يستندون إلى الحديث النبوي الشريف الذي يقول: (أنت ومالك لأبيك)[١٤٣].

ولهؤلاء وأمثالهم يقول ﷺ:

(واجب الأب أن يعطي ابنه الذي يعمل عنده ما يكفيه ويكفي زوجته وأولاده بحسب العرف والعادة، حتى يعيش ابنه العيشة اللائقة بأمثاله من غير هضم ولا جور، وعلى الأقل يعطيه أجراً مثل زملائه الذين يعملون عنده أو عند غيره، وإنه يجب على الابن أن يُبَصِّر والده باحتياجاته هو وأولاده من النفقات، فإذا امتنع الأب عن تغطية هذه الاحتياجات، أو امتنع عن إعطاءه أجر المثل، فلا بأس إذاً من أن يترك الابن أباه ويعمل عند غيره، أو يعمل لنفسه حتى يسد حاجاته.

وعن الجانب الآخر يقول ﷺ:

(أما قول النبي ﷺ: أنت ومالك لأبيك، فإن معناه أن يأخذ الأب ما يحتاج إليه من مال ابنه ولو بدون إذنه كما لو كان يأخذ من ماله، فإنه لا حرج عليه في ذلك، وإذا أخذ الأب أو الأم من مال ابنهما أكثر من حاجتهما فإن ذلك يحتاج إلى إذن الابن

[١٤٣] أخرجه أبو يعلى عن عمر، والطبراني في الصغير عن جابر

ورضاه، فإن الله قد وضع الحدود فلا يتعداها إلا الظالمون. ونحن جميعاً مسلمون وقائمون بطاعة الله ورسوله)[١٤٤].

٣. إلغاء شخصية الابن:

هناك بعض الآباء يضغطون على أبنائهم نحو أمور معينة بحجة أنهم أعلم بمصالحهم وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بمستقبل الأولاد، وعن هذا المسلك غير الحكيم في التربية يقول ﷺ:

(ليس للأب أن يضغط على ابنه نحو أمر معين، ولكن عليه أن يفتح الأبواب أمامه ويُبَصِّرُهُ بمحاسن الأمر الذي يرجوه له حتى يكون عن رغبة واقتناع، وهذا معنى قول النبي ﷺ: (وصاحبوهم سبعًا)، يعنى اتخذ من ابنك صاحبًا تستشيره وتطرح الأمر أمامه ليفكر فيه ويقلب وجوه النظر، ويستشير نظراءه وإخوانه ويبدي رأيه صريحًا ثم يطرح الوالد رأيه أمام ابنه في هذا الموضوع أيضًا، ويدلل كل منهما على وجاهة نظرة ثم ينتهي الأمر بالأخذ بأحسن الرأيين، وبهذا يحس الإبن بمسئوليته ويشعر بمكانته في الأسرة وهكذا تسير الأمور إلى الأفضل والأحسن)[١٤٥].

[١٤٤] توجيهات في بناء الأسرة ص ٣٨

[١٤٥] توجيهات في بناء الأسرة ص ٤٣،٤٢

الفصل الثالث

عناية الإسلام بالمرأة

عني الإسلام بالمرأة عناية كبيرة حتى أنه سوَّى بينها وبين الرجل في أشياء كثيرة منها التكاليف الدينية من الاعتقادات والعبادات والأخلاق والمعاملات وسوَّى بينها وبين الرجل في الأجر والثواب في الآخرة قال الله تعالى (٩٥:آل عمران):

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾

فكانت المساواة في الأجر والثواب لأنهما تساويا في العمل وفي التكليف به من قبل الشارع الحكيم. وكذلك سوَّى الإسلام بينهما في طلب العلم وتحصيله، وفي العمل – بحيث تتولى المرأة الأعمال التي تناسب فطرتها، وفي الحقوق المدنية – كالملكية الخاصة بها، وتصرفها الكامل المطلق فيها، وفي ذلك يقول ﷺ:

(إن الإسلام منحها أهليَّة التصرف المطلق في جميع شئونها، حتى تزويجها نفسها بدون ولي. حقوق لم تحلم المرأة بها لولا الإسلام. وكذلك سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الإنسانية، فاحترم إنسانيتها كما احترم إنسانية الرجل، فهي لا تقل عن الرجل في هذا الشأن، لأنها إنسانة كاملة الأوصاف والمعاني كالرجل تماما في ذلك)[١٤٦].

ولذا وجدنا الشيخ ﷺ يولي عناية كبيرة لقضايا المرأة، ويقف فيها موقف المدافع عن حقوق المرأة التي أوجبها لها الإسلام، وحاول بعض المتعصبين سلبها منها، ونرى ذلك واضحاً في تصديه للقول الذي تردده الألسن – على أنه حديث شريف، ويتعللون به لإنقاص قدر المرأة وهو: النساءُ ناقصاتٌ عقلٌ ودِين – فيقول في ذلك ﷺ:

[١٤٦] حقوق الإنسان في الإسلام ص ٤٦

(أعتقد أنه ليس حديثا عن رسول الله ﷺ، وأن رسول الله لم يقل هذا الحديث، لأنه يتنافى مع أدب النبوة الكريم في مخاطبة الناس وإرشادهم)[١٤٧].

ويرى أن هذا القول لأحد العلماء المتقدمين، ويقدم له العذر في قوله هذا، لأنه رأى من نقص المرأة عقلاً أن شهادتها على النصف من شهادة الرجل في الحقوق المالية، وأما النقص من ناحية الدين فلأنه رأي أن الصلاة تسقط من على المرأة في حالات حيضها ونفاسها وولادتها. غير أنه يرد على هاتين الحجتين قائلاً:

(قد ذكر الله العلة في ذلك، وهي أن المرأة قد تنسى بعض ما شهدته أو سمعته، فتقوم الأخرى باستكمال الشهادة على وجهها وذكر ما نسيته الأولى، وحالة النسيان وعدم الاستيعاب هذه من طبيعة المرأة وذلك من انشغالها بولدها أو بحملها أو بمن معها من الأهل والمتاع، وإن الله سبحانه لا يكلف نَفْساً إلا طاقتها، فطاقة المرأة في هذا المجال على النصف من الرجل، فلم يكن عيباً فيها ولا نقصاً، وقد قال ﷺ: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[١٤٨].

ولكن الله عزَّ وجلَّ أراد أن يحيط حقوق الناس وديونهم بسياج قوي جداً، وأن يحصنه بحصن منيع من التوثيق والتأكيد، فأقام المرأتين مقام الرجل في هذه الشهادة)[١٤٩].

وأما عن النقص من ناحية الصلاة فيقول:

(وهذه الأمور من التَّحريم والوجوب إنما تستجيب المرأة فيها لأمر الله، فهو الذي حرَّم عليها الصلاة فى هذه الأحوال، وهو الذي أمرها بالصلاة في غيرها. فالذي يلتزم بأمر الله في الفعل والترك لا يكون ناقصاً وإنما يكون قائماً بأمر الله غير متبرم به).

وينتهي بعد ذلك إلى هذه النتيجة:

---

[١٤٧] مصابيح على طريق الإيمان ج ٣ ص٦٠

[١٤٨] رواه ابن ماجة عن ابن عباس

[١٤٩] مصابيح على طريق الإيمان ج٣ ص٦١

(وعلى ذلك فليست المرأة ناقصة في تكوينها، ولا ناقصة في تكليف الله لها، ولا ناقصة في عملها، مادامت قد التزمت بأداء ما أمرها الله به وانتهت عما نهاها الله عنه)[١٥٠].

ويرى ﷺ عدم مجابهة النساء بهذه الأقوال – حتى وإن كانت وردت – لأنها تهبط بالمرأة، وتَفُتُّ في عضدها، وتجعلها تحقد على الرجل الذي يلصق بها تهمة النقص. ويوجه الدعاة إلى الأسلوب الأمثل في هذا الأمر فيقول:

(ويجب على الأئمة والدعاة إلى الله أن يوضحوا ذلك وينشروه، خاصة في الأوساط النسائية، حتى تقف المرأة على كرامتها ومكانتها)[١٥١].

وبعد أن يسوق الأمثلة الكثيرة لفضليات النساء وأَثَرِهُنْ ينبّه إلى صحة الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ في هذا الشأن، وهو قوله ﷺ: (يا معشر النساء: تصدقن وأكثرن من الاستغفار، فإني رأيتُكن أكثر أهل النار، تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصاتِ عقلٍ ودِينٍ أغلب لذي لبٍّ منكن. قيل: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟ قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، وتمكث الليالي ما تصلي، وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين)[١٥٢].

ويبين أن هذا الحديث خاص بطائفة معينة من النساء يقول فيهن:

(وإذا أمعنا النظر في الحديث وجدناه في جملته موجه للنساء اللاتي يكثرن اللعن ويكفرن العشير، ويتغلبن على الرجال ويسلبن عقولهم، بسبب ما يصنعن بأنفسهن من

[١٥٠] مصابيح على طريق الإيمان ج٣ ص٦٢

[١٥١] مصابيح على طريق الإيما ج٣ ص٦٣

[١٥٢] رواه مسلم عن ابن عمر، وأحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة

التجمل والتزين والتبرج أمام الرجال، بما يؤثر على ذوي الألباب منهم– فضلاً عن عامة الناس.

وهذا العمل لا يكون إلا من النساء المخالفات لأمر الله ورسوله، والخارجات على أحكام الإسلام الحنيف، ولذلك يأمرهن رسول الله ﷺ، بالاستغفار، وهو التوبة من هذه الأفعال الذميمة، والأعمال القبيحة، والصفات المشينة، التي لا تليق بأي مسلمة من المسلمات، وأمرهن بالإكثار من الصدقة لتكفر عنهن هذه السيئات)[١٥٣].

وبهذا البيان قد زال اللبس الذي يكتنف بعض العقول في فهم معنى هذا الحديث الشريف، الذي يعتبر قاعدة هامة من قواعد الإسلام، لأنه ينبني عليه أحكام وآداب كثيرة تتعلق بالتربية والسلوك للرجل المسلم والمرأة المسلمة.

وبعد أن يفيض ﷺ في الحديث عن منزلة المرأة في الإسلام، يعالج بنزاهة بالغة، ودقة علمية رائعة، الأمور التي تختلف المرأة فيها عن الرجل، وهي: القوامة، والشهادة، والميراث، والطلاق، والإنفاق. وقد تحدثنا عن الشهادة فيما سبق وسنوجز الحديث عن بقية النقاط فيما يلي:

١. قوامة الرجل على المرأة:

إدعى بعض ذوي النفوس المريضة، من هواة الغمز واللمز على الإسلام، أن جعل الإسلام القوامة في الأسرة للرجل على المرأة نوع من الاستبداد والتسلط، فردَّ عليهم الشيخ ﷺ قائلا:

[١٥٣] مصابيح على طريق الإيمان ج٣ ص٦٦

(وليست قوامة الرجل على المرأة نوعاً من الاستبداد والتسلط، وإنما هو نوع من التعاون الذي زادت فيه أعباء الرجل، لقوة شخصيته وقيامه بتحقيق العدالة بين أفراد الأسرة، وتقويم العوج فيها، بالرفق واللين والحسنى من غير صلف ولا عجرفة)[١٥٤].

وهو يرجع أسباب إعطاء الإسلام القوامة للرجل إلى أمرين:

أولهما: أن الله فضَّل الرجل على المرأة لقوة التحمل في إدارة الشئون، وصبره في المعاملة مع الناس، وسعة أفقه في الخبرة والتجربة، لأن طبيعته تقتضي ذلك، وقد أناط الله به الكدح والمغامرة والتصدي للأحداث التي لا تقدر المرأة على مواجهتها.

ثانيهما: أن الله فرض على الرجل التكسب للأسرة، والإنفاق عليها، والسهر على مصلحتها، والضرب في الأرض طولاً وعرضاً من أجل ذلك.

وفي ذلك يقول ﷺ:

(فالرجل يمتاز بهذه المعاني، وهي من مرشحات القيادة والقوامة، وهي أيضاً عاطفة الأبوة وفطرتها، في حين أن المرأة تمتاز بعاطفة الأمومة، والحمل والولادة والرضاع، فكلٌّ له طاقاته وقدراته التي ميَّزه الله بها، ليتم نظام الكون وتسير قافلة الحياة على أكرم مثال وضعه الله تبارك وتعالى).

ثم يضيف قائلا:

(والنقص إنما يكون في الخروج على الفطرة والنظام الذي وضعه الله في طبيعة كل من الرجل والمرأة، لأن الله خلقها أنثى وجعل لها مميزات لم تكن للرجل، كما أنه سبحانه جعل في الرجل مميزات لم تكن في المرأة)[١٥٥].

[١٥٤] حقوق الإنسان في الإسلام ص٣٦ ، ٣٧

[١٥٥] مصابيح على طريق الإيمان ج٣ ص ٥٢ ، ٥٣ – بتصرف

٢. الإنفاق:

وهو القيام بكل متطلبات الأسرة من الطعام والشراب واللباس والسكن والتعليم والعلاج وغير ذلك من المستلزمات التي تحتاجها الزوجة وأولادها، وقد فرض الله عز وجل كل هذه النفقات على الرجل، ولم يفرض على المرأة شيئًا منها بل أعفاها منها رحمة بها وشفقة عليها، وجعل لها القيام بتدبير المنزل ورعاية أبناءها وزوجها ويظهر ذلك في قول الله عزَّ وجلّ (٢٣٣:البقرة):

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ ﴾

٣. الميراث:

تَشَدَّقَ بعض المغرضين بأن الإسلام هَضَمَ المرأة حقَّها، وجعل لها نصف الرجل في الميراث، ونسوا أو تناسوا أنَّ المرأة قبل الإسلام كانت لا ترث مطلقاً بل كانت هي نفسها متاع يرثها الأبناء والأحفاد. وجاء الإسلام فرفع قدرها، وأعطاها الحقوق المقررة للرجل، فلم يفرق بينهما إلا في الميراث وبعض أمور أخرى.

هذا فضلاً عن أن الأديان والملل والنحل الأخرى لا تعطي المرأة شيئاً، قليلاً أو كثيراً، بل إن مَنْ يتشدقون بحقوق الإنسان من الغربيين يسلخونها من أسرتها، وينسبونها لأسرة الزوج!!! وإلى هؤلاء جميعاً يقول الشيخ ﷺ:

(وقد ورَّث الإسلامُ المرأة، وجعل لها نصف الرجل في الميراث، وذلك لأن المرأة لها حقوق مالية أكثر من الرجل، فقد أعفاها من النفقة على نفسها بجميع أنواعها من الطعام والشراب، واللباس والسكن، والركوب والتمريض. وجعل لها حقًّا في عنق وليِّها

قبل الزواج وفي عنق زوجها بعده، ولها كذلك حقُّ المهر، وحقُّ المتعة إن طُلِّقَتْ، وليس عليها أي نفقات إلا إذا تطوَّعَتْ بشيء لبعلها أو أبناءها أو والديها.

والمرأة بذلك تكون قد أخذت من الإسلام هذه الحقوق – من ميراث وخلافه – بدون أن يطلب الإسلام منها شيئاً، إلا ما كان حقًّا لله في مالها، كالزكاة والكفارات والفدية ونحوها.

ولما كان الرجل هو الذي يتحمل عن المرأة أعباءها فقد ضاعف الله له حق الميراث، قال الله تعالى (١١:النساء):

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ }[١٥٦].

٤. الطلاق:

ويحلو لبعض المتغربين أن يردد أن الإسلام أهدر حقَّ المرأة في الحرية والكرامة بجعله الطلاق في يد الرجل فقط، وإلى هؤلاء يقول ﷺ:

(وقد جعله الله للرجل دون المرأة، لأن العصمة بيده، بحكم أنه هو الذي يطلب الزواج، ويسعى فيه ويتحمل تكاليفه، فكان حريصاً عليه أكثر من المرأة، وكذلك هو القيِّمُ على الأسرة والمدبِّر لشئونها، وله نظرٌ بعيد وبصرٌ نافذ في معالجة المشاكل التي تعترضها، بخلاف المرأة التي كثيراً ما تنقاد وراء العواطف والدموع.

وإن طريق الزواج ممتد علي مدى الحياة، وإن القلاقل والهزَّات فيه كثيرة، وإن الرجل له قدرة على احتوائها أكثر من المرأة بحكم فطرته وطبيعته التي خلقه الله عليها. من أجل ذلك وغيره جعل الله حقَّ الطلاق للرجل؛ وقد جعله للمرأة في أضيق الحدود، وذلك إذا اشترطت في العقد أن تكون العصمة بيدها وقَبِلَ الرجل هذا الشرط)[١٥٧].

[١٥٦] حقوق الإنسان في الإسلام ص ٣٥

[١٥٧] حقوق الإنسان في الإسلام ص ٤٦

هذا وقد أحاط الإسلام الرابطة الزوجية بحصون منيعة تحميها من الزعزعة والانهيار، فأعلم الزوج أن الطلاق أمرٌ يبغضه الله عزَّ وجلَّ بغضاً شديداً، وأعلمه أنه لا يجوز أن يطلق زوجته أثناء حيضها، وكذلك لا يجوز أن يطلقها في طُهْرٍ جامعها فيه، وأيضاً لا يصحُّ طلاقه أثناء غضبه وخروجه عن صوابه، بحيث لا يعقل الأمور ولا يدريها أثناء غضبه، وكذلك لا يقع الطلاق المعلَّق على فعل شيء أو تركه، وكذلك لا يقع الطلاق الذي أُرغم عليه، أو الطلاق الذي أراد به التهديد والتخويف ولم يرد به الطلاق، وقد شرعه الله للضرورة القصوى التي لا خلاص منها إلا بالطلاق.

ومن أَجْلِ ذلك كان الطلاق بيد الرجل الذي يُقَدِّر هذه المواقف، ويحسب لها ألف حساب، قبل الإقدام على الطلاق الذي يهدم بيت الزوجية ويشتت الأسرة، ومع ذلك قررَّ الإسلام للمرأة حق طلب الطلاق من زوجها وذلك لأسباب ذكرها ﷺ هي:

أولاً: إعساره وعدم قدرته على الإنفاق عليها.

ثانياً: عجزه عن أداء العملية الجنسية.

ثالثاً: ضربها وأذيتها إيذاءاً شديداً لا يليق بكرامة الإنسان.

رابعاً: الغياب عنها لمدة سنة.

خامساً: التزوج بثانية لأنها أضيرت بذلك ما دام الزواج لغير علة بها أو سبب منها.

في كل هذه الحالات لها الحقُّ أن تطلب طلاقها منه، والقاضي يطلقها منه إن امتنع هو عن تطليقها)[١٥٨].

[١٥٨] حقوق الإنسان في الإسلام ص ٢٥

وهكذا نجد الإسلام قد أباح الطلاق وأعطاه للرجل، وأخذ عليه تعهدات وتحفظات كثيرة، فلا يقدم عليه إلا مضطرًا، وأباحه للمرأة في أضيق الحدود، فهذا هو الحلال الذي لا يتناول منه أحدٌ شيئاً غير المضطرين إليه.

٥. قضية النشوز

ولأهمية هذا الموضوع – لكونه مرضاً عضالاً يجب علاجه – ولأخذ البعض على الوسائل الإسلامية لعلاجه، واتهامها بالعنف والقسوة، عالج ﷺ هذا الموضوع من جميع جوانبه، وذلك بناء على الآية الكريمة (٣٤:النساء):

﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ ﴾

فيعرف النشوز بأنه:

(عدم امتثال الأمر والتمرد عليه، مع أن هذا الأمر في مصلحة الحياة الزوجية وليس خارجاً عن طاقة الزوجة)[١٥٩].

ويذكر أمثلة للشذوذ أو النشوز لتوضيحه منها:

١. أن يطلب زوجها أن تفعل شيئاً معيناً، فتمتنع وتصرُّ على موقفها.

٢. أن يأمرها زوجها بترك شيء فتعاند وتفعله.

٣. أن يتكلم زوجها في موضوع ما، فترفع صوتها عليه، وتتشاجر معه بدون داع.

[١٥٩] مصابيح على طريق الإيمان ج٣ ص٥٦

٤. أن يطلبها زوجها للفراش فلا تستجيب له، أو أن يستأمنها على ماله ومتاعه فتبدده.

٥. أن تتدخل في شئون تَجُرُّ عليها وعلى زوجها الشقاء والتعب.

٦. أن تُحْدِثَ النزاع والمشاكل بين الجيران والأقارب باستمرار.

٧. أن تضرب أولادها ضرباً شديداً بغير ذنب، وأن لا تستجيب لنُصْحٍ أو توجيه}[١٦٠].

وطرق العلاج التي أشارت إليها الآية الكريمة كما يلي:

أن يقوم الرجل بتذكيرها ووعظها باللين والرحمة، وأن يوضّح لها ما كان بينهما من حُبٍّ ومودة ووفاء، ويبيّن لها مغبَّة هذا العمل وعاقبته في الدنيا والآخرة، ويذكّرها بحقوق الرجل على المرأة كما بينها الإسلام، ويترك لها فرصة تفكر وتتروى فيما قاله لها.

فإن استقامت بعد ذلك فَبِهَا ونعمت، وإن استمرت على ما كانت عليه من التلاعب فيهجرها في الفراش – يعني ترك مجامعتها ولا يأتي معها حالة الجنس، ولا يكلمها إلاَّ لضرورة، ويُعْرِضُ عنها – فإن أتى ذلك بفائدة ورجعت إلى صوابها فلا بأس، وإن أبت فيضربها ضرباً غير مبرح – فقد تكون المرأة في هذه الحالة كالطفل الذي يخوّفه أبوه بالضرب ليحمله على الطاعة – ويكرر ذلك مرة كل ثلاثة أيام، وهذا مع الهجران والوعظ.

ويمكن علاجها بأمور أخرى منها الترغيب بأن يشتري لها كذا وكذا، وأن يعطيها كذا وكذا، ومنها الترهيب بأن يمنع عنها ما تحبُّه وتشتهيه .. وهكذا، فلعل ذلك يغيِّر من سلوكها. فإن أطعنكم فلا تعتدوا عليهن ولا تظلموهن، ولا تسيئوا لهن ولا تمنعوهن من خيركم وبِرِّكم، ولا تبخلوا عليهن بما يطلبن من المتع والزينة التي أحلَّها الله لهنَّ.

[١٦٠] توجيهات في بناء الأسرة ص٤٣

وهكذا نجد أن القرآن الكريم قد وضع الأمور في غاية من الدقة والإحكام، فقد وضع الله عزَّ وجلَّ هذا العلاج وقائياً من حالات النشوز التي قد تحصل من بعض الزوجات.

أما اللواتي يرضين بحكم الله ورسوله، ويجتهدن في مرضاة أزواجهن ويحرصن على ذلك، فقد وصفهن القرآن بأعظم الأوصاف، وأثنى عليهم ثناءاً عاطراً كريماً، هزَّ أعطافهن، وهيَّج مشاعرهن نحو المسارعة في الاستجابة له سبحانه، والالتزام بآدابه وأحكامه، والعمل على إرضاءه عزَّ وجلَّ وإرضاء رسوله ﷺ، فقال عز وجل:

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾

(٣٤:النساء)

وهكذا نجده ﷺ يذكر كل شيء يتعلق بالمرأة سواء من ناحية تربيتها أو حقوقها، أو زواجها أو طلاقها أو عملها، أو حملها ورضاعها، حتى تفصيل ملابسها وتصميم الأزياء لها. وذلك لبيان مدى الأهمية التي أولاها الإسلام لها والتي جمعها الحكيم في قوله:

الأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعْدَدْتَهَا أَعْدَدْتَ شَعَباً طَيِّبَ الأَعْرَاقِ

****

الباب الثامن

نهجه في التربية الروحية

أولا: المرشد الرباني

ضرورة التعرف على المرشد

صفات المرشد ـ نورانية المرشد وشفافيته

ثانيا: الأدب مع المرشد

نموذج قويم لأدب المريد مع شيخه ـ الغاية من الأدب مع المرشد

من أدب السالكين ـ مِنَنْ العارفين.

ثالثا: الأدب مع الإخوان

واجب الأخ نحو أخيه ـ الزيارة في الله ورسوله

آداب زيارة الإخوان في الله

رابعا: الوصول إلى الله

اليقظة ـ جهاد النفس ـ التجمل بمكارم الأخلاق

الاستقامة ـ حقيقة الوصول إلى الله

خامسا: مقامات القرب

جهاد المقربين ـ نعيم أهل القرب ـ وصية للإخوان

وهذا الباب هو زبدة هذه الأبواب كلها، لأنه الباب الذي ظهرت فيه طاقاته الروحانية، وإشراقاته النورانية، وعلومه الوهبية، وليس من الإنصاف أن نأتي على هذا الموضوع في باب واحد، وقد كان يحتاج إلى كتاب مفرد. كما أنه ليس من العدل أن نتحدث عن الشيخ وهو من كبار أرباب التربية الروحية الصافية في هذا العصر دون أن نشير إلى شيء من نهجه في التربية الروحية، لذلك اضطررنا إلى الحديث عن هذا الموضوع باقتضاب شديد على أن نعود إليه بالتفصيل في كتاب آخر إن شاء الله، حتى لا يخرج الكتاب عن حيزه وحجمه الذي أردناه له.

وسنركز في عجالة سريعة على الأصول التي يجب أن يتمسك بها السالك، ويعيش في نور أحوالها، ويتكمل بجميل نعوتها حتى يصل إلى رضوان الله عزَّ وجلَّ الأكبر، ويدخل في ميادين فضله الأزلية، ويرتع في موائد كرمه النورانية، ويتقلب في أبواب فتحه الذاتية. وهى كما يلي:

أولا: المرشد الربَّاني

وهو الرَّجُلُ العَالِمُ العَامِل الذي وهبه الله النُّورَ الكاشف للظلمات والشبهات، ومنحه الفقه في دين الله، وتأويل المتشابهات، وفكَّ رموز الخفيَّات، من آيات القرآن وحديث رسول الله ﷺ.

وهو الفَرْدُ الذي تتنزل عليه الفيوضات والإلهامات من العلوم الوهبية اللدنية، زيادة على ما حصَّله من العلوم الكسبية والاجتهادية.

وهو العَبْدُ الذي آتاه الله رحمةً في قلبه بعباد الله، حتى قام ببذل كل ما لديه لإخراج الناس من الظلمات إلى النُّور، ويبيّن لهم معالم الدين الحنيف، ويجدِّد آثار السنَّة المطهَّرة، ويعِيدُ إلى الأذهان ما خَفِيَ من هدي الأئمة، وما اندرس من آداب وأحوال وسلوك السلف الصالح ﷺ.

ضرورة التعرف على المرشد

المرشد الكامل أمل المؤمن وبغيته، وطلب المحسن ومقصده، لأن صحبته تؤثر على نفسه تأثيراً مباشراً وعميقاً، وتجعل المؤمن يتشبه به في سيره وسلوكه، وأخلاقه وآدابه. وتأثير الصحبة على النفوس أمر لا يستطيع أحد أن يتجاهله، قال ﷺ: (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[١٦١].

ولذا نجده ﷺ يبين أهمية المرشد وشدة الحاجة إليه فيقول:

(كان طلب المرشد واجباً على المؤمن، لأنه يَحْمِلُ المِسْكَ وهو العلم الذي يؤثر على النفوس، ويجد المؤمن رائحته في نفسه فَيَهُشُّ له قلبه ويَبُشّ، ويشتاق المؤمن إلى الجمالات والكمالات الحقيقية من معاني الدين الشريف، وهي الأمور التي يتجدد بها الإيمان، من الحُبِّ في الله والبغض في الله، والثقة بالله، والتوكل على الله، والتفويض لله، والصبر والرضى، والزهد والورع، والإيثار والبرِّ والإحسان، والعفو والمسامحة، والصلة والمودة، والمروءة والنجدة والشجاعة، والبعد عن محارم الله، وعن كل ما يكرهه الله ورسوله، ظاهراً وباطناً، حتى يكون عبدًا قائمًا لله عزَّ وجلَّ بما يحبه ويرضاه، في كل وقت من أوقاته، بل في كل نفس من أنفاسه.

وهذا لا يكون إلا بصحبة العارف بالله، الخبير بأمراض النفوس وكيفية علاجها، لأنه يستخرج الشفاء من كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ).

ويقول أيضًا: (..... والمرشد مطلوب من أجل الترقي في المقامات، والرفعة إلى أعلى الدرجات، لأن المقامات غيبٌ خفيّ، والمرشد ينزل بالسالك فيها على قدر قواه الروحانية من غير إرهاق ولا إجحاف)[١٦٢].

---

[١٦١] رواه أبو داود

[١٦٢] مصابيح على طريق الإيمان ج٣ ص ٧٤، ٧٥

فالمؤمن الطالب للوصول إلى رضوان الله الأكبر، ومعية رسوله ﷺ، يجب عليه أن يلازم المرشد بقدر استطاعته، حتى يعيش في دائرة الحياة الحقيقية التي دعانا الله عزَّ وجلَّ إليها بقوله (٢٤:الأنفال):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

فإن انتقل المرشد إلى الحياة البرزخية، صاحب المريد أشبه الناس به في أقواله وأعماله، وأخلاقه وآدابه وسيرته، حتى لا يُحْرَمُ المؤمن من صحبة المرشد في صورة من صوره القريبة منه في المعاني والحقائق.

ويُجمل ﷺ كل ما سبق الإشارة إليه فيقول:

(من هذا العرض السريع ينكشف لنا ضرورة التعرف على المرشد الكامل، ومجاهدة النفس في صحبته، وإن كان معنا وبيننا العلماء الحافظون لأحكام الشريعة، والمفتون لنا في مشكلاتنا، إلا أن المرشد يكشف لنا عن أسرار هذه الأحكام وحكمتها، ويعرف أمراض النفوس وكيفية علاجها، ولأن حاله يشرق على النفوس فيزكيها، وعلى القلوب فيطهرها، وعلى الأرواح فيرقيها، وعلى الجوارح فتقشعر من خشية الله، وتلين إلى طاعة الله ورسوله، وإن الحكمة العالية تتراءى لنا من خلال أحاديثه، تهدي العقول والأفكار إلى سواء السبيل)[١٦٣].

صفات المرشد

وللمرشد صفات كثيرة يتعرف بها عليه، أشار إليها الله عزَّ وجلَّ في قوله (٦٥:الكهف):

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

[١٦٣] مصابيح على طريق الإيمان ج٣ ص٨١

فقد كشف الله عن صفات هذا الرجل بهذه الآية الكريمة، وهي تقص علينا من أخبار سيدنا موسى وفتاه عليهما السلام، وهما يبحثان عن العبد الذي يطلبه سيدنا موسى ليتعلم منه ما لم يكن يعلم. وقد كان سيدنا الخضر مثلاً لهذا الرجل الذي يُجَدِّدُ الله به معالم الدين، وسنَّة سيد المرسلين في كل عصر من الأعصار، حتى تقوم الساعة.

وأبرز الصفات التي يتحلى بها، والتي يمكن الإشارة إليها بناءاً على استعراض كتبه ﷺ ما يلي:

١. هو رَجُلٌ يبيّن للناس كلام الله عزَّ وجلّ، وحديث رسوله ﷺ، بما يناسب عقولهم، مع الرحمة بهم، وذلك بالحكمة الرشيدة، والبصيرة النافذة، قال الله تعالى (١٠٨:يوسف):

﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾

٢. هو رَجُلٌ بَلَغَ في كمال اتباعه لسيدنا رسول الله ﷺ مقاماً، لا يقدر معه أن يلتفت عن رسول الله طرفة عين ولا أقل، ولا أن يخالفه في أي شيء مهما كان صغيرًا.

٣. هو عَبْدٌ من عباد الله المخصوصين لذاته، والمفردين لحضرته جلَّ شأنه، وقد آتاه الله رحمةً من عنده تسع الناس في عصره، فهو يُعطي كُلَّ واحد منهم نصيبه من هذه الرحمة التي وهبها الله له.

٤. هو رَجُلٌ علَّمه الله علماً من لدنه سبحانه وتعالى. وهذا العلم ينفع الله به الناس في زمانه لأنه علمٌ قريبُ العهد بالله، قد أُكْرِمَ به من حضرة اللدنية الإلهية مباشرة بدون واسطة، وهي حضرة القرب الأقرب من الله عزَّ وجلّ. وهذا العلم تقوم به الحُجَّة على المعاندين والمجادلين، وتتَّضِح به الطريقة والمَحَجَّة للمؤمنين والمسترشدين.

٥. هو رَجُلٌ وَرِثَ عن رسول الله ﷺ علوم الشريعة، وعلوم الطريقة، وعلوم الحقيقة.

٦. هو رَجُلٌ جعله الله خبيراً بمعاني تجلّيات الحقّ تبارك وتعالى، وعليمًا بأسراره وغيبوبه القدسية، وجعله الله حفيظًا على هذه الأسرار والغيوب، فلا يبيح منها شيئًا إلاَّ لأهلها، بقدر طاقتهم وحسب حاجتهم، قال الله تعالى (٥٩:الفرقان):

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴾

٧. هو رَجُلٌ قَلْبُهُ مع الله ورسوله دائماً أبداً، وإن كان جسمه مشغولاً بالأعمال الكونية، أو بهداية الناس إلى الله، فهو مع الحَقِّ بسرِّه، ومع الخَلْقِ بجسمه.

٨. وهو رَجُلٌ قائمٌ لله بالحقّ لا يتزحزح عنه قدر أُنْمُلة، وإن خالفه الناس أجمعون، ولو اجتمعوا على أن يغيروا من موقفه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٩. هو رَجُلٌ أذلَّ نَفْسَهُ للمؤمنين والمؤمنات، وأعزَّها على أهل الكفر أجمعين، فلم يقدروا على إذلاله وإهانته.

١٠. هو رَجُلٌ يرجع الناس إلى أمره جميعاً عند اختلافهم حول مُحدثات الأمور، من المشاكل التي لم يجدوا لها حلاً في كتاب الله ولا في سنَّة رسوله ﷺ، ولا في أقوال الأئمة المجتهدين، لأنه أعلم أهل زمانه بدين الله، سرَّ قول الله تعالى (٨٣:النساء):

﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾

لأن الله أقامه مقام رسول الله ﷺ، وألهمه الحكمة والصواب وفصل الخطاب.

١١. وهو رَجُلٌ فات المقامات، وتخطى المنازل بالنسبة للناس جميعًا في عصره، فلم يفته سابق منهم، ولم يدركه لاحق منهم، والله أعلى مقامه فوقهم جميعاً، وأخفاه عنهم فإنهم يرونه مثلهم، ولكنه عند الله عظيم.

١٢. وهو رَجُلٌ واحدٌ في الأمة، وله أبدالٌ كثيرون يبلِّغون الناس ما علَّمه الله له، وما ألهمه به، من الفقه في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ، مما يحتاجه أهل عصره في حل مشاكلهم، وتزكية نفوسهم، قال الإمام علي ﷺ: (اللهم لا تُخْلِ الأرض من قائم لك بحُجَّة، إما ظاهراً مشهوراً وإما باطناً مستوراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته). وقال سيدنا رسول الله ﷺ: (إن الله يبعث على رأس كل مائة عام لهذه الأمة من يجدد لها دينها)[١٦٤].

وعن هذا الرجل يقول ﷺ:

(هذا الرجل هو بُغية كل مؤمن، ومَقْصِدُ كل محسن، وأَمَلُ كل فَرْدٍ من أهل الصفاء والإخلاص، وإن الكل يبحث عنه ويسعى في طلبه، اقتداء بسيدنا موسى عليه السلام وعملا بأمر رسول الله ﷺ في حديثه الشريف الذي يقول فيه: (اطلبوا العلم ولو بالصين)[١٦٥].

والعلم الذي أمرنا رسول الله ﷺ بطلبه إنما يكون عند العالم العامل، وعند الفرد الكامل، وهو علم الإيمان، وعلم تزكية النفوس، وعلم الوصول إلى الله عزَّ وجلّ. وقال ﷺ أيضًا: (استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا)[١٦٦]. والعاقل هو الذي يعقل عن الله عزَّ وجلَّ آياته، ويعقل عن رسول الله ﷺ وصاياه وإرشاداته)[١٦٧].

---

[١٦٤] رواه أبو داود عن أبي هريرة

[١٦٥] رواه ابن عدي والبيهقي من حديث أنس

[١٦٦] رواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة

[١٦٧] قطرات من بحار المعرفة ص ١٣٢

نوارنية المرشد وشفافيته

هذا وقد لمسنا هذه الصفات بل وأكثر منها في هذا الرَّجُلِ الذي أكرمنا الله به ﷻ، فقد كان هو المثال العملي لقول ابن مسعود ﷺ: (لا تزالون بخير ما إن وُجد في صدر أحدكم شيءٌ وجد مَنْ يخبره عنه).

فقد كنا نذهب إليه وصدورنا جياشة بأفكار خاصة نريد عرضها عليه، أو أسئلة معينة نود معرفة إجاباتها، أو مشكلة خاصة تثير همومنا، فما أن نجلس إليه ويبدأ في حديث معتاد!! حتى نجده يتولى الحديث عن أفكارنا، أو الإجابة على أسئلتنا، أو يتعرض بالتوضيح لمشكلاتنا، وذلك قبل أن تتحرك شفاهنا بهذه الأشياء، وذلك من باب: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[١٦٨].

بل الأكثر من ذلك أنه كان يُشعرنا أثناء توجيهه لنا أنه مطلع على كل أحوالنا ببصيرته النورانية، وشفافيته الروحانية. فعندما كنت أطالع كتب القوم وتواجهني معضلة ويتصادف أن نحضر معه لقاء بعدها، إذا به يستعرض المشكلة في درسه، ويناقشها بإسهاب وبتبسيط يثير الإعجاب. وإذا كان الرأي الذي اطلعتُ عليه غَيْرُ وافٍ بالمراد، يبادرني بمناقشته، مع إضافة ما يراه مناسباً لإتمامه.

ومن ذلك أني كن أطالع كتاب (كَشْفُ الغُمَّة) للإمام الشعراني، وفي باب: (الإمامة في الصلاة) منه، قرأت أن الزبير بن العوام وطلحة الخير بن عبيد الله عندما دخلا الكوفة، وصلَّيا خلف أئمتها، قالا لهم: ما أحسن صلاتكم!! إلا أنكم تخالفون النبي ﷺ في أمرين هما: أن أئمتكم لا يلتفتون إلى اليمين بعد انتهاء الصلاة، وتنصرفون من المسجد قبل انصراف أئمتكم، وقد كان ﷺ إذا سلَّم من الصلاة التَفَتَ إلى يمينه، ووجَّه وَجْهَهُ للمصلين خلفه، وكُنَّا لا ننصرف من المسجد إلاَّ إذا انصرف ﷺ.

[١٦٨] رواه الترمذي عن أنس

فلما ذهبت إليه إذا به يقول لي: هل قرأت شيئاً عن التفات الإمام بعد السلام؟ قلت: نعم. وذكرت له ما سبق، فقال ﷺ مكملاً الحُكْمَ الشرعيّ: رأى الإمام مالك أن هذا في غير مسجد رسول الله ﷺ، أما بمسجده صلوات الله وسلامه عليه فيَلْتَفِتُ الإمامُ إلى يساره، حتى لا يواجه الحضرة المحمدية بظهره.

ومن ذلك أنه عندما أمرني بالإرشاد، وكنت أتوجه بأمره إلى الجهات المختلفة للقيام بوعظ أهلها وإرشادهم، كان يتولى بعد عودتي وفي درسه تصحيح بعض المفاهيم التي ذكرتُها، ويعيد توضيحها بما يلائم العصر مع اليُسر. فقد كنت أنقل عن السابقين آراءهم وأستشهد بها في دروسي، وربما لا أفطن أنها لا تلائم العصر، أو أنها تشدِّد على الناس.

فكان يقول لي مُنَبِّهاً – وهو في الدرس العام حتى لا يفطن إلى ذلك أحد – بعض الناس يقول في هذا الموضوع كذا، والصواب الذي يجب أن نقوله للناس هو كذا، ويذكر الأسباب. ومثال ذلك موضوع (الموت)، فقد كنت أركز في حديثي عنه عن شدَّته ورهبته – كدأب السابقين – حتى سمعته يقول:

(يذكر الناسُ الموتَ ويذكرون ما فيه من شدَّة ورهبة، ولا يفرّقُون في شأنه بين المؤمنين وغير المؤمنين، وما قالوه حقٌّ وواقعٌ ولكن بالنسبة للكافرين والمشركين والجاحدين، أما بالنسبة للمؤمنين فالأمر يتغيَّر، فهو بالنسبة لهم فرحٌ بلقاء الله، وسرورٌ بتكريم الله. وجعل يذكر من ضروب التكريم، وألوان النعيم التي يتلقاها المؤمن عند موته، ما جعل الحاضرين يُحِبُّونَ الموت ويتمنونه)[١٦٩].

ومما أثار دهشة كثيرٍ من الإخوان، أنِّي كنتُ برفقته ﷺ في بلدة الرزيقات قبلي – مركز أرمنت محافظة قنا، وقد توجَّه لزيارة بعض المرضى، وذهبت أنا والإخوان للمسجد،

[١٦٩] ذكر الشيخ موضوع الموت بإسهاب في كتاب (قطرات من بحار المعرفة) ص٨٤ وما بعدها

وحان وقت الظهر فصلينا الظهر ثم طلب بعض الإخوان مني درساً، فتحدثت معهم شارحاً لحكمة من حكم الإمام أبي العزائم ﷺ تقول:

الورثة أربعة:

١. ورثة الأقوال: وهم حملة الشريعة الأمناء الممنوحين الفهم.

٢. ورثة الأعمال: وهم العباد الورعون.

٣. ورثة الأحوال: وهم أهل المواجيد الصادقة المحدثين.

٤. الوارث الفرد الجامع.

وقد شرحت لهم حسب ما تيسر الثلاثة الأولى، وهممت بشرح الرابعة، وإذا بأخٍ يدخل علينا ويقول: أجيبوا الشيخ، فقد أرسل يدعوكم، فقمنا وذهبنا إلى حيث يجلس الشيخ، ولما أخذ كُلٌّ مِنَّا موقعه من المجلس، بدأ ﷺ الحديث قائلاً:

الورثة أربعة: وذكرهم على سبيل السرد، ثم أخذ يشرح الوارث الرابع، أي من حيث انتهيتُ أنا، فكان مما قاله ﷺ:

(الوارث الفرد الجامع: وهو مشكاة المكانة المحمدية، وشجرة زيتون المثل الأعلى للمكانة الأحمدية، القائم بالقيوم، الذي استظهر القرآن من لدن، ورتَّله محادثة مع ربِّه بعد تلاوته، لأنه الفرد القرآنيّ وهو الذي أفرده الله بالإيتاء (٨٧:الحجر):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾

وعظمةُ القرآن حقيقةٌ ثابتة، ولكن قول الله: (العظيم) هنا، إشارة إلى إقبال القلوب على الفرد القائم إقبالاً به يكون القرآن عظيمًا في نفوسهم بعد غفلة القلوب، ولكل وارث أصحاب، وإنما الرضوان الأكبر لأهل الفرد الوارث الجامع، لأنهم أهل الذكر الأكبر، وذلك لأنهم استغرقوا في ذكر الله في كل شأن، بعد أن أتقنوا الوضوء،

وصلوا الركعتين لله، قال ﷺ: (من توضأ فأحسن الوضوء، وصلى ركعتين لم تحدثه نفسه فيهما بشيء، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه).

والوضوء طهارة الجوارح السبع حسًّا ومعنى، وهو المشار إليه بقوله ﷺ: (فأحسن)، والصلاة تحقيق وتعيين والمرتبتين لحصول المواجهة حال الركوع والسجود، فتكون كلُّ جارحة ذاكرةً لله بحسب أفقها المبيّن لها.

وأصحاب الفرد الجامع بين مستحضر أو حاضر. فبدايتهم المراقبة من حيث الصحبة، فتراهم يدعون إلى الله في بدايتهم كما يدعو غيرهم في نهايته، وهم في أنفسهم في بداية المجاهدة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وهم صفوة الله من عباده، وخيرته من كل قرن.

أما الفرد القرآني فالكبريت الأحمر، اشتاق إليه وإلى أصحابه رسول الله ﷺ، وناهيك بهذا الفخر، وما مضي قرن من القرون بعد الصحابة إلاَّ وكلُّ مستقيم يحِنُّ إليه ويتمنى رؤيته).

فأتى بكلام أدهش الحاضرين. والأمر في هذا يطول لو تحدثنا بكل ما لمسناه وشهدناه، فما بالك لو ذكرنا ما حدث بينه وبين الصادقين من الإخوان؟!!

إن هذا لا شك يحتاج إلى مجلدات، ولكننا نكتفي بهذا القدر رغبة في الإيجاز، هذا فضلاً عن أنه ﷺ كان لا يُحِبُّ الحديث في مثل هذه الأمور، ويتبرم منها، ويركز كلَّ حديثه عن العلم ومناقشة المسائل العلمية النافعة للإنسان في دنياه وآخرته.

هذا ولم يقم ﷺ بالدعوة إلى الله عزَّ وجلّ، إلا بعد أن رأى رسول الله ﷺ في المنام وقال له: (إنا أقمناك لدعوة الخلق إلى الله عزَّ وجلَّ في هذا الزمان)، فقام امتثالا للأمر.

ثانيا: الأدب مع المرشد

أدب المريدين مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الأدب حتى قالوا في ذلك: (الزم الأدب وإلا فانتظر العطب)، وقال الإمام أبو العزائم ﷺ: (حافظ على الأدب ولو رُقيت إلى أعلى الرتب).

وللقوم في ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وذلك في قول الله عز وجل (١:الحجرات):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

ولأهمية هذا الباب نجد أن أئمة الصوفية قد استوفوا هذا الباب شرحًا وتحيلاً، وقد جمع معظم هذه المعاني السهروردي ﷺ في كتابه النفيس (عوارف المعارف) وتلخيص هذه الآداب كما يلي:

١. أن يكون المريد مع الشيخ مسلوب الاختيار، لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره، وإذا كان معه في أمر جامع لا يذهب حتى يستأذن منه.

٢. ينبغي أن يلزم السكوت ولا يقول شيئًا بحضرته من كلام حسن، إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة في ذلك، وشأن المريد في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقاً يساق إليه.

٣. ينبغي أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ، على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان من حضرة الشيخ بل يبادئه بما يريد، لأن الشيخ يكون مُسْتَنْطِقاً نُطْقَهُ بِالحَقِّ، وهو عند حضور الصادقين يرفع قلبه إلى الله ويستمطر ويستسقى لهم.

٤. أحسن أدب المريد مع الشيخ السكوت والخمود والجمود، حتى يبادئه الشيخ بما له فيه من الصلاح قولاً وفعلاً.

٥. ينبغي للمريد أن لا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ.

٦. لا ينبسط المريد بين يدي الشيخ برفع الصوت، وكثرة الضحك، وكثرة الكلام، إلا إذا بسطه الشيخ.

٧. ينبغي للمريد أنه كلَّما أُشكل عليه شيء من حال الشيخ، يَذْكُرُ قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى، وإذا أخبره الخضر بسرِّها يرجع موسى عن إنكاره. فما ينكره المريد لقلَّة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ، فللشيخ في كلِّ شيء عذرٌ بلسان العلم والحكمة.

٨. ومن الأدب: ألا يكتم على الشيخ شيئاً من حاله، ومواهب الحقِّ عنده، وما يظهر له من كرامة وإجابة، ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه، وما يستحى من كشفه يذكره إيماءاً وتعريضاً.

٩. ومن الأدب: أن لا يدخل في صحبة الشيخ إلاَّ بعد علمه بأن الشيخ قَيِّمٌ بتأديبه وتهذيبه، وأنه أَقْوَمُ بالتأديب من غيره.

١٠. ومن الأدب: أن يراعى خطرات الشيخ في جزئيات الأمور وكلياتها، ولا يستحقر كراهية الشيخ ليسير حركاته معتمداً على حُسْنِ خُلُقِ الشيخ وكمال حِلْمِهِ ومُدَارَاتِه.

١١. ومن أدب المريد مع الشيخ: أن لا يستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ، فإن الشيخ علْمُهُ أوسع، وبَابُهُ – المفتوح إلى الله – أكبر.

١٢. ومن الأدب مع الشيخ: أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شيء من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ، والهجوم عليه، حتى يتبيَّن له من حال الشيخ أنه مستعد له، ولسماع كلامه وقوله متفرغ[١٧٠].

نموذج قويم لأدب المريد مع شيخه

وكمثال لهذا الأدب السامي نسوق ما ذكره الإمام القشيري ﷺ عن حاله مع شيخه أبي على الدقاق ﷺ حيث يقول:

(لم أدخل على الأستاذ أبي علي . رحمه الله . في وقت بدايتي إلا صائمًا، وكنت أغتسل قبله، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرَّة فأرجع من الباب احتشاماً من أن أدخل عليه، فإذا تجاسرت مرَّة ودخلت، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبني شبه خدر، حتى لو غُرز فيَّ إبرة مثلاً لعلِّي كنتُ لا أحسُّ بها. ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لي لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة، فكلما كنت أجلس كان يبتدئ بشرح واقعتي، وغير مرة رأيتُ منه هذا عياناً.

وكنت أفكر في نفسي كثيراً أنه لو بعث الله عزَّ وجلَّ في وقتي رسولاً إلى الخلق، هل يمكنني أن أزيد في حشمته على قلبي فوق ما كان منه رحمه الله تعالى؟ فكان لا يتصور لي أن ذلك ممكن، ولا أذكر أني في طول اختلافي إلى مجلسه ثم كوني معه بعد حصول الوصلة أن جرى في قلبي أو خطر ببالي عليه قطٌّ اعتراض إلى أن خرج رحمه الله تعالى من الدنيا).

الغاية من الأدب مع المرشد

[١٧٠] بتصرف من كتاب عوارف المعارف (للسهروردي) الباب الحادي والخمسون (في آداب المريد مع الشيخ) ص٤٠٣

وهكذا نجد الأئمة ﷺ يركزون على هذا الباب من الأدب، ويجعلون عليه المعول في رقي المريدين وحصول الفتح لهم، لذا نجده ﷺ يذكر حال المريدين مع أشياخهم بأسلوبه الفذِّ الجذاب، فيقول – تحت عنوان (حال أهل الصفا مع أئمتهم):

(إنهم كانوا يرون في أئمتهم الأسوة والقدوة التي يجب عليهم إتباعها، ويرون فيهم الكمال الذي يجب عليهم أن يسارعوا إليه وأن يلحقوا به، ويشهدون فيهم النور الذي يهتدون به، ويعتقدون فيهم الخير الذي يُؤمِّلونه، وينشدون فيهم التقوى والصلاح الذي يرجونه، ويؤمنون بأنهم ورثة رسول الله ﷺ، ويلحظون بأن أولئك الأئمة يتلقون من الله الحكمة وفصل الخطاب، ويتناولون من يمين رسول الله ﷺ رحيق الشراب.

فأحبوهم حُبًّا أكثر من حُبِّهم للوالدين والأقربين، بل أكثر من حُبِّهم لأنفسهم، وأجلُّوهم واحترموهم وأنزلوهم من أنفسهم منزلة الوالد الشفوق العطوف الرحيم، ويبذلون لهم من مَالِهم ما يَسُدُّ حاجتهم، ويذكِّرونهم إذا نَسُوا، ويعتقدون عدم عصمتهم من الذنوب والعيب، ويؤمنون بأنهم أفضل منهم عند الله، وأقرب منهم إلى الله ورسوله، ويقفون منهم موقف سيدنا موسى من الخضر عليهما السلام.

ويتبعونه فيما يعرفونه من أمور الدين، ويسألونه عما لا يعلمون، ويسألونه عن حكمة ما يعملون، ويسألونه عن كيفية تزكية أنفسهم، ويسألونه أن يلحظهم بعيون سرِّه، ويسألونه أن يدعو الله لهم في سرِّه وعلنه، ويسألونه أن يرضى عنهم بقلبه، ويسألونه عن رقيق المعارف وجليل المعاني، ليرتقوا في معارج القرب، ويسعدوا في منازل الحُبّ.

حتى إذا ما أَنِسَ منهم الإمام الرشاد، وقدرتهم على تحمل أعباء دعوة الخَلْقِ إلى الحقّ أذن لهم في تذكير عباد الله، وبثَّ رُوحَ الإيمان في قلوبهم، وتبصيرهم بأمور دينهم، ثم يتخذهم لنفسه رفاقاً يتعاونون معه على البِرِّ والتَّقوى، ويتناهون معه عن الفحشاء

والمنكر، ويدعون الناس معه إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، مع الاحتفاظ له بمكانته وحرمته)[١٧١].

ولله در القائل:

أُقَدِّمُ أستَاذِي عَلَى حَقِّ وَالِدِي

وَإِنْ كَانَ لِي مِنْ وَالِدِي النَّسَبُ وَالشَّرَف

فَذَاكَ مُرَبِّي الرُّوحَ وَالرَّوحُ جَوْهَرٌ

وَهَذا مُرَبِّي الجِسْمَ، وَهُوَ لَهَا صَدَف

من أدب السالكين

ومما مَنَّ الله عزَّ وجلَّ عليَّ به، أني كلَّما خطر لي خاطرٌ في قلبي أسارع إلى تنفيذه، من غير أن أكون قد اطلعت عليه في كتب القوم، ثم تمر الأيام وإذا بي أجد هذا الخاطر مسجلاً في كتب القوم في بابه الذي ألهمني الله به، فأفرح بفضل الله عليَّ وعنايته بي، وأذكر في هذا الباب أني طلبت من أخي وشيخي الشيخ أحمد حسن غرباوي ﷾ أن يذكر لي بعض الآداب التي ينبغي أن أقوم بها للشيخ ﷾ فقال لي: الأدب ذوقي وما يلهمك الله به فامتثله.

ومن ذلك أني كنت كلما أردت التوجه لزيارة الشيخ ﷾ قمت بإزالة الشعر الزائد في جسمي كشعر العانة وتحت الإبط، وأنا أبتهل إلى الله أن يزيل عني أخلاقي السيئة، وصفاتي الرديئة، وأقلِّم أظافري وأنا أدعو الله يقلِّم مطامعي وأهوائي، ثم أغتسل راجيًا الله

[١٧١] قطرات من بحار المعرفة ص ١٢٦،١٢٧

عزَّ وجلَّ أن يغسل ظاهري من الخطايا والذنوب وباطني من الغفلة، ثم بعد ذلك أسافر إلى الشيخ وأنا أردد قول الإمام أبي العزائم ﷺ:

إِلَى مَنْ هِجْرَتِي وَلِمَنْ حَنِينِي إِلَى مَرْأى أَلَسْتُ ثَمَا جُنُونِي

بِتَجْرِيدِي إِلَيْهِ أَفِرُّ شَوْقاً لِتَرْأى وَجْهَهُ عَلَناً عُيُونِي

وأستحضر ذنوبي وأوزاري وأثقالي أمامي، وكيف ألقاه بها؟ أو أدخل عليه وأنا متلطخ بها؟ وعندما أقترب من روضته يعتريني الخوف والوجل، وأردِّد قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

(٦٤:النساء)

وأتوجَّه إلى الله عزَّ وجلَّ قائلاً: ((اللهم إني ظلمت نفسي، وجئت وارث رسولك تائباً، فبجاهه عندك اغفر لي)).

وكم من مرة عندما كان ﷺ يسكن ههيا – محافظة الشرقية، أتوجَّه إلى زيارته فأركب الحافلة من طنطا إلى الزقازيق، ثم أتوجه إلى مسجد سيدي أبي خليل ﷺ وأؤدي الصلاة، وأرجع إلى نفس الحافلة لأعود أدراجي إلى بلدي، وإن كان تصادف أكثر من مرة أن يسألني الشيخ عن ذلك، ثم يُعْلِمُنِي أنه كان مسافراً لمكان بعيد في ذلك اليوم، ولا تسمح له الظروف بالعودة إلى البيت في نفس اليوم.

مِنَنُ العارفين

وقد أكرمني الله عزَّ وجلَّ ببركة نظره إليَّ ورضاه عني بما لا عدَّ له، ولا حدَّ له، من فضل الله وكرم الله، مع أني لا أستحق شيئاً من ذلك لغفلتي وأوزاري.

فمن ذلك أن صوتي كان أجش، وتصادف أن زرته يوماً، فقال أثناء حديثه: إن الإمام أبا العزائم كان إذا قال لأحد المريدين: (خذ الصوت عني)، يقوم هذا المريد من أمامه وقد حلاَّه الله بصوته، ثم طلب مني إنشاد قصيدة للإمام أبي العزائم ﷺ فأخذت في الإنشاد، وإذا بي أجد صوتي يشبه صوته ﷺ، ثم رجعت إلى المنزل، فكلما أخذت في قراءة القرآن، أو في ختم الصلاة، أو في الإنشاد، أشعر بأنه ﷺ هو الذي يتلو وينشد وأنا مستمع، وإن كان الناطق لساني، فعلمتُ أن ما يحدث من فتح للمريدين إنما هو ببركة الأشياخ وجميل نظرهم.

ومن ذلك أيضًا أني كنت في صحبته ﷺ بزفتي محافظة الغربية وكان هناك مريض يشكو له حاله، فنظر إليَّ وقال لي: هل تحفظ أدعية الرقيَّة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقلت: نعم، فقال: ضع يدك على مكان الألم منه وارقيه، فاستحيت فقال: لابد، ثم قال: ضع يدك ونحن نضع أيدينا معك، وقل ونحن نردد بعدك، فلما وجدت إصراره رنَّ في أذني قول الإمام أبو العزائم ﷺ: (طاعة الأمر خير من الأدب)، فامتثلت الأمر، وعلمت بعد ذلك أنه كان إذن منه ﷺ لي بذلك، ومنذ ذلك اليوم ببركته ﷺ، جعل الله في هذه اليد وفي هذا الدعاء سرَّ الشفاء.

وهكذا تحققنا أن الفتح والفضل من الله يأتي للمريدين ببركة أدبهم مع أشياخهم، وبسرِّ رضاء أشياخهم.

فاللهم ارزقنا رضا أشياخنا عنا، ولا تكدر خاطرهم علينا، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، فإنك أهل الفضل وأهل المغفرة. وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثالثا: الأدب مع الإخوان

أمرنا الله بالتعارف، والتعارف يؤدي إلى التآلف والترابط، وهو بدوره يؤدي إلى التعاون في مجالات الدنيا والآخرة أو في أي منهما، حتى تتم عمارة الدنيا على نسق من هذا النظام البديع المبني على اعتراف الناس ببعضهم، وعدم التناكر والتجهم والتعاند

والتدابر والتقاطع والشقاق، وهذا المبدأ هو من أهم ضروريات الحياة الملحة، حتى تستقر الأوضاع بين القبائل والأمم والشعوب، وتسير الحياة فيما بينهم على الاحترام المتبادل والثقة والطمأنينة، ولولا ذلك لأصبحت الحياة نوعا من حياة الوحوش الضارية التي يأكل القويُّ فيها الضعيف، ويحتال الضعيفُ للمكر بالقويّ، وهكذا يتربص الناس بعضهم ببعض، وتفسد الدنيا، وتستحيل الحياة فيها.

وإن أكرم الخلق عند الله يتعارفون مع الناس من أجل الدنيا والآخرة، لا من أجل المصالح والمنافع الدنيوية فقط، ومن أجل الله ورسوله، لا من أجل أهواءهم وحظوظهم وشهواتهم، ومن أجل التراحم والتناصح والتوادد، لا من أجل التعرف على المسالب والأخطاء والمعايب، ومن أجل مداراتهم والسَّتْرِ عليهم، لا من أجل التشهير بهم والتنديد بأحوالهم.

وتآخي المؤمنين في الله ضرورة لينهض بعضهم بأحوال بعض، ويعين بعضهم بعضاً على البرّ والتقوى، والمعروف والإحسان. وفي ذلك يقول ﷺ:

(فقد طلب سيدنا موسى عليه السلام من الله عز وجل أن يجعل له وزيرًا من أهله، يعني معينًا يؤازره ويساعده ويعينه وحدد في طلبه هذا سيدنا هارون عليه السلام، فقال الله عز وجل مبينًا ذلك (٢٩-٣٢:طه):

﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي. هَٰرُونَ أَخِي. ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي. وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾

وكانت العلة الباعثة على هذا الطلب، والضرورة القاضية به، والحكمة منه (٣٣ - ٣٥:طه):

﴿ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا . وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا . إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾

وذلك لأن الذكر الكثير، والتسبيح الكثير، والعبادة المستمرة، تحتاج إلى معين ورفيق ملازم للإنسان، ومباشر له بصفة مستمرة، من أجل استدامة الذكر والشكر والتسبيح، واستمرار الطاعة والعبادة، بخلاف الأعمال الأخرى من دعوة فرعون وقومه

إلى الله، فإنها كانت تأخذ دوراً بعد دور، ووقتاً بعد وقت، كلما سمحت الظروف بذلك، وكلما نزلت أوامر جديدة وآيات أخرى يحتاج سيدنا موسى إلى هارون في إبلاغها إلى فرعون وقومه. فكانت أعمال الذكر والتسبيح أكبر بكثير من مهمة إبلاغ الدعوة إلى فرعون وقومه، ومن هنا كانت حاجة سيدنا موسى إلى سيدنا هارون في هذه الناحية أكثر وأعظم)[١٧٢].

واجب الأخ نحو أخيه

إن من أوجب الواجبات على الأخ نحو أخيه زيارته في الله ورسوله، وتوثيق الروابط بينهم، وتجديد المحبَّة والمودَّة، والتعاون على البرِّ والتَّقوى، والاطمئنان على الأخ، والوقوف على أخباره وأحواله، ومد يد العون له إن كان في حاجة، والتسرية عنه إن كان في مُلِمَّة، ومشاركته فرحته إن كان في مسرَّة، وتزويده بما معه من علم ومعرفة، والأخذ عنه إن كان لديه مزيداً من الهدى والحكمة.

ويضرب لنا ﷺ مثلاً فذًّا في معاملة أهل الصفا لإخوانهم بمعاملة الأنصار لإخوانهم المهاجرين، حيث يقول في ذلك:

(فإن المهاجرين لما نزلوا إلى المدينة لَقِيَهُم الأنصارُ بهذه الأريحية النادرة، والأخلاق العالية، فصارت دِيناً يَدِينُ به المسلمون لربِّهم، وقِيَماً تأسَّستْ عليها مبادئ الإيمان، في أبهى صوره وأكرم معالمه.

ولقد كانت هذه الموازين يَزِنُ بها أهلُ الصفا أحوالهم فهم (٩:الحشر):

[١٧٢] من كتاب مصابيح على طريق الإيمان ج٢ ص ٢١

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾

يعني يحبُّون مّنْ زارهم، وقَدِمَ إليهم من المؤمنين، وإنَّ الحُبَّ عمل من أعمال القلوب يشتمل على السرور بالزائر والفرح بقدومه، والبشاشة في وجهه والترحيب به، وبذل ما في الوسع لإكرامه، وإنزاله منزلة الأهل والولد بل وأكثر.

ثم يقول ﷺ:

.... بل إن قلوب أهل الصفا تتمنى لإخوانهم كُلَّ خير، وتحبُّ لهم كل سعادة، ويعملون على تحقيق ذلك لهم بشتى الوسائل عملاً بقول سيدنا رسول الله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره لأخيه ما يكره لنفسه)[١٧٣].

وقد تجاوزوا المدى في هذا الخلق الكريم فتراهم (٩:الحشر):

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

بمعنى: أنهم يتنازلون عن حاجتهم الضرورية لإخوانهم، ويؤثرونهم بها على أنفسهم، ويعطونها لهم، وهم في أمس الحاجة إليها، وذلك بِنَفْسٍ راضية، ولم يحملهم على ذلك إلا حبُّهم لإخوانهم والمسارعة في إكرامهم وبرّهم)[١٧٤].

الزيارة في الله ورسوله

وهي عمل من أعمال المؤمنين الصادقين، وجهاد من مجاهدات السائحين المرتاضين، فكما أن لله ملائكة سواحين يطلبون مجالس الذكر والعلم والقرآن، فكذلك في المؤمنين رجال سائحون يطلبون الحكمة والمعرفة والبيان، وينشدون مجالس الذكر والعلم والتبيان عند إخوانهم المؤمنين الذين أكرمهم الله بهذه الطرائف والمنن، وتلك اللطائف والعوارف والمنح وفي ذلك يقول ﷺ:

[١٧٣] رواه البخارى

[١٧٤] قطرات من بحار المعرفة ص ١٢٦،١٢٥

(والمؤمن يطلب بذلك تزكية نفسه، وترقية وجدانه، وإعلاء همته، والمزيد من فضل الله ورحمته، وإثراء الحياة الروحية والدينية في نفسه وفي إخوانه الذين يزورهم، وتجديدًا لسنة الإسلام وروحه تطبيقًا للحديث الشريف الذي يقول: (نظر الرجل إلى أخيه المسلم حُبًّا له وشوقًا إليه، خيرٌ من اعتكاف سَنَةٍ في مسجدي هذا)[١٧٥]}[١٧٦].

والأحاديث التي تحث على التزاور في الله تعالى كثيرة جداً، منها قوله صلى الله عليه وسلم للصحابي أبي رزين: (ألا أدلك على ملاك هذا الأمر الذي تصيب به خير الدنيا والآخرة، عليك بمجالسة أهل الذكر، وإذا خلوت فَحَرِّكْ لسانك ما استطعت بذكر الله، وأَحْبِبْ في الله وابغض في الله. يا أبا رزين هل شعرت أن الرجل إذا خرج من بيته زائرًا أخاه شيعه سبعون ألف ملك، كلهم يصلُّون عليه ويقولون: ربَّنا إنه وصل فيك فَصِلْهُ، فإن استطعت أن تعمل جسدك في ذلك فافعل)[١٧٧].

ولهذا قطع السالف الصالح القفار والمفاوز، سعيًا وراء هذه المنن والعطايا الإلهية التي أكرم الله بها المتزاورين في الله. فهم يرون في إخوانهم أسماء الجمال الرباني، من البَرِّ والسلام، والمعطي والمتفضل، والمحسن والكريم، والمؤمن والودود، وقد تحلوا بها في أنفسهم فيأتنسون بها فيهم، ويفرحون بها فيهم، ويحبونها فيهم، ويقبلون عليها فيهم.

وكذلك يرون فيهم أخلاق سيدنا رسول الله ﷺ؛ من الحلم والعلم، والحكمة والرحمة، والشجاعة والإيثار، والجود والزهد، والورع والتقوى، والخشية والإنابة، والرضى واليقين، والتواضع والصدق، والمجاهدة والعفو، واللين والصبر، وغير ذلك من أخلاقه ﷺ.

وهنالك يتحقق الزائر لأخيه بأنه يزور الله سبحانه ورسوله ﷺ، سرَّ قوله عليه الصلاة والسلام: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله)[١٧٨].

---

[١٧٥] رواه ابن لال عن ابن عمر

[١٧٦] مصابيح على طريق الإيمان ج٢ ص١٦

[١٧٧] رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن أبي رزين

[١٧٨] متفق عليه من حديث ابن عمر

آداب زيارة الإخوان في الله

ولأن الزيارة في الله عبادة من أجَّل العبادات، يتنافس فيها الصادقون، ويرغب فيها المخلصون، بيَّن رضي الله تعالى عنه الآداب التي يجب أن يتحلى بها الأخ عند زيارته لأخيه. ونجملها فيما يلي:

١. رعاية حرمات الأخ وحرمات أهله ومنزله، وإدخال السرور عليهم جميعًا بالتحلي بمكارم الأخلاق، والتجمل بصادق الأحوال، والبشاشة في وجوههم، والتلطف في الحديث إليهم، مع غضِّ البصر والاستحياء في مجالستهم.

٢. يشكر الله ويشكرهم على ما يقدمونه إليه، ويستكثره ولو كان شيئًا يسيرًا، ويستطيبه ولو كان لا يوافق طبعه ومزاجه، لأنه خرج لله ورسوله لا من أجل طعام وشراب.

٣. يعفُّ نفسه عن حاجاتهم ومتاعهم فلا يتطلع إليها، ولا يطمع في شيء منها.

٤. يفرغ قلبه من جميع الشواغل الكونية، لأنه جاء لأخيه من أجل الله ورسوله.

٥. يجاهد مع أخيه في تحصيل العلم النافع والعمل الرافع، وتجديد الأحوال العلية وتنشيط الهمم والعزائم، حتى يُفيد ويستفيد منه في هذه الزيارة بأعظم الأرباح وأعلى المكاسب.

٦. يلاحظ أثناء زيارته لأخيه، ألا يؤخر له عملاً، ولا يعطل له شُغلاً، لأنه ذهب إليه ليعينه على شئون أهله وأولاده وعمله.

٧. ألا يطيل أمد الزيارة، ويحرص على بقاء أثر طيب له عند أهل البيت جميعاً، حتى يخرج من عندهم وهم مشتاقون إليه، ويتمنون عودته إليهم.

٨. إذا لم يجد أخاه في بيته أثناء زيارته له، يحرص على عدم دخول المنزل إذا لم يكن فيه إلا زوجته أو بناته أو إخوته البنات وحدهم، أو معهم أطفال صغار لا يعرفون شيئًا، ولكن إذا كان معهم والده أو والدته أو أولاده الذكور الكبار، فلا مانع من الدخول وانتظاره، وكذا إذا حضر أحد أقاربه أو إخوانه بالبلدة أو جيرانه، فإن لم يتيسر ذلك ينتظره بالمسجد أو أي مكان عام ويكون ذلك بلباقة وحسن تصرف.

٩. أن يحرص على الوفاء بالوعد لأخيه وإنجاز ما طلبه منه، إذا تأخر لعذر فعليه أن يتصل بأخيه بأي كيفية ويبلغه اعتذاره.

١٠. أن يستر ما يراه من عورات أخيه، ولا يبديها لغيره، وإن تحتم عليه إخباره بها فليكن ذلك بلطف وفي رفق ولين، ويكون سرًّا بينه وبين أخيه.

وهكذا بيَّن ﷺ الآداب التي يجب التحلي بها في زيارة الإخوان بيانًا شافيًا حفظًا على القلوب من الفتن، وعملًا بآداب الشريعة في هذه الناحية، لأنها حصن الأمان، وحرصًا على الناس من قالة السوء؛ لأن المؤمن ليس معصومًا مهما زَكَتْ نفسه.

والشرع عصمة سالك يهدي إلى رضوان رب العالمين

رابعا: الوصول إلى الله

الوصول هو بلوغ الغاية والمقصد الذي يطلبه الإنسان. ولما كانت المقاصد متنوعة:

فقد تكون حسية: كالظفر بنيل الأغراض والمطامع، والشهوات والحظوظ، والوظيفة والسلطان، والرياسة وغيرها، من الأمور المادية.

وقد تكون معنوية: كالعلم والشهرة، والجاه والمنزلة بين الناس، وغير ذلك.

وقد تكون المقاصد دينية وروحانية: كرضاء الله ورحمته ومغفرته، والعلم بالله وبأيامه، وبأحكامه وبحكمة أحكامه، وغير ذلك من الحكمة العلية، وكشف الغيب المصون، ورفع الحجب عن النفس حتى تستكمل النفس معارفها الربانية.

بيَّن ﷺ المقصد الأعظم للمؤمنين حتى لا يلتفتوا عنه إلى غيره فقال:

(وإن بغية أهل الصفا وقصدهم، هو معية سيدنا رسول الله ﷺ في الدنيا، ومجاورته والأنس به في الحياة البرزخية وفي الدار الآخرة، وهذا مقصدٌ رفيعٌ جداً، ومطلبٌ مجيد، لا يبلغه إلاَّ أهل الصفا، الذين صفت سرائرهم لله، وأخلصت قلوبهم لوجه الله، وتزكت نفوسهم بالمسارعة إلى مرضاة الله)[١٧٩].

وتحديد الوجهة هو الأساس الأول الذي ينبني عليه سلوك المريد، ويترتب عليه فتحه، ولذا قال الإمام أبو العزائم ﷺ: (من لم يتمرن على التفريد في بدايته، لم يصل إلى كمال التوحيد في نهايته).

فالدنيا بغية الغافلين، والآخرة مطلب أهل اليمين، ووجه الله عزَّ وجلَّ طلبة المقربين والمحسنين. ولما كان الحديث في هذا الباب مع المقربين، بيَّن ﷺ أنواعهم، حتى لا يظنَّن ظان أن هناك خلاف بينهم، لأن مقصدهم واحد، وإن تباينت أعمالهم وأحوالهم، فذلك لتعدد مشاربهم وأذواقهم، وفي ذلك يقول:

(فتراهم بين راكع وساجد، وبين ذاكر وشاكر، وبين فاكر وحاضر، وبين مجاهد ومسارع، وبين خائف وراجٍ، وبين باكٍ وشاك، وبين مشتاقٍ وأواه، وبين عاشقٍ وفان، وبين مُقبلٍ على الله بالكلية وفارٍ إليه من الشواغل الكونية. وهكذا يتقلبون في الأحوال آناً بعد آن، ويسعدون بالوصال حالاً بعد حال، بعد مشاهدتهم لمعاني الكمال، وأنوار الجمال). وفيهم يقول قائلهم ﷺ:

[١٧٩] قطرات من بحار المعرفة ص١٢٣

فروا إلى الله من دنيا وآخرة لم تلههم عنه أعلام الكرامات

وكذلك ورد فيهم قول العارف بالله ﷺ:

لله قومٌ إذا حلوا بمَنْزِلَةٍ حلَّ الهنا ويسيرُ الجُودُ إن ساروا

هم سادتي أينما حلَّ الدليلُ بهم وأينما يَمَّمُوا قلبي لهم دار

تحيا بهم كل أرض ينزلون بها كأنهم لبقاع الأرض أمطار

وتنظر العين منهم منظراً حسناً كأنهم لعيون الناس أقمار

وذلك لصفاء خواطرهم من الأمراض الخفية وطهارة قلوبهم من الأكدار الدنيوية وإقبال أرواحهم وأجسامهم على رب البرية فطابت حياتهم في الدنيا، وسعدوا بالعيشة الهنية في الدار الآخرة)[١٨٠].

وقد بيَّن ﷺ حقيقة الوصول ومراتبه، ومشاهده، والمجاهدات الفادحة المؤدية إليه، وذلك في كتابه (أنوار التحقيق في وصول أهل الطريق) والذي بناه على شرح هذه العبارة الرائعة من كتاب معارج المقربين للإمام أبي العزائم ﷺ:

(الوصول: وجدان باعث الوله إلى التخلق بأخلاق الربوبية، بعظيم المجاهدة في التَّخَلِّي عن الفِطَرِ والأخلاق الحيوانية والإبليسية، مع اللذة بالآلام والطرب عند فوات ما يلائم تلك القوى، مما حرصت على نيله، وبذله عند نواله فرحاً بمفارقته، مسروراً بما استعاضه عنه، حتى تنمو المشابهة، وتتم الفطرة على ألفة ما ينافره، والرغبة فيما يؤلمه، مع وجدان الباعث على طلبه، والداعي له، من توفر الشهوة، ووجود القدرة على تنجيز ما يلائم، ولو كان ضرورياً.

[١٨٠] قطرات من بحار المعرفة ص ١٢٣، ١٢٤

فيكون مع الرغبة فيه راغباً عنه، ومع الاحتياج إليه غنيًّا عنه، وبهذا يكون قائماً بمعاني القرآن بالمشاهة، محفوظاً بالمجاهدة، وهو وصول السالكين، فيكون جهادهم التحفظ بسور الحفظ عن تعدى حدود المكانة لا حدود الأحكام، لأنهم محفوظون من تعدى حدود الأحكام بنص قوله تعالى (٤٢:الحجر):

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾

وهو بداية للمقربين الذين كوشفوا بتلك المعاني في أنفسهم وفى السموات والأرض، أشرقت أنوار لطائف سريرتهم على الجوارح العاملة، فسلبت ظلال الوهم وأفياء الهوى والحظ، فجهادهم عن مشاهدة التوحيد بالتوحيد، فهم بعيون السريرة غرقوا فى عين الوحدة، وبأبصارهم شهدوا سرَّ الحكمة، وبينهما برزخٌ لا يبغيان.

فلا عباب مشاهد التوحيد يبغى على برزخ الحكمة، فيفنى حقيقة العبودة، ولا مكفوف موج الحكمة يبغى على مسجور القدرة، فيحجب أنوار التحقيق، وهو الجهاد الأكبر لأنه فى ذات الله تعالى، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

هذا وسنتناول المراحل التي يمر بها السالك حتى يصل إلى الله عزَّ وجلَّ كما أشار إليها ﷺ في كتبه، أو في دروسه، أو في تربيته الذاتية لخاصة الأفراد الروحانيين من أتباعه. وذلك بإيجاز شديد، وإن كان غير مُخِلٍّ بالمقصود.

١. اليقظة

وذلك بأن يَمُنُّ الله عزَّ وجلَّ على العبد بداية، فيتحقق أنه غريب، أو ضيف في هذه الحياة الدنيا، ويتيقن من زوالها، ويعلم يقيناً أنه راجع إلى الله، كادح في العودة إليه، وأنه يقطع أنفاسه بسرعة مرور الزمن في الإسراع إلى لقائه جلَّ شأنه.

فتشتد رغبته، وتَلِحُّ عليه ضرورة الرجوع إلى الله، في أن يتعرف على الله، وأن يطلب الله، وأن يجاهد نفسه في معرفة أخلاق الله وآداب الله، وصفات الله وأسماء الله.

وبعد معرفته لله سبحانه وتحققه بكمال رأفته وشفقته، وعظيم حنانته ورحمته ﷻ بالإنسان، يحصل له وجدانٌ وشوق، وإحساسٌ قويٌ يبعث في نفسه الوَلَه والاحتراق، والعشق الشديد إلى التخلق بمعاني أخلاق الله، وصفاته الكريمة وأسمائه الحميدة، ليكون فيه من صفات الله ما يتقرب به من الله، وما يتحبب به إلى جناب الله، لأن الله سبحانه وتعالى يحب في العبد المؤمن أخلاقه وصفاته ﷻ.

فإذا تحلَّى العَبْدُ بمعاني صفات الله عزَّ وجلَّ، وتخلَّق بأخلاقه الكريمة، يكون بينه وبين الله نَسَبٌ يُقَرِّبُهُ إليه، وحُبٌّ يُوَصِّلُه إليه.

٢. جهاد النفس

إن طالب الوصول إلى كمال معرفة الله، لا بد له من التخلِّي عن الفِطَرِ التي فَطَرَهُ الله عليها، وابتلاه بها، فقد ابتلاه الله بأخلاق البهائم وأوصاف الشياطين، لِيَحُوزَ شرف الجهاد الدائم في ذات الله تعالى، ويكون له بجهاده هذا مقام لا يصل إليه مَلَكٌ مقرب، ولا ذو رُوحٍ من الأرواح العالية. وفي ذلك يقول ﷺ:

(ولقد فطر الله الإنسان وابتلاه بهذه القوى، لأن الإنسان هو المخلوق الوسط، الذي جمع الله فيه كل عناصر العوالم العالية، بما فيها من الجمالات والروحانيات، والبهاء والنور والضياء، والكمال والرحمة، والصفاء والوفاء، وكل العوالم السافلة بما فيها من العناصر المتضادة، والكثافة والظلام ، والغرائز والشهوات. فهو مُلتقى جميع العوالم، ومِحْوَرُ ارتكازها، وفَلَكُ مدارها. فهو المخلوق العجيب، والصنع الغريب، الذي أسجد الله له عوالم عالين، وحيَّر فيه عوالم سافلين)[١٨١].

[١٨١] أنوار التحقيق ص ١٩

(وجهاد النفس في هذا المقام هو تهذيبها وتزكيتها، وبذل كل ما في الوسع في ترك صفات البهائم، من الحصول على الشهوات واللذات، والحظوظ والمتع الفانية، من المآكل والمشارب، والملابس والرياش، والأثاث والزينة، واللذة الجنسية وغيرها، مما يلائم ويوافق الطباع والغرائز البهيمية في الإنسان. وكذلك الشره والحرص، والطمع والأمل، ومما تفرح النفس بنواله من غريزة حُبِّ التملك والسيطرة والرياسة، والتعالي في الأرض على عباد الله.

ويكون ذلك بالتوسط والاعتدال في هذه الصفات، وبأن يأخذ السالك من هذه الصفات ما هو ضروري لحياته، ولبقاء نوعه الإنساني، فيكون أكله ضرورة، وشربه ضرورة، ونومه ضرورة، ونكاحه ضرورة، فلا تكون هذه الأشياء مقصودة لذاتها، ولا مطلوبة لملائمتها للميول والأهواء، وموافقتها لطبيعة النفس، ولكن يأخذ المؤمن منها بقدر حاجته بحيث يتفرغ لمهمته العظمى، ورسالته الكبرى التي جاء من أجلها، وهي معرفة الله وعبادته، وحبُّه سبحانه، والتقرب إليه جلَّ جلاله، والمسارعة فيما يحبُّه ويرضاه، والبعد عما يبغضه الله ويكرهه، والقيام بعمارة هذه الحياة بالخير والعدل، والتسامح والصفاء والحب)[١٨٢].

(أما أخلاق الشياطين التي يجاهد طالب الوصول نفسه في البعد عنها، والإقلاع عنها، فهي: الكبر والحسد، والظلم والكيد والفساد، والعداوة والشحناء والبغضاء، والكراهية والأحقاد والأضغان، والبغي والتفريق بين الناس، ومحاربة الله ورسوله، والأثرة والأنانية، والتكبر والتجبر، والخيلاء والرياء، والنفاق والشرك الخفي والأخفى، والجدال والنزاع، وغير ذلك من صفات الشياطين والمردة، التي ابْتُلِيَ بها الإنسان، ليجاهد نفسه في التخلي عنها، وفي تركها جملة واحدة، حتى يرتفع عن منازعة نفسه وعنادها، ومكرها وسوء خلقها، إلى مقامات العبد الواصل، الطالب لرضوان الله الأكبر، المقبل على الله

[١٨٢] أنوار التحقيق بتصرف ص١٤

بكليته، الفار إليه جلَّ جلاله من كل عائق، المتخلق بأخلاقه، المتأدب بآدابه، المتشبه بمعاني أسمائه وصفاته).

ولله در الإمام أبو العزائم حيث يقول:

بهجة الروح بالجمال العلي لا بملك يفنى وحظ دنيِّ
وابتهاجُ الحيوان أكلٌ وشربٌ ونكاحٌ وذاك قصدُ القصيّ
وابتهاج الشيطان حسدٌ وكِبْرٌ بفساد وفرقة وبغـــــي
هي نفسي إن طُهِّرت وتزكت تتهنى بحظــوة بالولـي
وهي حيوان أو أضل سبيلا إن تسلت عن حسنها بالدني
وهي إبليس إنْ أبتْ وتعالتْ وتعامتْ عن سرِّها الآدمي

٣. التجمل بمكارم الأخلاق

إن شوق العبد وحبَّه لسيِّده وخالقه ومولاه، يجعله يتلمَّس معانيه الحسان في كل شيء، ويتأدب بها، ويتحلى بحللها، ويتجمل بأخلاقها، فالله عزَّ وجلَّ رحيم، فاشتاق العبد لأن يكون له حظٌّ من هذه الرحمة التي لا يبلغ مداها شيء. قال ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم من في السماء)[١٨٣].

والله سبحانه غفور، فيحن العبد حنيناً مؤرقاً لأن يكون له نصيب من هذه المغفرة الواسعة. والواصلون لهم قسط وافر من تلك المغفرة، فهم يسامحون المسيء، ويعفون عن الظالم، ويسترون الجاني، ويدارون الجاهل، قال الله تعالى (١٤:الجاثية):

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾

[١٨٣] رواه الترمذي وأبو داود والحاكم وابن حنبل عن ابن عمر

والله سبحانه وتعالى قويٌّ، فيجاهد العبد نفسه ليكون له نصيب من قوة الله، حتى يكون شجاعاً قوياً في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وفي مجاهدة نفسه وشيطانه، ومحاربة حظه وهواه.

وهكذا يكون حال العبد الذي يبغي الوصول، فلا يزال يتشبه بمعاني أخلاق الله، ويجاهد نفسه في التحلِّي بها، حتى تنمو المشابهة بعد كمال المعرفة لله سبحانه وتعالى. وبعد شدَّة الحُبِّ له عزَّ شأنه، فيكون عبدًا ربانيا يقول للشيء كن فيكون، أو عبدًا رحمانيًّا تجاوز رتبة (كن) لشدة انشغاله بالمُكَوِّنِ جلَّ جلاله، ومن كان الله مراده فمقعد صدق وراء ظهره.

وعن هذا الطور من الجهاد، يقول الإمام أبو العزائم ﷺ: (ليست الكرامة أن تطير في الهواء، أو أن تمشي على الماء، وإنما الكرامة كل الكرامة أن تغيِّر خُلُقًا سيِّئاً فيك بِخُلُقٍ حَسَنٍ).

ويصف حال صاحب هذا المقام فيقول:

(كمالُ الخُلُقِ أن تتصف بالصفات الإلهية في المضايق التي تدفعك بشدة إلى الاتصاف بالصفات الحيوانية، أو الميل إلى الأخلاق الإبليسية).

٤. الإستقامة

ولا يزال العبد يجاهد فطرته، وينمي سجيته، على حُبِّ هذه الأحوال، والأنس بتلك الفعال، حتى تأنس بتلك الأحوال العالية، وتنجذب إلى تلك الكمالات الراقية، فتستلذ بفادح المجاهدات، وتشتاق إلى عظيم الرياضات، فيصير ما استوعره غيره سهلاً لديه، وما استوحش منه غيره مأنوساً لديه، وما نَفَرَ منه غيره مطلوباً ومحبوباً إليه، فينتقل العبد من سجن العادات إلى جمال العبادات والقربات، وتستقيم فطرته على هذه الأحوال، وتستجيب أعضاؤه وجوارحه لتلك المجاهدات، فتصير هيّنة ليّنة لأعمال القربات والبرِّ والخيرات بعد القيام بالفرائض والواجبات، ويصير القلب حاضرًا أو مستحضرًا لمعاني مقامات الحقِّ جلَّ جلاله على قدره، ويصير العقل متفكراً في آيات الله

المنبثة في عجائب المخلوقات، وغرائب المصنوعات، ويصير الحسُّ وما فيه من آلات وأدوات ساعيًّا لمغفرة من الله ورضوان في كل لحظة وآن.

ويصف ﷺ بعض ما يحدث للسالك في هذا الطور فيقول:

(فيخرج الإنسان من عوائده ومألوفاته، ويتوب من أقواله وأحواله وأفعاله، ويستغفر من علمه ومن مجاهداته وقرباته، مفوّضاً أمره إلى الله، مسلِّماً شأنه لله. ينسب كلَّ خير أُكْرِمَ به لله، وكل عمل صالح قام به لله، وكل علم نافع أوتيه لله سبحانه وتعالى. ويرى فى نفسه التقصير والقصور، والعجز والفتور، والقطيعة والجفاء. فيدوم جهاده، ويقوى جلاده. وهذا الحال هو من حقيقة الوصول لله سبحانه وتعالى)[١٨٤].

والسالك الذي يسير على الصراط المستقيم يقسِّم زمنَهُ إلى أوقات، ويعطي كل وقت حقَّه من الرعاية والعناية: وقت للعبادة، ووقت للعمل في طلب المعاش، ووقت لراحته وأكله وشربه وشهوته في الحلال، ووقت لطلب العلم النافع الذي تزكو به نفسه، ووقت يتفكر فيه في مخلوقات الله ومصنوعاته.

وهو أشد الناس حرصًا على أوقاته، لأنه اعتقد أن الزمن جزء من عمره وحياته، فهو يغتنمه وينتهزه. والمؤمن لا يعمل إلاَّ في إحدى ثلاث: حسنة لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو شهوة في غير محرم.

٥. حقيقة الوصول إلى الله

ليس الله في مكانٍ يصل عَبْدٌ إليه، أو زمانٍ ينتهي العبد إليه، ولكن الله عزَّ وجلَّ من وراء الزمان والمكان، ومع هذا البعد العظموتي، والكبرياء القدسي، فهو سبحانه قريب من

[١٨٤] أنوار التحقيق ص٣٣

العبد الطالب له حقًّا قرب القرابة، بل أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه، قال تعالى (١٦:ق): ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾

ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يحل في الأجسام، ولا تحل فيه الأجسام، ولا يقارب الأجسام ولا يشابهها، ولا تشبهه الأجسام ولا تقاربه، فليس في الخَلْقِ إلاَّ الخَلْق، وليس في ذات الله إلا الله جلَّ جلاله. وهذا هو مقام التنزيه الواجب لذات الله. أما مقصد القوم من دعوى الوصول فيوضحه ﷺ في قوله:

(وأما قُرْبُهُ من العبد، وتنزُّله إليه، فهذا قُرْبٌ معنويّ، يكون بمعاني صفات الله، ومعاني أسمائه الحسنى، من الوداد والعواطف والعوارف، والرحمة والرأفة، والحنان والإحسان. والعبد الواصل قد لاحظ بسرِّه هذه الحقائق، فَنَزَّه الله وقدَّسه عن كل ما يحُول بالأوهام والخواطر)[١٨٥].

والواصل إلى الله عزَّ وجل، هو المجاهد لكل ما فيه من الغرائز والقوى، والفِطَرِ والعادات، والصفات البشرية والحيوانية والإبليسية، وقد وجَّه كلَّ خواطره وملكاته وقواه جميعاً، بل كلَّ عزمه وهمِّه وإرادته في الوصول إلى مقصوده، والحصول على مطلوبه، وهو تبديل أخلاقه وأحواله وأرضه وسمائه، بصفات الله ورسوله، وآداب الله ورسوله، حتى يكون عبداً نورانياً قرآنيًّا، طاهراً زكيًّا، بل عبداً ربانيًّا يمنح الخير، ويفيض البرَّ والنفع على أهله ورفاقه، وعلى كلِّ المسلمين، من غير أن يطلب منهم أجراً ولا شكراً، سرَّ قول الله تعالى (٩:الإنسان):

﴿ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾

ويوضح ﷺ صفات وأحوال الواصل فيقول:

[١٨٥] أنوار التحقيق ص ١٥، ١٦

(والواصل الذى اتَّحد مع جميع عناصره وقواه، وملكاته وحقائقه، وتوحَّدت كُلُّ هذه الحقائق فى طلب الله سبحانه، وطلب حُبَّه ورضاه، قد اعتاد على حُبِّ ما يخالف حظَّه وهواه الفاني، وتعود على الرغبة فيما يؤلمه وأُلفَةِ ما ينافره. وفَّق بين الأضداد، وجمع بين الأخلاط المتعادية، وصهر كل هذه الحقائق المتنافرة فى بوتقة الجهاد الأكبر، الذي يقهر كل معاند ومخالف، على الذُّلِّ والانقياد لله ورسوله ﷺ، حتى تصطلح هذه القوى مع النفس الملكية والروح القدسية على موالاة الله ورسوله، ومعاداة ومجاهدة أعداء الله ورسوله فى نفس الإنسان، وفى أهله وإخوانه، والناس أجمعين.

فكلُّ محبوبٍ لله ورسوله فهو حَبِيبُه وأليفُه، ومرغوبه ومطلوبه، وكلُّ مكروه لله ورسوله فهو عدوه، وإن كانت نفسه التي بين جنبيه، أو ولده وزوجه وأقرب الأقربين إليه. وبذلك تتم فطرته، وتستقيم طبيعته، ويتحقق بوصوله إلى الله ورسوله.

وقد لخص الإمام أبو العزائم ذلك في قوله: (الواصل من توحَّد مطلوبه، ورَضِيَ بما قدَّره له محبوبه). وقوله ﷺ أيضاً:

فالواصلون رأوا جمالا ظاهراً قد أخرج النُّسَّاك من ظِلِّ الظَّلام

دارتْ عليهم خمرةُ الحُبِّ التي قد وُوجِهُوا فيها بوهَّابٍ سلام

خامسا: مقامات القرب

هذا وإن مقامات القرب من الله ورسوله لا نهاية لها فلذلك يستمر العبد يتقرب إلى الله عز وجل بالنوافل والمندوبات والسنن من جميع الأعمال والأقوال والأخلاق والمعاملات حتى آخر نفس من حياته ومعنى: (ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه) يوضحه ﷺ فيقول:

(أي حتى يستمر رقيه في درجات الحب التي لا نهاية لها عندي، لأن الله قد أحب المؤمن بمجرد قيامه بأداء الفرائض حسب ما ورد في الحديث القدسي الكريم ومن هنا

كان قيامه بالنوافل والقربات لله سبحانه يؤهله للمزيد من حب الله له وترقيته إياه في درجات الحب العالية التي لا نهاية لها)[١٨٦].

ثم يشير إلى حال المقربين فيقول:

ولقد كشف هذا الحديث الحجاب عن حقيقة العبادة، وبيَّن أنها الحب الخالص لله سبحانه وتعالى، وأن المؤمن المجد في عبادته لا يزال يترقى في مقامات الحب الإلهي حتى يحظى بالقرب من الله عز وجل، ويتحقق بمعاني أسماء الله وصفاته ﷻ، ويتخلق بأخلاق محبوبه سبحانه وتعالى، ويتجمل بصفات معبوده عز شأنه، ثم يكرم بمقام الإتحاد بتلك المعاني القدسية، فتسري في معانيه الإنسانية عن السمع والبصر والإرادة والعلم والقدرة والحكمة والتكلم والحياة وغيرها من معانيه وسره فيسمع بالله ومعنى ذلك أنه لا يسمع إلا ما يحبه الله فلا يرى شيئا إلا دله على الله، وقربه إليه وكذلك جميع المشاعر والمدارك التي استودعها الله فيه، فيكون عبدًا ربانيًا يتحرك بالله ويسكن بالله ويعمل لله ويترك لله ويحيا بالله ويموت بالله قال تعالى (٢٦:الكهف)

﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ }[١٨٧]

فأهل القرب من الله، هم الذين ظهرت لهم معاني الوصول في أنفسهم حتى صارت نفوسهم مرآة صافية، فانكشفت فيها هذه الحقائق، وارتسمت فيها تلك المعاني، وانتقشت فيها الأخلاق الإلهية. والقرب هو تفضل الله سبحانه على أهله بكشف صفاته، ومعاني أسمائه ﷻ لهم، والإقبال منه عز وجل عليهم، ظاهرا لهم بمعاني أسمائه وصفاته، وبهاءه وجماله وجلاله، بعد كمال معرفتهم بربهم ﷻ حتى تأتنس قلوبهم ببرد هذه التنزلات، ونعيم

[١٨٦] عبادة المؤمن اليومية ص٦٦

[١٨٧] عبادة المؤمن اليوميه ص ٦٧ ، ٦٨

تلك المواجهات. والقرب بالنسبة لهم هو كشف هذه المقامات الإلهية للمقربين في أنفسهم وفي السموات والأرض، وفي كل شيء لهم، حتى يتراءى لهم الحق جليا في الملك والملكوت وذلك معنى قوله تعالى (٥٢:فصلت):

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

وهذا القرب إنما يكون بالمعاني والحقائق، لا بالمباني والأركان، فمن كان قربه بالقلب لا يبعد أبدًا، ولا يستطيع أحد أن يبعده عن القلب، ومن كان قربه بالجسم، فبعده يكون بمجرد مفارقتك له.

والمعاني التي انكشفت لهم في أنفسهم وفي السموات والأرض، إنما هي معاني أسماء الله وصفاته، وأسرار الله وأنواره، وآيات الله الكبرى وبيناته، إذا نظرت أعينهم إلى شيء ما، رأت بصائرهم، وعين سرائرهم، ما في هذا الشيء من معاني الخالق البارئ المصور، والمبدع والصانع والمكون، ورأوا في هذا الشئ حكمة إيجاده، وسر إمداده، وكيفية خلقه، وحقيقة تذليله وتسخيره للإنسان، ورأوا قيام هذا الشئ بالله وإيجاده من الله، ونهايته إلى الله، وأن هذا الشئ لا وجود له من نفسه، ولا بقاء له في نفسه، ولا حياة له من نفسه.

فتحققوا بعد معرفة الأشياء أن الله هو الحق اليقين، وأن كل شيء هالك وفان إلا الله، وشهدوا في أنفسهم بدايتها ونهايتها، وقيامها بالحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وأنهم عبيد مقهورون، وعباد مربوبون، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئا من الدنيا والآخرة إلا إذا تفضل المتفضل عليهم فوهبهم شيئا من فضله وإحسانه، وبره وعطاءه، فيأخذونه شاكرين، ويتناولونه من الله سبحانه وتعالى ذاكرين حامدين لله سبحانه وتعالى على نعمه وفضله عليهم، قائمين بحق العبودية لله عز وجل، لا يشغلهم عن ذلك شيء، لأن العبد لا شغل له إلا بسيده والقيام بطاعته.

جهاد المقربين

أما جهاد المقربين فهو الجهاد الأكبر في ذات الله تعالى، وهو جهاد للترقي في منازل القرب من الله عز وجل، لأن الله سبحانه ليس لمقاماته نهاية، ولا لكمالاته غاية، وإن ما يلوح منها لأهل القرب، إنما هو على قدر قواهم، فإذا ما لاحت لهم بارقة من لوامع هذا الجمال، وأنسوا بها، حنت أرواحهم إلى ما هو أجمل وأعظم، فجاهدوا في الوصول إليه، وهكذا لا ينتهي جهادهم، لأن الله لا نهاية له، وغاية ما في الأمر أنهم يسبحون في الجمالات والكمالات، ويتقلبون في المقامات إلى ما شاء الله. والمجاهدة في هذا المقام، لتدوم المشاهدة.

أما جهاد خاصة الخاصة من أولياء الله تعالى المقربين، والذين اصطفاهم الله لحمل أمانة رسله، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وشرح صدورهم، وأنزل فيها مكنون علمه، وغيوب سره، وأسعدهم بقربه، وآنسهم بحبه، وجعلهم رحمة للناس، وهدى ونور لأهل التسليم والانقياد، حتى يقوموا لله سبحانه بالحجة البالغة على عباده، يبينون لهم ما خفي من معالم الدين، وما اندثر من آثار السلف الصالح، فيقول فيه ﷺ:

وهذا الصنف من عباد الله، هم المقربون، ومع قربهم من الله سبحانه، ومن رسوله ﷺ. فهم يجاهدون الجهاد الأكبر فى ذات الله تعالى وفى ذات رسوله ﷺ. لأن العبء الذى ألقى عليهم ثقيل جداً، والرسالة التى كلفوا بها شاقة، ونفوسهم لا يأمنون جانبها من الهجوع أو الفتور، فى أداء ما أمرهم الله به من تبليغ رسالات الله، وهداية الخلق إلى الله نيابة عن رسوله ﷺ، ولذلك لا يغفلون إذا غفل الناس، ولا يستريحون إذا نام الناس ولا يطمئنون إذا أمن الناس، لأن الخطب جسيم، والله من ورائهم محيط، سر قول الله عز وجل (٥:المزمل):

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا ﴾

وهذا الجهاد فرض عين على الورثة الذين أقامهم الله أبدالا عن سيدنا رسول الله ﷺ. ولا يسقط عنهم حتى تقوم الساعة)[١٨٨].

وجهادهم بالعمل وبالقول، وبالقلب وبالفكر، وببذل النفس والأولاد والأموال وبذل كل مألوف ومحبوب ومرغوب فيه، عن طيب نفس وارتياح، وفرح وانشراح لا يضنون على الله ورسوله بشيء، لأنهم ليس لهم فى أنفسهم ولا فى أموالهم وأولادهم شيء، ويشهدون أن كل شيء هو ملك لله عز وجل، وهم أمناء الله عليه، يؤدون هذه الأمانات لله ورسوله، بل يستصغرون ما يبذلونه وما يقومون به من جهاد وأعمال فى ذات الله، فإن الله عز وجل هو الغنى عن كل شيء ولا يحتاج لأي شيء من مخلوقاته، ولكن العبد المقرب، المحبوب، يجاهد فى التقرب من محبوبه سبحانه، وفى إرضائه عزَّ وجلَّ بكل ما لديه، ليفوز برضوانه سبحانه عليه.

وفي هذا يقول ﷺ:

والعبد المقرب لا يرى أن جهاده هذا هو الذى يقربه من الله، وإنما يقوم لله بما أوجبه الله عليه، وبما رغبه فيه، امتثالا لأمره، ومسارعة في طاعته. والقرب الذي من الله به عليه، إنما هو من فضل المتفضل، وعطاء المعطى الوهاب وهو بسابقة الحسنى من الله عز وجل)[١٨٩].

نعيم أهل القرب

وأهل القرب صارت سرائرهم محلا للطائف والعوارف والمعاني القدسية، ولما كانت هذه السرائر عامرة بأخلاق الله سبحانه ومحاسنه وصفاته ومعاني أسمائه، وهذه السرائر قد

[١٨٨] أنوار التحقيق بتصرف ص ٨٠، ٨١

[١٨٩] أنوار التحقيق ص٨٢

استغرقت في هذه المشاهد العالية، وامتلأت بحبها والإخلاص لها والتفاني فيها، واستنارت جوانح النفس بأنوار القدس الأعلى، أشرقت تلك الأنوار، من الروح ومن السريرة، على جسم الإنسان وعلى أعضاءه العاملة، فاستنارت وانتفعت واهتدت بذلك النور، وانقادت الجوارح بتلك الإشرافات النورانية، وصارت هذه الأعضاء مسارعة إلى العمل بمحاب الله ومراضيه، ومتفاعلة مع ذلك النور، ومتأثرة به إلى أبعد مدي، حتى إنك لتكاد ترى ما في بواطنهم، وقد ظهر وانطبع على ظواهرهم، وعن هذا اللطف الرباني، والحال الروحاني، يقول ﷺ واصفاً أهل هذا المقام وهو مقام الإتحاد:

(وعند إشراق السريرة بأنوارها على الجوارح والمباني، يتحد ظاهر الإنسان المقرب إلى الله مع باطنه، في الوجهة والقصد ، والفعل والترك، والسكون والحركة، فإذا قام العبد بأي عمل من الأعمال، اشتركت فى هذا العمل جميع القوى والحقائق الإنسانية الظاهرة والخفية. وفى هذا يقول الإمام أبو العزائم رضى الله عنه:

لذاك إذا صليت صليت فانيا عن اللون والأكوان والنور ساطع
أحرم في التكبير مشهد غيره وأشهد بالتنزيه إذ أنا راكع
وأسجد عن نفسى وفعلى فانيا وأسجد أخرى عن فنائي توابع

وهذا هو مقام الإتحاد، الذي يتكلم عنه العارفون بالله ﷺ، وهو اتحاد الإنسان مع نفسه، فلا ينازع ظاهره باطنه، ولا يختلف باطنه مع ظاهره. ولقوة هذا الإتحاد يصير العبد روحانياً، بقوة تأثير الروح والمعاني على الهياكل والجوارح العاملة، بما يتوالى عليها من أنوار الباطن ، فيتحد العبد وتتوحد جميع ما فيه من القوى، في طلب الله ورسوله، والعمل على إرضاء الله ورسوله ﷺ)[١٩٠].

وعند ذلك يتفضل الله عزَّ وجلَّ عليهم بالشهود الذي وضحته الآية الكريمة:

[١٩٠] أنوار التحقيق ص ٥٩، ٦٠

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ (١٨:آل عمران)

ويكون ذلك بوقوع عين السر والخفا على جمالات الله، وكمالات الله، ومقامات الله، حتى يشهدون بالتوحيد الذي في أنفسهم ، والذي وهبه الله لهم، التوحيد الأعلى الذاتي، فيشهدونه سبحانه وتعالى، واحدا أحدا فردا صمدا في ذاته وصفاته، وأسمائه وأفعاله، فتصعق أرواحهم من عظيم الحيرة في هذا الجناب الأقدس، فيحييهم الحي القيوم ، ويقيمهم له سبحانه به، بين داعين به إليه، مقبلين به عليه ، دالين به عليه، ليس لهم من الأمر شيء والأمر كله لله، ولا يرون أنسهم لفناءها، ولا يرون أعمالهم لتوفيقه سبحانه لهم بأداءها، ومعونته جل شأنه التي أمدهم بها، ولا يرون كونا إلا ويشهدون الله سبحانه وتعالى قبله وبعده ومعه، ويشهدون قيام هذا الكون به ﷻ، وفي ذلك يقول رضي الله عنه:

(وعيون السريرة هي العيون التي وهبت لهم من ربهم، ليروه بها ﷻ، هي عيون النفخة القدسية التى نفخها الله فيهم من روحه جل شأنه، وهذه العيون تشهد أنوار الواحدية، وأسرار الأحدية وهو المشهد الأعلى حتى شهدوا بهذه العيون تصريف الأقدار، وحقائق الأخبار فاستغرقت سرائرهم في هذه المشاهد وتلك اللطائف والرقائق،أنسًا بهذه المشاهد وفرحًا بها)[١٩١].

وهم وإن تعلقت سرائرهم بمشاهد التوحيد، إلا أنهم يشهدون بأبصارهم أسرار الحكمة، وغرائب تصريف القدرة، فيشهدون هذه الحكم بعين العلم والمعرفة، والتفكر والتذكر، فهم أصحاب العينين، عين السر والخفا، وعين البصيرة والوفا، عين تشهد الحق وعين تشهد الخلق، فبالعينين يبصرون ويشهدون وعلى ربهم يتوكلون، ويعطون لكل ذي حقٍّ حقَّه.

[١٩١] أنوار التحقيق ص٦٩

وحقيقة الإنسان المقرب – وهي قلبُه – ميدانٌ لهذه المقامات، وتلك المشاهدات، وساحة لهذه الأسرار، وأفق لهذا الحكم، لأن القلب هو الذي يتقلب في هذه اللطائف والرقائق، والمنازل العالية، والمراتب القدسية.

وأنوار التحقيق أن يتحقق العبد بمكانته العبدية، من العجز والجهل والاضطرار، وأن يتحقق بمقامات الألوهية، من العظمة والعزة، والجلالة والرحمة، والإحسان والإكرام، وهذا هو العبد الممنوح العطية، المقرب من رب البريه سر قول الله جلَّ شأنه:

﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾

(٦٤:يونس)

وصية للأخوان

ونختم هذا الباب . والذي كل ما فيه من بيان له ﷺ وليس لنا فيه إلا النقل والتبويب . بهذه الوصية الجامعة التي وصى بها ﷺ الإخوان في لقاء جامع بقرية الزريقات قبلي مركز أرمنت، وذلك حتى يدوم ودهم، ويزداد أنسهم، وهذه هي:

يا إخواني أوصيكم بالمحافظة على الحقوق، فلعلَّنا لا نلتقي بعد اليوم، فنحن جميعاً مسافرون إلى لقاء الله عزَّ وجلَّ، وليس هناك شيء أكرم من لقاء الله عز وجل،

وإني أوصي إخواني أن يتمسكوا بإخوانهم، وخصوصًا إخوانهم الذين قد يقطعونهم أو يقصرون في حقوقهم، أو يتنكرون لهم، فإن سيدنا رسول الله ﷺ، قال لنا جميعا: (ليس الواصل بالمكافئ، وإنما الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها)[١٩٢].

[١٩٢] رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص

والإخوان مع بعضهم كما وصفهم الله: ﴿رحماء بينهم﴾، بل إن كل مسلم رحيم بكل مسلم بنص القرآن الكريم: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. فأخوك إذا جفاك اذهب وزُرْه، واسأل عنه لله ورسوله، فإن مات تسأل على أولاده لأنهم أولاد أخيك في الله ورسوله، وإن أساء إليك الأخ فسامحه لله ورسوله، وإن لم يقم الأخ بواجب الأخوة فقُمْ بها أنت لله ورسوله.

هذه يا إخواني وصيتي التي أوصيكم بها، وأنا أعرف أنكم جميعاً آذان صاغية، وقلوب صافية، وأرواح واعية، ووالله لو أستطيع أن أواسي كل واحد من إخواني لواسيته، ولو أنني أستطيع أن أصل كل واحد من إخواني لوصلته، لأن الأخوة هي الرحم الباقية. فالرَّحم رَحِمان: رحم من نسب الأب والأم، ورحم الله ورسوله، والأخوة في الله لها معاني كثيرة، لا أستطيع بيانها الآن، ولكن إذا كان الملك والملكوت والرضوان لا يضاهي الأخوة في الله، والإمام أبو العزائم لا يفرط في الأخ في الله بالملك والملكوت ومنازل الرضوان، لأن الأخوة في الله أغلى من الملك والملكوت ومنازل الرضوان، وذلك في قوله:

أنا لا أرضى بالملك والملكوت في أخ في الله حاشا بل ولا الرضوان
المرء بالإخوان لا بجدوده قليلٌ نعم والذلُّ في النقصان

وأنتم تعلمون أن الأخوة بلغت في عهد رسول الله ﷺ، أن أحدهم كان يرث أخاه إذا مات، لأن الإسلام آخى بينهم وبين بعضهم، فهم لا تربطهم صلة نسب ولا قرابة رحم، ولكن وصلهم نسب الله ورسوله.

فكان في بدء الإسلام الذي يموت من المهاجرين، يرثه أخوه من الأنصار، والذي يموت من الأنصار يرثه أخوه من المهاجرين، وليس الأخ من الأم والأب، لأن هذه الأخوة كانت أعلى وأجلّ من أخوة النسب، حتى استتب الأمر لدولة الإسلام، وأصبح المسلمون كلُّهم كرَجُلِ واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه أشتكى

كله، وإن اشتكى إصبعه اشتكى كله، إلى أن نزلت أحكام المواريث، وردَّت الميراث للأقارب والأرحام من الأب والأم، ولكن بعد تحققهم بهذه المعاني العالية.

أنا أود يا إخواني أن تحرصوا على هذه الوصية، وتؤكدوها بالعمل بها، حتى لا نترك أي أثر للنفوس النزاعة أو للشيطان، للتأثير على هذه الأخوة، لأنها أكبر بكثير جداً من هذه المعاني، وأكبر بكثير جدًا من كل ما يدور حولها أو بينها.

وأنتم والحمد لله الصغير فيكم عَالِمٌ كبير في الوعي والفكر في دين الله.

بارك الله فيكم وعليكم ولا حرمكم الله من بعضكم أبد الزمان، ورزقنا الله وإياكم التعاطف والمودة، والرحمة والمحبة، التي كانت بين صحابة سيدنا رسول الله الكرام.

وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم

****

الباب التاسع

الباقيات الصالحات

أولا: الأثر البشري

ثانيا: أثره الصوتي

ثالثا: تراثه العلمي

ترك ﷺ آثارًا باقيةً تضيف إلى رصيده عند الله عز وجل في كل يوم جديدًا، مزيدًا من الفضل الكبير، والثواب الجزيل، والأجر الحسن، وإليها الإشارة بقول الله عز وجل (٤٦:الكهف):

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

وقد عناها سيدنا رسول الله ﷺ بقوله: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[١٩٣].

ونستطيع أن نقسم الظاهر من هذا الأثر الباقي إلى ثلاثة أقسام:

أولا: الأثر البشري

فقد ترك ﷺ أكثر من ألف رجل في طريق الله عز وجل رباهم على القيم والمبادئ الفاضلة من الإخلاص والصدق والصفاء والوفاء، والإيثار والبذل، والتضحية بكل غال ونفيس في سبيل الله عز وجل، وهذَّب نفوسهم من رعوناتها ونزغاتها، ومن الأثرة والأنانية وحب السيطرة والتملك، والرغبة في العلو في الأرض بغير الحق، والطيش والجهالة والغفلة، وصفَّى قلوبهم من الأحقاد والأحساد، والغل والحرص، والبغض والكيد، ورقاهم إلى المنازل العالية، وجملهم بالأخلاق السامية، والأحوال الراقية والعلوم الوافية، حتى صاروا أئمة يدعون الناس إلى الله عزَّ وجلّ، لا لنوال عطاء أو رغبة في جزاء، وإنما ابتغاء رضوان الله، وطمعًا في حُبِّه ورضاه.

فمنهم من يدعو إلى الله بحاله، ومنهم من يوجه الخلق إلى الله بقاله، ومنهم من يجاهد في سبيل الله بماله، منهم من باع نفسه لمولاه، ومنهم من هام عشقًا وحبًا في ذات الله، ومنهم من جعل عمره كله طاعة لله، ومنهم من شغل نفسه بذكر الله، ومنهم من أوقف نفسه على كتاب الله، ومنهم من جعل وقته لغيره فيقضيه كله في قضاء مصالح

[١٩٣] رواه مسلم عن أبي هريرة

الخلق ابتغاء وجه الله، ومنهم من استلذ الخدمة لإخوانه في الله، وكلهم توحدت همومهم في الله. وفي مثلهم يقول سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ – عندما سئل عن كتبه التي تركها – فأشار إلى أصحابه وقال: (كتبي صدور أصحابي).

هذا ولا يزال هؤلاء الرجال على نهجه ﷺ وقد جمعتهم الجمعية العامة للدعوة إلى الله، ويقومون تحت لوائها بإكمال المهمة التي قام بها شيخهم في جمع الخلق على الله، ونشر المفاهيم الصحيحة للإسلام حسبة لوجه الله، والعمل على جمع شمل المسلمين، وتقريب وجهات نظرهم، وحل المشكلات، والقضاء على الخلافات التي تنشب بينهم رغبة في الفوز بفضل الله ورضوان الله.

وقد ترك ﷺ أيضًا من نسبه الحسي من زوجته التقية السيدة / منيرة . والتي لم يتزوج غيرها طوال حياته . خمسة أولاد بررة هم بحسب ترتيب ولادتهم: هناء، وحسين، وليلى، وأبو العزائم، وعبير – بارك الله فيهم وعليهم وجعلهم أئمة للمتقين، وهداة مهتدين في الدنيا، وسعداء في يوم الدين.

ثانيا: أثره الصوتي

حَبَا اللهُ عزَّ وجلَّ الشَّيْخَ ﷺ بصَوْتٍ رُوحَانِيّ، كان يرتل به كلام الله عزَّ وجلَّ النورانيّ، أثناء دروسه وخطبه، فيترك في نفوس السامعين أثراً بليغاً لرقته وخشيته، وعذوبته وطلاوته، حتى أنني عندما كنت أسمعه كنت أتذكر على الفور قول سيدنا رسول الله للصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ﷺ: (لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود عليهم السلام)[١٩٤].

[١٩٤] متفق عليه

وكنت أستبشر بفضل الله عز وجل لأن الله وهبني سماع القرآن من رجل يقول فيه رسول الله ﷺ: (اسمعوا القرآن من رجل إذا سمعتموه رأيتم أنه يخشى الله عزَّ وجلّ)[١٩٥].

وأنظر إلى الناس حولي حال السماع فأدرك الحكمة العالية من قول رسول الله ﷺ: (زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنًا)[١٩٦].

وقد سمعه ذات مرة المرحوم الدكتور عبد المنعم النمر – عندما كان وزيرا للأوقاف – أثناء زيارته لمدينة بورسعيد، فقال له: كنت أود تسجيل ترتيل كامل للقرآن الكريم بصوت أحد العلماء، كنت أترقب صاحب الصوت الحسن حتى أُكَلِّفَهُ بذلك، والآن قد وقعت عليه.

وطلب منه ﷺ أن يقوم بعمل تسجيل كامل للقرآن الكريم على شرائط، فحاول ﷺ بتواضعه وأدبه الجَمّ أن يعتذر؛ ولكن الوزير ألحَّ عليه في ذلك. فقام ﷺ بتسجيل ترتيل كامل للقرآن الكريم بصوته الندي، وخشوعه الروحاني، وقد سجله على واحد وأربعين شريطًا وهو متوفر وموجود الآن.

هذا غير الكم الهائل من شرائط التسجيل المسجل عليها دروسه الدينية في كافة المناسبات الدينية، والموضوعات الإسلامية، والآداب الربانية، والتربية الروحانية، والتي هي بمثابة كتب ناطقة تحمل للسامعين الهدى والنور، والعلم والحكمة، والموعظة الحسنة.

[١٩٥] رواه بن ماجة

[١٩٦] رواه السيوطي في الصغير وأبو نعيم في الحلية عن البراء

ثالثا: تراثه العلمي

ترك ﷺ ستة وعشرين كتاباً تشمل نواحي الحياة الإيمانية، وقد أملاها كلها رضي الله عنه من عالم الغيب بدون الرجوع إلى مرجع أو كتاب، فقد كان يُمْلِي وأحد مريديه النجباء يكتب. وهذا مما يدل على غزارة علمه، وتمكنه في باب المعرفة الإلهية، والعلوم الدينية.

وقد كان نهجه ﷺ في أي قضية يعالجها، أن يستخرج الآيات القرآنية التي تتحدث عنها، ثم يقوم بشرحها على حسب ما يفتح الله عزَّ وجلَّ به عليه، ويستنبط بعد ذلك الأحكام والآداب التي يهدف إلى إقرارها. هذا مع البعد عن الغموض والإغراب، أو إخراج الألفاظ عن مدلولها، أو الآيات عن المعنى الظاهر الذي يسوقه الله عزَّ وجلَّ في ثناياها، حتى أنك عندما تسمع شرحه للآيات القرآنية يرتاح قلبك، وينشرح صدرك، وتشعر أنك تسمع هذه الآيات لأول مرة.

ويؤكد كلامه بعد ذلك بالأحاديث الصحيحة، وكان يتحرى فيها صحَّة السند، ثم بما صَحَّ من كلام الرجال ﷺ. وسنسوق مثلاً واحداً يدل على ذلك المنهج.

فعن معنى قوله تعالى (٢١:الأحزاب):

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

يقول ﷺ:

(أى لقد تحقَّق لكم، وثبت لديكم، أن الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة: هي في رسول الله ﷺ، حيث أنكم لم تروا فيه انحرافاً ولا اعوجاجاً عن الحقِّ الذي أنزله الله، والذي أقرته العقول السليمة من الزيغ والضلال، ولم تعرفوا عنه قبل رسالته إلاَّ الصدق والأمانة، والوفاء والعفة، والعدالة ونصرة المظلوم، ومكارم الأخلاق العالية، وجاءته الرسالة فزادته بهجةً وجمالاً، وجلالاً وكمالاً، وعفةً وسناءاً – ﷺ.

والأسوة الحسنة: هي القدوة الكريمة، والأمثلة العالية، والأخلاق الرفيعة، والسيرة الحميدة، والتي إذا رآها العاقل حَمَدَهَا ومدحها وأثنى عليها، ولم يكن في وسعه إلاَّ اتباعها والتشبه بها، ولم يقدر عن العدول عنها.

وإن الإقتداء برسول الله ﷺ، يفرض علينا أن نعرف ولو طرفاً يسيراً من أعماله وأقواله وأخلاقه عليه الصلاة والسلام، حتى نأخذ بها على قدر استطاعتنا، فليس واحد منا يستطيع أن يقوم بكل ما كان يقوم به ﷺ، لأن رسول الله يزن جميع أمته في كل شيء، وإنما يأخذ كُلُّ مؤمن منه على قدر استطاعته، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه)[١٩٧]}[١٩٨].

ثم يواصل ﷺ تحليله للآية فيبين منها خصال المؤمنين الذين يقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول:

{وهي – أي هذه الخصال:

أولا: أنهم يرجون الله سبحانه وتعالى، ومعنى ذلك أنهم يطمعون في رحمة الله وعفوه وبره ورضائه.

ثانيا: أنهم يرجون اليوم الآخر ومعنى ذلك أيضا أنهم يأملون في الفوز والفلاح والنعيم في ذلك اليوم العظيم الذي يرفع الله فيه شأن المؤمنين ويكرمهم.

ثالثا: أنهم يذكرون الله كثيراً، ومعنى ذلك أن الله حاضرٌ في خواطرهم، ومشهودٌ في ضمائرهم، لا يغيبون عنه فهو سبحانه مذكورٌ بألسنتهم وقلوبهم.

[١٩٧] رواه البخاري ومسلم

[١٩٨] عبادة المؤمن اليومية ص١٤و١٥

وهذه الصفات الثلاثة جعلتهم يترسمون خطوات رسول الله ﷺ في كل شيء، لأنهم يعتقدون أن كل خير وإسعاد في الدنيا والآخرة إنما يكون في اتباعه والاقتداء به عليه الصلاة والسلام.

ومن ناحية أخرى فإن الأسوة برسول الله ﷺ أعظم دليل، وأكبر برهان، على حُبِّهم له ﷺ، وحُبِّهم لله جلَّ جلاله، قال الله تعالى (٣١:آل عمران):

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾ }[١٩٩]

وبعد أن وضحنا نهجه ﷺ الذي اتبعه في كل كتبه، سنسردها تاركين عن عَمْدٍ توضيح ما بها، ونستطيع أن نبوِّبَها بحسب موضوعاتها تحت العناوين التالية:

١. الفتاوى والأحكام

وتشمل الإجابة على أهم المشكلات التي ثارت في هذا العصر، وخاصة القضايا الخلافية، وقضايا الأسرة المسلمة، والأمور الغيبية وذلك في الكتب التالية:

١. مصابيح على طريق الإيمان (ثلاثة أجزاء)

٢. من منابع الدين الحنيف.

٣. حكمة الحج وأحكامه.

٤. الصوم عبادة ومجاهدة.

٢. العقيدة الإسلامية

ويكشف في هذه الكتب جوانب العقيدة الصحيحة، ويُجَلِّي كثيراً من الشبهات التي يثيرها نحوها أهل الباطل، ويوضح الأمور الغيبية التي يطالب المسلم بالإيمان بها، بأسلوب سهل ومقنع وهي:

[١٩٩] عبادة المؤمن اليومية ص،١٣،١٢

١. التوحيد في القرآن والسنة.

٢. علامات وقوع الساعة.

٣. حوار حول غوامض الجن.

٤. مواقف بعض الرسل في القرآن الكريم.

٥. أيام الله.

٦. شعب الإيمان.

٧. الإسراء معجزة خالدة.

٣. الأسرة المسلمة

وقد وضَّح كُلَّ شيء فيها عن الأسرة ككل، وعن المرأة والأولاد والزوج وقضاياهم، مع وضع أسهل الطرق لعلاجها، وذلك في الكتب الآتية:

١. توجيهات في بناء الأسرة.

٢. حقوق الإنسان في الإسلام.

٣. قبس من معاني سورة النور.

٤. خواطر إيمانية حول تنظيم الأسرة والمشكلة السكانية.

٤. الدعوة الإسلامية

ويبين فيها النهج الأمثل للدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وذلك في:

١. كيف يدعو الإسلام الناس إلى الله.

٢. الإنسان الوسط.

٥. التصوف الإسلامي

١. الإمام أبو العزائم كما قدم نفسه للمسلمين.

٢. أنوار التحقيق في وصول أهل الطريق.

٣. عبادة المؤمن اليومية.

٤. شرح الفتوحات الربانية في الصلوات على خير البرية للإمام أبي العزائم.

٥. قطرات من بحار المعرفة.

٦. الجواب الشافي على أسئلة الحكيم الترمذي في كتابه ختم الأولياء.

٧. ندوة عن التصوف.

٨. بريد إلى القلوب (جزءان).

٦. الحديث الشريف

وقد شرح ﷺ مائة وإثنين من الأحاديث الشريفة بِلُغَةٍ مبسطة سهلة، وقدمها في حلقات بإذاعة القناة وجمعت في كتاب: من هدي النبوة (جزءان).

هذا وقد آثرنا عدم تناول هذه الكتب بالتحليل لسببين:

أولهما: حتى نتجنب الإطالة في حجم الكتاب مما يزيد في عبء إخراجه وطباعته وبالتالي تكلفته، وخاصة وأن الكتب كلها مطبوعة ومتوفرة في المكتبات وتباع بتكلفتها الأصلية فقط (أي بثمن زهيد).

وثانيهما: حتى نتيح للقارئ الكريم الفرصة للإطلاع على هذه الكتب والحكم عليها بنفسه.

****

الباب العاشر

تكـــريم اللّه

- الإستعداد للقاء الله
- بشرى اللقاء
- في حرم الله
- اللقاء الأخير
- لقاء الله عزَّ وجلَّ

أجرت وزارة الأوقاف مسابقة بين الأئمة تتضمن كتابة موضوع يبين ناحية من نواحي عناية الإسلام بالإنسان، وذلك عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م، وأعلنت أن الجائزة الأولي للبحث هي رحلة حج مجانية على نفقة وزارة الأوقاف، وجهَّز الشيخ ﷺ بحثًا قيمًا بعنوان: (حقوق الإنسان في الإسلام)، وذهب إلى الوزارة لتسليم بحثه، ويقابله زميل كريم كشف الستار عن سر هذا البحث – يوم تأبينه ﷺ – حيث قال: قابلته في ديوان الوزارة، وبيده بحث، فقلت له: ما هذا يا شيخ مُحَمَّد؟ فقال: (هذا بحثٌ أقدمه للوزارة لأفوز بجائزة الحج، وأذهب إلى الأراضي المقدسة وأموت هناك).

وكأن الأقدار تجري بمشيئة الأخيار لقول الله عزَّ وجلَّ في شأنهم:

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾

(٢٢:الشورى)

فقد أُعجبت لجنة المسابقات ببحثه أيما إعجاب، ورشحته للجائزة الأولى، وحُدد يوم الأربعاء ٢٨ من رجب١٤١١هـ الموافق ١٣ من فبراير ١٩٩١م لتكريم الفائزين، حيث أن الوزارة تقيم حفلاً سنوياً في هذه المناسبة التي توافق ليلة الإسراء والمعراج لتكريم الدعاة المبرزين، ويحضر الحفل السيد/ رئيس الجمهورية ليسلم الجوائز بنفسه، وبرفقته كبار رجالات الدولة.

وحضر الشيخ ﷺ الحفل الذي أقيم في قاعة الإمام مُحَمَّد عبده بالأزهر الشريف وتسلم الجائزة، وهي مبلغ ألف جنيه، من السيد/ رئيس الجمهورية، وأخطرته الوزارة بالاستعداد للحج على نفقة الوزارة.

الإستعداد للقاء الله

بدأ الشيخ ﷺ يستعد لأداء فريضة الحجّ مسرورًا، وخاصةً أن وقفة عرفة في هذا العام كانت ستصادف يوم جمعة، أي أنها ستشبه حجة الوداع التي حجَّها رسول الله ﷺ، وفي تلك الآونة رأى في منامه ربُّ العزَّة جلَّ جلالُه وخاطبه قائلا: (إنا اخترناك لتحجَّ عن المسلمين جميعًا هذا العام)، فأوَّلها ﷺ بأنها تشير إلى لقاء الله، فقد كُرِّم ظاهرًا وباطنًا، ونهاية التكريم تكون بلقاء الكريم، فسافر إلى بلدته ههيا وسلَّم على الأهل والأحباب جميعًا – على غير عادته– وودَّعهم وداعًا حارًا.

وتقابلنا معه رضي الله عنه في لقاء جامع بمدينة كفر الشيخ، وطلب مني الإخوان أن أحجَّ معهم هذا العام لأحظى بصحبة الشيخ ﷺ، فاعتذرت إليهم بقلة ذات اليد، فأخبروه رضي الله عنه بذلك، فطلبني وقال لي: لِمَ ترفض الحجَّ مع الإخوان هذا العام؟ فقلت له ﷺ: ليس لدىَ استطاعة مادية الآن، وأنا لا أريد أن أحج إلا من مالي الخاص. فقال ﷺ: أنت تحج هذا العام ولو بمال من يهودي؛ وإلاَّ فمَنْ الذي سيثبّتُ الإخوان؟! فاضطررت لتلبية أمره ﷺ. وبدأ ﷺ يلمّح إلى أنه مسافر في الحقيقة ليلقى الله عز وجل في هذه الأماكن المقدسة، تلبية لرغبته التي استجابها الله عزَّ وجلَّ له.

ففي اللقاء الذي حضره معظم الإخوان في مدينة الزقازيق – للسلام عليه قبل السفر– كان يكرر باستمرار في درسه بين الفينة والأخرى: لعلنا لا نتقابل بعد اليوم!! وعند خروجه من منزله مسافرًا إلى السويس نظر إلى السيدة زوجته وأطال النظر وقال لها: كنتُ أودُّ أن أصحبك معي في هذا السفر، ولكن قلت أتركك لتواسي الأولاد، قالت ماذا تقصد؟ قال: أشعر أنني لن أعود من هناك.

وكان هذا كلامه الذي يوجهه لجميع أحبابه ومعارفه!! حتى قال لخادمه الخاص الحاج ناصر درويش: يا بُني الأنبياءُ يُدفنون حيث يموتون، فسيدنا إبراهيم، وسيدنا

موسى، وسيدنا مُحَمَّد دفنوا حيث ماتوا، وكذلك الأولياء يدفنون حيث يموتون، يعني لا يصح نقلهم من بلد إلى آخر، ثم أضاف قائلا: يا بني لما أموت لا تبكي، وخليك ثابت، لكي تستفيد من هذه المشاهد.

بشرى اللقاء

ذهب ﷺ إلى السويس ليسافر عن طريق البحر إلى جدة، وكان في وداعه بعض الإخوان وقد ناموا مبكرين ليلة السفر ليصبح الشيخ رضي الله عنه مبكرًا متوجهًا إلى الميناء للسفر إلى الأرض المباركة، وفي الصباح بشَّرهم الشيخ وأمرهم أن يبشروا الإخوان بما رآه، فقد رأى سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ وقال له: (أبشر وبشر إخوانك، بأنك وكل من أحبك معنا في الجنة). فقام ﷺ مسرورًا وهو يردد قول الإمام أبي العزائم ﷺ:

وبشرني أني ومن قد أحبني يفوز ويُعطى منه كل مُراده

وقوله أيضًا ﷺ:

وناداني أيا ماضي تهنَّى فأنت ومَنْ يُحِبُّك في أمان

ومن لحظتها كان ﷺ يردد عقب كل صلاة ثلاث مرات: (اللهم تولَّ قبض روحي بيُمْنَاك، مع شدَّةِ الشَّوقِ إلى لقائك يا رحمن).

وسافر ﷺ من السويس على الباخرة سوريا وبرفقته خادمه الخاص الحاج ناصر، وذلك صباح يوم الإثنين ٢٧ من ذي القعدة ١٤١١هـ الموافق ١٠ من يونيو ١٩٩١م، وعلى الباخرة كان ﷺ يقوم بنشاط غير عادي لشرح المناسك، وإرشاد الحجيج، والرد على أسئلتهم واستفساراتهم، حتى وصلوا إلى جدة يوم الأربعاء ٢٩ من ذي القعدة الموافق ١٢ من يونيه.

في حرم الله

أدى ﷺ العمرة يوم الأربعاء غداة وصوله إلى مكة، حيث أنه كان قد نوى التمتع بالعمرة إلى الحج، وخلع ملابس الإحرام ولبس ملابسه العادية، ومكث كعادته في الدأب في تبصير الحجيج بأمور مناسكهم، وتوضيح ما استشكل عليهم من أمر المناسك، في كل موقع تطأه قدمه لأنه كان يرى أن ذلك فرض على العلماء.

وسافرنا نحن بالطائرة من القاهرة مساء الخميس غرة ذو الحجة ووصلنا مكة صباح الجمعة قبل صلاة الجمعة مباشرة، فأدينا صلاة الجمعة في حرم الله وإذا بالحاج ناصر يأتي ويبلغنا بأن الشيخ قلقٌ علينا، ويتعجل وصولنا، ويريد لقاءنا . وكنا برفقة إخواننا جماعة آل العزائم بمغاغة . فأخبرته بأننا سنستريح قليلاً من السفر، ثم نقوم قبل الغروب بساعة لنؤدي العمرة ونتحلل، وفي الصباح سنذهب إليه إن شاء الله.

وقد توجهنا إليه ﷺ في الصباح في الساعة العاشرة من يوم السبت واستمتعنا بجلسته المباركة، ثم استأذناه أن يأتي للإقامة معنا فلبَّى، غير أنه كعادته في أدبه العالي استأذن رفقاءه في السكن، فأذنوا له واشترطوا أن يذهب إليهم ليُلقي عليهم محاضرة بعد صلاة العشاء فوافقنا على ذلك.

اللقاء الأخير

مكث الشيخ ﷺ معنا بقية يوم السبت حتى إذا صلينا العشاء ذهب وفاءاً بوعده إلى رفقائه في السكن من حجاج بورسعيد، وجلس معهم في الدور الخامس من السكن يشرح لهم المناسك، ويجيب على استفساراتهم، وكان في اللقاء وفد من حجاج محافظة كفر الشيخ، فطلبوا منه ﷺ أن يحدِّد لهم ميعاداً يذهب فيه إليهم ليشرح لهم المناسك، فواعدهم على الساعة العاشرة في صباح اليوم التالي مباشرة وهو الأحد.

وبعد انتهاء الدرس رفض رضي الله عنه النزول في المصعد، وأخذ يقرع أبواب الشقق في كل الأدوار ليسلم على الحجاج بها مودعًا وكانوا جميعًا من مدينة بورسعيد.

ووصل الشيخ إلينا في فندق أم القرى – حيث نقيم – في الساعة الحادية عشرة مساءًا فأحببنا أن يتوجه إلى النوم، ولكنه ﷺ قال: أريد أن أجلس معكم لحظات، وبدأ ﷺ يسرد ما حدث في محاضرته، ويوضح أن هناك أخطاء كثيرة يقع فيها كثير من الحجاج لجهلهم بالمناسك، ثم توجَّه إليَّ قائلا: عندما تنزل مصر اجمع هذه الأخطاء تحت عنون (أخطاء شائعة في الحج) وأضفها إلى كتاب (حكمة الحج وأحكامه) في طبعته الجديدة. وقد قمت بتوفيق الله بجمع هذه الأخطاء مع شرح مبسط للمناسك في كتاب سميناه: (**زاد الحج والمعتمر**)، وقد طبع ونشر بفضل الله ورحمته.

ثم أخذ ﷺ يوصينا بما نفعله خلال المناسك في عرفات ومنى، وأوصانا بصفة خاصة أن نرفق بالناس ولا نشق عليهم في النزول إلى مكة لطواف الإفاضة أول أيام العيد، وأن نكمل الصلاة أيام منى، وغيرها من الوصايا التي ندعو الله أن يوفقنا لإنجازها.

ثم توجه ﷺ إلى الأخ جابر عباس – منشد آل العزائم بمغاغة – وطلب منه أن ينشد قصيدة:

لَبَّيْكَ يَا دَاعِيًا رُوحِي إِلَى الذَّاتِ رِفْقًا بِجِسْمِي فَفِيهِ سِرُّ آيَاتِ

وهي للإمام أبي العزائم ﷺ، وكانت القصيدة غير حاضرة في ذهن الأخ جابر فأنشد غيرها، فطلب منه الشيخ مرة أخرى أن ينشد ذات القصيدة، ولما وجده لم يستحضرها قام ﷺ بإنشادها بصوته العذب النَّدي، ثم طلبنا منه أن يذهب إلى حجرته ليستريح، فصافحنا مودعًا، ونهض إلى حجرته في الواحدة مساءًا.

لقاء الله عزَّ وجلّ

وبعد تناول طعام الإفطار توجَّه ﷺ في التاسعة والنصف صباحًا من يوم الأحد الموافق ٤ من ذي الحجة ١٤١١هـ ، ١٦ من يونيه ١٩٩١م وبرفقته الأخوين الكريمين الحاج عوض البشبيشي والحاج ناصر درويش وذلك لإلقاء المحاضرة التي وعد بها حجاج محافظة كفر الشيخ، وحاول الأخوان الكريمان أن يُرْكباه سيارة أجرة، ولكنه ﷺ رفض ذلك قائلا: وما عليَّ أن أغبِّر قدمي في سبيل الله ساعة.

ومشى يتحدث معهما، وفجأة وضع يديه على كتفيهما وشهق شهقة واحدة فاضت على أثرها روحه إلى بارئها عز وجل، لتنهي حياة رَجُلٍ نذر نفسه وماله ووقته وبيته وكلَّه لله عز وجل، فكان من الرجال الذين قال في شأنهم الله عز وجل (٢٣:الأحزاب):

﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلاً ﴾

ولله در القائل:

فَوَا أَسَفِي مِنْ فِرَاقِ قَومٍ هُمْ المَصَابِيحُ والحُصُونُ
والمُدُنُ والمُزْنُ والرَّوَاسِي والخَيْرُ والأَمْنُ والسُّكُونُ
لَمْ تَتَغَيَّرْ لَنَا اللَّيَالِي حتَّى تَوَفَّتْهُمْ المَنُونُ
فَكُلُّ جَمْرٍ لَنَا قُلُوبٌ وَكُلُّ مَاءٍ لَنَا عُيُونُ

وقد قمنا بدفنه في مقبرة المعلا بمكة المكرمة كما أوصى ﷺ وأرضاه. وهو وإن كان لسان حاله يقول:

قل لإخوان رأوْني ميتًا فبكَوْني ورثَوني حُزنا
أتظنون بأني ميتكم ليس ذاك الميت والله أنا
أنا في الصور وهذا جسدي كان لباسي وقميصي زمنًا
أنا كنز وحجاب طلسم من تراب قد تهيّا للفنا
أنا دُر قد حواني صدف حرت عنه فتخلى وهنا
أنا عصفور وهذا قفصي كان سجني فألفت السجنا
أشكر الله الذي خلصني وبني لي في المعالي وطنا
كنت قبل اليوم ميْتا بينكم فحييت وخلعت الكفنا
فأنا اليوم أناجي مَلكا وأرى الحق جهاراً علنا
عاكفا في اللوح أقرأ وأرى كل ما كان ويأتي أو دنا
لا تظنوا الموت موتًا إنه لحياةٌ وهو غايات المنى
لا ترعكم هجمة الموت فما هو إلا انتقال من هنا
فاخلعوا الأجساد من أنفسكم تبصروا الحق عيانا بيِّنا
وخذوا في الزاد جهدا لا تَنَوْ ليس بالعاقل هنا من وَنَا
ما أرى نفسي إلا أنتم واعتقادي أنكم أنا
عُنْصر الأنفاس منا واحد وكذا الأجسام جسم عمنا
فارحموني ترحموا أنفسكم واعلموا أنكم في إثرنا
أسأل الله لنفسي رحمة رحم الله صديقًا أمنا
وعليكم مِنّي سَلامٌ طيّبٌ وسَلامُ الله بَرٌّ وثَنَا

إلا أننا نتمثل بما قاله سيدنا عمر بن الخطاب بعد وفاة سيدنا أبي بكر ﷺ:

مَاتَ الذِينَ أُحِبُّهُمْ فَعَلَيْكِ يا دُنيا السَّلام
إِنِّي رَضِيعُ وِصَالِهِم وَالطِّفْلُ يُؤلِمُهُ الفِطَام

وعزاؤنا فيه قول الإمام أبي العزائم ﷺ وأرضاه:

فَرُوحِي لَمْ تَغِبْ وَالرُّوحُ نُورٌ تُوَاجِهُ مَنْ أُحِبُّ بِنُورِ نُورِي

رحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه الله عنَّا وعن المسلمين أجمعين خير الجزاء، بمغفرة ورضوان وخير في الدنيا والآخرة، ونسأل الله عزَّ وجلَّ أن يلحقنا بمعيته، وأن يحشرنا في زمرته، وأن يكرمنا يوم اللقاء بشفاعته، آمين ... يا رب العالمين.

وكان الفراغ من هذا الكتاب مساء يوم الثلاثاء ١٢ من ذي القعدة ١٤١٣هـ الموافق ٤ من مايو ١٩٩٣م بفضل الله ومنه وكرمه.

وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم

حسن الختام

الحمد لله الذي وفق وأعان، وألهمنا وسددنا حتى أتممنا هذا البيان ووفينا بعض ما علينا نحو إمامنا ومرشدنا لحضرة الديان فضيلة مولانا الشيخ مُحَمَّد على سلامه وبارك الله في تلاميذه الربانيين، وأبداله الروحانيين، الذين قاموا بحمل أمانة الدعوة إلى الله خير قيام، ولم يهدأ لهم بال، ولم يرتاح منهم قلب حتى أخرجوا كل تراثه العلمي إلى النور، وفاءا بالعهد، ورغبة في الدخول في معية أهل الصدق، وخاصة منهم الإخوان الصادقين من أهل مغاغة المحروسة بصعيد مصر، حيث كان لهم النصيب الأكبر والحظ الأعظم في طباعة هذا التراث. كما نسأل الله عز وجل أن يبارك في الأخ المجمل بالإخلاص الحاج السيد إبراهيم المحلاوي رئيس لجنة الطباعة والنشر بالجمعية العامة للدعوة إلى الله، ورفاقه الأوفياء لدورهم العظيم ومجهودهم الكبير في إخراج هذا التراث، وبارك الله في أهل الصدق من الإخوان في كل زمان ومكان وجمعنا وإياهم بفضله سويًا في معية النبي العدنان يوم لقاء حضرة الديان.

﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين ﴾ (١٨٠:١٨٢-الصافات)

****

مراجع الكتاب

١. القرآن الكريم.

٢. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ..... فؤاد عبد الباقي. دار الشعب.

٣. كنز العمال: المتقي الهندي. ..... مؤسسة الرسالة بلبنان ١٩٧٩م.

٤. الفتح الكبير بضم الزيادة إلى الجامع الصغير للسيوطي: النبهاني.
..... مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٢م.

٥. الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة: للسيوطي. ..... دار الاعتصام ١٩٨٧م.

٦. كشف الخفا: للعجلوني. ..... مكتبة التراث الإسلامي بحلب.

٧. إحياء علوم الدين: الإمام الغزالي. ..... دار الشعب.

٨. كشف الغمة عن جميع الأمة: الشعراني. ..... مصطفى الحلبي١٩٥١م.

٩. الرسالة القشرية: القشيري. ..... دار أسامة بيروت ١٩٨٧م.

١٠. لطائف الإشارات: القشيري. ..... الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١م.

١١. عوارف المعارف: السهروردي. ..... دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٣م.

١٢. معارج المقربين: الإمام أبو العزائم. ..... دار المدينة المنورة.

١٣. حلية الأولياء: الأصفهاني. ..... مكتبة السعادة.

١٤. دولة القرآن: طه عبد الباقي سرور. ..... دار الفكر العربي ١٩٨٨م.

١٥. معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية: مناع القطان ..... مكتبة وهبة ١٩٩١م.

١٦. الإسلام كما ينبغي أن نؤمن به: د.عبد الحليم عويس ..... دار الصحوة ١٩٨٥م.

١٧. **سر تأخر العرب والمسلمون: الشيخ مُحَمَّد الغزالي.** ..... دار الصحوة ١٩٨٥م.

١٨. **العارف بالله الشيخ أحمد رضوان:** ..... المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

هذا بالإضافة إلى كل مؤلفات العارف بالله تعالى الشيخ مُحَمَّد على سلامة وهي من إصدار دار الإيمان والحياة.

المؤلف: فضيلة الشيخ فوزي محمد أبوزيد

نبذة: ولد فضيلته في ١٨ أكتوبر١٩٤٨م، الموافق ١٥ من ذى الحجة ١٣٦٧هـ بالجميزة، مركز السنطة، غربية، ج م ع، وحصل على ليسانس كلية دار العلوم من جامعة القاهرة ١٩٧٠م، ثم عمل بالتربية والتعليم حتى وصل إلى منصب مدير عام بمديرية طنطا التعليمية، وتقاعد سنة ٢٠٠٩م.

النشاط: يعمل رئيسا للجمعية العامة للدعوة إلى الله بمصر، والمشهرة برقم ٢٢٤ ومقرها الرئيسى ١١٤ شارع ١٠٥ المعادى بالقاهرة، ولها فروع في جميع أنحاء الجمهورية.، كما يتجول بمصر والدول العربية والإسلامية لنشر الدعوة الإسلامية، وإحياء المُثل والأخلاق الإيمانية؛ بالحكمة والموعظة الحسنة. هذا بالإضافة إلى الكتابات الهادفة لإعادة مجد الإسلام، من التسجيلات الصوتية الكثيرة والوسائط المتعددة للمحاضرات والدروس واللقاءات على الشرائط والأقراص المدمجة، وأيضا من خلال موقعه على شبكة الإنترنت www.Fawzyabuzeid.com وهو أحد أكبر المواقع الإسلامية فى بابه وجارى إضافة تراث الشيخ العلمى الكامل على مدى خمسة وثلاثين عام مضت، وقد تم إفتتاح واجهة للموقع باللغة الإنجليزية.

دعوته: ١- يدعو إلى نبذ التعصب والخلافات، والعمل على جمع الصف الإسلامى، وإحياء روح الإخوة الإسلامية، والتخلص من الأحقاد والأحساد والأثرة والأنانية وغيرها من أمراض النفس، ٢- يحرص على تربية أحبابه بالتربية الروحية الصافية بعد تهذيب نفوسهم وتصفية قلوبهم.، ٣- يعمل على تنقية التصوف مما شابه من مظاهر بعيدة عن روح الدين، وإحياء التصوف السلوكى المبنى على القرآن والسنة وعمل الصحابة الكرام.

هدفه : إعادة المجد الإسلامى ببعث الروح الإيمانية، ونشر الأخلاق الإسلامية، وبترسيخ المبادئ القرآنية.

۞ قائمة مؤلفات الشيخ المطبوعة

حتى ٢٨ يناير ٢٠١٩م، خمس عشرة سلسلة تحتوى على ١١١ كتاب

م	الكتاب (ط: طبعات، ت: ترجمة)	ط	ت	م	الكتاب(ط: طبعات، ت: ترجمة)	ط	ت
السلسلة الأولى : فى تفسير القرآن الكريم : ١١				٤	نفحات من نور القرآن ١	١	
١٤	نفحات من نور القرآن ٢	١		٤٨	أسرار العبد الصالح وموسى عليه السلام	٣	
٩١	الآداب القرآنية مع خير البرية ﷺ	١		٩٣	أسرار خلة إبراهيم عليه السلام	١	
٩٦	تفسير آيات المقربين: ج١	١		١٠٢	تفسير آيات المقربين: ج٢	١	
١٠٣	حكمة لقمان وبر الوالدين	١		١٠٥	تفسير آيات المقربين : ج٣	1	
١٠٨	تفسير آيات المقربين : ج٤	١		١٠٩	تفسير آيات المناسبات	1	
السلسلة الثانية : الفقـــــــه: ٩				٢	زاد الحاج والمعتمر	٣	
٥	مائدة المسلم بين الدين و العلم	٢		٥٢	كيف تكون داعياً على بصيرة	١	
٥٤	مختصر زاد الحاج والمعتمر	٢		٧١	الصيام شريعة وحقيقة	١	
٧٢	إكرام الله للأموات	١		٩٥	صيام الأتقياء	١	
١٠٠	دلائل الفرح بالرحمة المهداة	١		١٠٤	سنن الهدى	١	
السلسلة الثالثة : الحقيقة المحمدية: ١١				٧	حديث الحقائق عن قدر سيد الخلائق	٤	
١٣	إشراقات الإسراء ج ١	٢		٢٢	الكمالات المحمدية	٢	
٢٣	الرحمة المهداة	٢		٣٣	واجب المسلمين المعاصرين نحوه	٢	
٣٥	إشراقات الإسراء ج٢	١		٦١	السراج المنير	١	
٧٠	ثانى اثنين	١		٨٥	الجمال المحمدى ظاهره وباطنه	١	
٨٧	تجليات المعراج	١		٩٠	شرف شهر شعبان	١	
السلسلة ٤ : من أعلام الصوفية: ٧				١	الإمام أبو العزائم المجدد الصوفى	٢	
٣	الشيخ محمد على سلامه سيرة	١		٤١	المربى الربانى السيد أحمد البدوى	١	
٤٥	شيخ الإسلام إبراهيم الدسوقى	٢		٥٩	الشيخ الكامل السيد أبو الحسن الشاذلى	١	
٩٧	الإمام أبو العزائم، سيرة حياة	١		١٠٧	الشيخ عبد الرحيم القنائى ومدرسته الروحية	١	

السلسله الخامسه : الدين والحياة: ٧				٢٦	إصلاح الأفراد والمجتمعات فى الإسلام	٢	
٣٤	كيف يحبّك الله	٤		٣٩	كونوا قرآنا يمشى بين الناس	٢	
٥٠	قضايا الشباب المعاصر	١		٦٧	بنو إسرائيل ووعد الآخرة	١	
٧٥	أمراض الأمة وبصيرة النبوة	١		٩٢	فقه الجواب (الإجابة على أسئلة	١	

السلسلة٦: الخطب الإلهامية للمناسبات : ٧				١٦	خطب المولد النبوى	١	
١٧	خطب شهر رجب والإسراء والمعراج	١		١٨	خطب شهر شعبان و ليلة الغفران	١	
١٩	خطب شهر رمضان و عيد الفطر	١		٢٠	الحج و عيد الأضحى	١	
٢١	خطب الهجرة ويوم عاشوراء	١		٥٥	الخطب الإلهامية: مجلد مناسبات	٢	

السلسله السابعة: الخطب الإلهامية العصرية: ١				٧٨	الأشفية النبوية للعصر	١	

السلسله الثامنه: المرأة المسلمه: ٥				٩	تربية القرآن لجيل الإيمان	١	
43	المؤمنات القانتات	٢		٤٤	فتاوى جامعة للنساء	٢	
74	الحب والجنس فى الإسلام.	١		١٠٦	المرأة المسلمة بين الإباحة	١	

السلسله التاسعه : الطريق إلى الله: ١٢				٦	طريق الصديقين إلى رضوان رب	٢	
٢٥	طريق المحبوبين وأذواقهم	١		٢٨	المجاهدة للصفاء و المشاهدة	٢	
٣٠	علامات التوفيق لأهل التحقيق	١		٣١	رسالة الصالحين	١	
٣٢	مراقى الصالحين	٢		٥٧	تحفة المحبين في عاشوراء	١	
٦٠	نوافل المقربين	١		٦٤	أحسن القول	١	
٧٩	دعوة الشباب العصرية للإسلام	١		٨٨	مجالس تزكية النفوس ج١	١	
٨٩	مجالس تزكية النفوس ٢	١					

السلسه العشرة: الاذكار والاوراد: ٧				٨	مفاتح الفرج	٦	
١٥	أذكار الأبرار	١		٣٧	مختصر مفاتح الفرج	٥	
٣٨	أذكار الأبرار صغير	٣		٤٠	أوراد الأخيار تخريج وشرح	٢	
٥٦	نيل التهانى بالورد القرآنى	١		٧٣	جامع الأذكار والأوراد	٢	

السلسله ١١: دراسات صوفيه معاصرة: ١٦				١٠	الصوفية و الحياة المعاصرة	١	
١١	الصفاء والأصفياء	١		١٢	أبواب القرب ومنازل التقريب	١	

٢٩	الصوفية فى القرآن والسنة	٣		٣٦	المنهج الصوفى والحياة العصرية	١	
٤٢	الولاية والأولياء	١		٤٩	موازين الصادقين	١	
٥١	الفتح العرفانى	١		٥٣	النفس وصفها وتزكيتها	١	
٥٨	سياحة العارفين	١		٦٣	منهاج الواصلين	١	
٦٥	نسمات القرب	١		٦٨	العطايا الصمدانية للأصفياء	١	
٧٧	شراب أهل الوصل	١		٨٣	مقامات المقربين	١	
٩٨	آداب المحبين لله	١					

السلسلة الثانية عشر : الفتاوى: ٦				٢٤	فتاوى جامعة للشباب	١	
٧٦	فتاوى فورية ج١	١		٨٠	فتاوى فورية ج٢	١	
٨٤	فتاوى فورية ج٣	١		٨٦	فتاوى فورية ج٤	١	
١٠١	يسألونك	١					

السلسلة الثالثة عشر: أسئلة صوفية: ٤				٢٧	نور الجواب على أسئلة الشباب	٢	
٦٩	الأجوبة الربانية للأسئلة الصوفية	١		٩٩	إشارات العارفين	١	
١١١	بينات الصدور						

السلسلة الرابعة عشر: حوارات مع الآخر: ٣				٨١	سؤالات غير المسلمين	١	
٨٢	حوارات الإنسان المعاصر	١		٩٤	أسئلة حرة عن الإسلام والمسلمين	١	

السلسلة الخامسة عشر: شفاء الصدور: ٥				٤٦	علاج الرزاق لعلل الأرزاق	٢	
٤٧	بشائر المؤمن عند الموت	٣		٦٢	بشريات المؤمن في الآخرة	١	
٦٦	بشائر الفضل الإلهي	١		١١٠	الدعاء المستجاب	١	

أين تجد مؤلفات فضيلة الشيخ فوزى محمد أبوزيد

إسم المكتبة	رقم الهاتف	القاهـرة
مكتبة المجلد العربي	٢٥٩١٢٥٢٤	١١٦ شارع جوهر القائد الأزهر
مكتبة الجندي	٢٥٩٠١٥١٨	سوق أم الغلام ميدان الحسين
دار المقطم	٢٧٩٥٨٢١٥	٥٢ شارع الشيخ ريحان،عابدين
مكتبة جوامع الكلم	٢٥٨٩٨٠٢٩	١٧ الشيخ صالح الجعفرى الدراسة
مكتبة التوفيقية	٢٥٩٠٤١٧٥	١ عمارة الأوقاف بالحسين
بازار أنوار الحسين	٠١٢٢٧٤٧٥٩٣١	٢ زقاق السويلم خلف مسجد الحسين
مكتبة العزيزية	٢٥٩١٥٢٢٤	١١ ميدان حسن العدوى بالحسين
الفنون الجميلة	٢٥٩٠٠٧٨٦	١٣٠ شارع جوهر القائد بالدراسة
مكتبة الحسينية	٢٥٩٠٢٥٤١	٢٢ شارع المشهد الحسيني بالحسين
مكتبة القلعة	٢٥١٠٨١٠٩	١ شارع مُحَمَّد عبه خلف الأزهر
مكتبة نفيسة العلم	٢٥١٠٤٤٤١	٩ ميدان السيدة نفيسة .
المكتب المصري الحديث	٢٣٩٣٤١٢٧	عمارة اللواء ٢ شارع شريف
الأديب كامل كيلانى	٢٣٩٦١٤٥٩	٢٨ شارع البستان بباب اللوق
مكتبة دار الإنسان	٣٣٣٥٠٠٣٣	١٠٩ شارع التحرير، ميدان الدقي
مكتبة مدبولى	٢٥٧٥٦٤٢١	٦ ميدان طلعت حرب
مدبولى مدينة نصر	٢٤٠١٥٦٠٢	طيبة ٢٠٠٠، شارع النصر مدينة نصر
النهضة المصرية	٢٣٩١٠٩٩٤	٩ شارع عدلى جوار السنترال
هلا للنشر والتوزيع	٣٣٤٤٩١٣٩	٦ ش د. حجازي، خلف نادي الترسانة
المكتبة الأزهرية للتراث	٠١٠٠٥٠٤٢٧٩٧	درب الأتراك، خلف الجامع الأزهر
مكتبة أم القرى	٢٥٨٩٨٢٥٣	١٢٨ شارع جوهر القائد الأزهر
المكتبة الأدبية الحديثة	٢٥٩٣٤٨٨٢	٩ شارع الصنادقية بالأزهر
مكتبة الروضة الشريفة	٢٦٤٤٤٦٩٩	٢١شارع د.أحمد أمين، مصر الجديدة
		الإسـكندرية
كشك سونا	٠١٢٢٤٦٠٩٠٨٢	محطة الرمل، أمام مطعم جاد
الكتاب الإسلامى الثقافى	٠١٠٠١٢٣٢٦٩٨	محطة الرمل، صفية زغلول
كشك مُحَمَّد سعيد موسى	٠١١١٤١١٤٣٠٠	٦٦ شارع النبي دانيال، محطة مصر
مكتبة الصياد	٠٣-٣٩٢٨٥٤٩	٤ ش النبي دانيال، محطة مصر
مكتبة سيبويه	٠٣-٥٤٦٢٥٣٩	٢٣ المشيرأحمد إسماعيل، سيدى جابر

الكشك الأبيض	٠١٢٨٨٣٤٣٥٥٥	محطة الرمل– أ/ أحمد الأبيض
		الأقــاليم
كشك عبد الحافظ	مُحَمَّد -------	الزقازيق– بجوار مدرسة عبد العزيز على
مكتبة عبادة	٠٥٥-٢٣٢٦٠٢٠	الزقازيق – شارع نور الدين
مكتبة تاج	٠٤٠-٣٣٣٤٦٥١	طنطا– أمام مسجد السيد البدوى
مكتبة قربة	٠٤٠-٣٣٢٣٤٩٥	طنطا– ٩ش سعيد والمعتصم أمام كلية التجارة
كشك التحرير	٠١٠٠٨٩٣٥١٨٢	كفر الشيخ – شارع السودان أمام السنترال، أ/سامى أحمد عبد السلام
مكتبة صحافة الجامعة	٠١٠٠٢٢٨٥٢٥٣	المنصورة – شارع جيهان بجوار مستشفى الطوارىء أ/عماد سليمان
مكتبة الرحمة المهداة	٠١٠٠١٤٢١٤٦٩	المنصورة، عزبة عقل، ش الهادى، أ/عاطف وفدى
مكتبة صحافة الثانوية	٠١٠٠٥٧٣١٥٥٠	المنصورة– ش الثانوية بجوار مدرسة ابن لقمان، ح كمال الدين أحمد
صحافة أخبار اليوم ح مُحَمَّد الأتربى	٠١٢٢٤٩١٧٧٤٤	طلخا – المنصورة– بجوار مدرسة صلاح سالم التجارية، أمام كوبرى طلخا
مكتبة الإيمان	٠١٢٢٦٤٦٨٠٩٠	فايد– أ حماده غزالى بربرى
كشك الصحافة	٠١٢٢٧٩٦٠٤٠٩	السويس،ش الشهداء، ح حسن مُحَمَّد خيرى
أولاد عبدالفتاح السمان	٠٩٣-٢٣٢٧٥٩٩	سوهاج– شارع احمد عرابي أمام التكوين المهنى
كشك أبو الحسن	٠١٠٦٩٥١٨٦١٦	قنا– أمام مسجد سيدي عبد الرحيم القناوى
كشك القرايا– إسنا	٠١٠٠٨٦٩٨٦٦٤	القرايا– إسنا – ش السيدة زينب– الحاج مُحَمَّد الريس والأستاذ مُحَمَّد رمضان مُحَمَّد النوبى
كشك حسنى بإسنا	٠١١١١٤٩١٨٢٣	كشك حسنى مُحَمَّد عبد العاطى المنسى أمام مستشفى الرمد بإسنا – الأقصر

أيضاً بدور الأهرام والجمهورية والأخبار والمكتبات الكبرى بأنحاء الجمهورية. ويمكن أيضاً قراءة الكتب وتنزيل نسخة الطباعة مجانا من موقع الشيخ www.fawzyabuzeid.com وعلى موقع www.askzad.com موقع الكتاب العربى ، أوطلبها من الناشر: دار الإيمان والحياة، ١١٤ ش١٠٥ حدائق المعادي بالقاهرة، ت: ٠٢-٢٥٢٥٢١٤٠، ف: ٠٢-٢٥٢٦١٦١٨

الفهـرس

الموضـــوع الصفحة

مقدمة ٤

الباب الأول

بداية البداية ٩

البحث عن العارف ١٠

معرفة الإمام أبو العزائم رضى الله عنه ١٤

البحث عن المعرفة ١٤

العثور على الرجل الحىّ ١٧

البداية الصحيحة للسير إلى الله ٢٠

الباب الثانى

أطوار حياته الأولى ٢٥

قيادة حكيمة وأسرة مستقيمة ٢٦

مولده ونشأته ٢٩

الباب الثالث

منهجه فى الدعوة الإسلامية ٣١

الحكمة والموعظة الحسنة ٣٢

القدوة الحسنة ٣٣

الحج إلى بيت الله الحرام ٣٧

الصدق والإخلاص ٣٨

الدعوة إلى الألفة ونبذ العصبية ٤٠

الوفـاء ٤٣

الموضـــوع الصفحة

الباب الرابع

دوره فى علاج مشكلات المجتمع ٤٥
المشكلة الأولى: العمل ٤٨
المشكلة الثانية: الغش – آثاره وعلاجها ٥٠
المشكلة الثالثة: المشكلة الإقتصادية ٥٣
معناها – أسبابها – علاجها
المشكلة الرابعة: إنتشار المخدرات ٥٩
حكم تعاطى المخدرات – حكمة تحريم المخدرات – وسائل القضاء عليها
المشكلة الخامسة: المشكلة السكانية ٦٢
أسبابها – علاجها
المشكلة السادسة: معاملة غير المسلمين – علاجها ٦٥
المشكلة السابعة: قيمة الوقت – علاج هذه المشكلة ٦٦
المشكلة الثامنة: التهاون بالصلاة – علاج هذا المرض ٦٨

الباب الخامس

هموم العالم الإسلامى وإصلاح أحواله ٧١
حرب العاشر من رمضان ٧٢
حروب العراق ٧٣
إصلاح أحوال المسلمين ٧٤
أولاً: عودة الروح للمجتمع الإسلامى ٧٥
ثانياً: تطبيق الشريعة الإسلآمية ٧٧
حكمة تطبيق الشريعة ٧٨

الموضـــوع الصفحة

إمكانية تطبيق الشريعة الإسلامية ٧٩
خطوات تطبيق الأحكام الشرعية ٧٩
أثر تطبيق الشريعة الإسلامية ٨١
وصيــة ٨٢
ثالثاً: العمل على نشر الإسلام ٨٣
دعوة الناس إلى الإسلام ٨٣
أسلوب الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ ٨٥
مسئولية الدعوة إلى الله ٨٧
جمعية الدعوة إلى الله ٩٠
منهج جمعية الدعوة إلى الله ٩٠
رابعاً: الرد على المستشرقين ٩٥
قضية إنتشار الإسلام بالسيف ٩٦
خامساً: العمل على جمع شمل الجماعات المتصارعة ١٠٠

الباب السادس

فقه الخلاف فى الصحوة الإسلامية المعاصرة ١٠١
ظاهرة الخلاف ١٠٦
أسباب الخلاف ١٠٨
أولاً: شروط الإجتهـاد ١١٠
موقف الناس من الإجتهـاد ١١٢
ضرورته وآدابه ١١٣
ثانياً: التوحيد فى القرآن والسنة ١١٦

الموضـــوع الصفحة

التوحيـد ١١٦
شبهات حول عقيدة التوحيد ١١٩
ثالثاً: حول السُّنَّة والبدعة ١٢٣
رابعاً: تغيير المنكر ١٢٦

الباب السابع

بناء الأسرة المسلمة ١٢٩
الفصل الأول: هيكل الأسرة الفاضلة ١٣١
أولاً: القدرة على الزواج ١٣١
ثانياً: إختيار الإنسان شريك حياته ١٣١
ثالثاً: القدرة على المباشرة الجنسية ١٣٣
رابعاً: تربية الأبناء وحسن رعايتهم ١٣٤
الواجب نحو الإبن جنيناً ١٣٤
الواجب نحو المولود ١٣٧
أسرار الرضاعة ١٣٧
تأخير الحمل أثناء الرضاعة ١٣٨
حكم تنظيم الإنجاب ١٣٩
اليوم السابع للمولود ١٤٠
الفصل الثانى: منهج الإسلام فى تربية النشء ١٤١
١- المرحلة الأولى: الملاعبة ١٤١
٢- المرحلة الثانية: التأديب ١٤٢
٣- المرحلة الثالثة: المصاحبة ١٤٣

الموضـــوع الصفحة
مشكلات الأبناء مع الآباء ١٤٤
١- العقوق وعدم الرضا ١٤٤
٢- هضم الأبناء حقوقهم ١٤٦
٣- إلغاء شخصية الإبن ١٤٧
الفصل الثالث: عناية الإسلام بالمرأة ١٤٨
١- قوامة الرجل على المرأة ١٥١
٢- الإنفاق ١٥٣
٣- الميراث ١٥٣
٤- الطلاق ١٥٤
٥- قضية النشوز ١٥٦

الباب الثامن

نهجه فى التربية الروحية ١٥٩
أولاً: المرشد الرباني ١٦٠
ضرورة التعرف على المرشد ١٦١
صفات المرشد ١٦٢
نورانية المرشد وشفافيته ١٦٦
ثانياً: الأدب مع المرشد ١٧٠
نموذج قويم لأدب المريد مع شيخه ١٧٢
الغاية من الأدب مع المرشد ١٧٢
من أدب السالكين ١٧٤
مِنَنُ العارفين ١٧٥

الموضـــوع الصفحة
ثالثاً: الأدب مع الإخوان ١٧٦
واجب الأخ نحو أخيه ١٧٨
الزيارة فى الله ورسوله ١٧٩
آداب زيارة الإخوان فى الله ١٨١
رابعاً: الوصول إلى الله ١٨٢
١- اليقظة ١٨٥
٢- جهاد النفس ١٨٦
٣- التجمل بمكارم الأخلاق ١٨٨
٤- الإستقامة ١٨٩
٥- حقيقة الوصول إلى الله ١٩٠
خامساً: مقامات القرب ١٩٢
جهاد المقربين ١٩٥
نعيم أهل القرب ١٩٦
وصيـة للإخوان ١٩٩

الباب التاسع

الباقيات الصالحات ٢٠٢
أولاً: الأثر البشرى ٢٠٣
الموضـــوع الصفحة
ثانياً: أثره الصوتى ٢٠٤
ثالثاً: تراثه العلمى ٢٠٦

الموضـــوع الصفحة

الباب العاشر

تكريـم الله ٢١١
الإستعداد للقاء الله ٢١٣
بشرى اللقـاء ٢١٤
فى حرم الله ٢١٥
اللقاء الأخير ٢١٥
لقـاء الله عزَّ وجلَّ ٢١٧
حسن الختـام ٢٢٠
مراجع الكتاب ٢٢١
ترجمة المؤلف ٢٢٣
قائمة مؤلفات العارف بالله الشيخ/ فوزى مُحَمَّد أبو زيد..... ٢٢٤

****

****